رواية

أَرْوَاحٌ مُتَعَانِقَةَ

المدينة القاسية

أسماء سالم الكتبي

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أَرْوَاحٌ مُتَعَانِقَة
المدينة القاسية

أَرْوَاحٌ مُتَعَانِقَة
المدينة القاسية

رواية

أسماء سالم الكتبي



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2018 م - 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3593-9

تــوزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

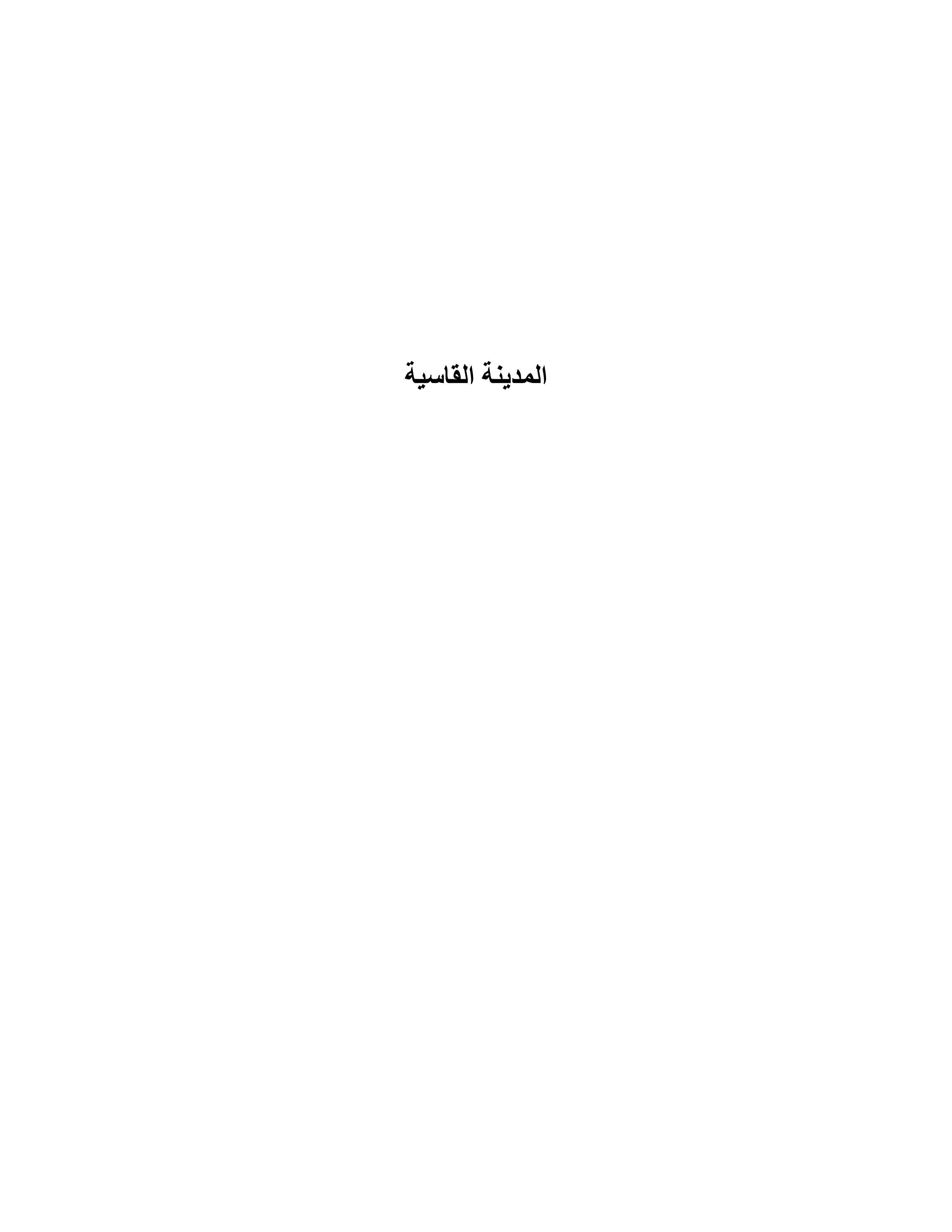
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: **رفعة العجمي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبـجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)



المدينة القاسية

المعانقة الأولى

في غرفة بيضاء واسعة، تحت إضاءة صفراء باهتة، جلست تلك المجموعة المتمحورة حول بعضها البعض على أرائك جلدية سوداء، الرؤوس مُنكسة في لحظة إلى الطاولة الزجاجية، وفي لحظة أخرى ترتفع لتنظر إلى بعضها البعض. الوجوه تخفي مطامع النفوس، والمصالح تختبئ وراء زي البراءة، لا تعرف أيهم أشد خباثةً ودناءةً. من بين الرجال الستة رفع «علي» السيجارة إلى فمه الأسمر قبل أن ينفثها بعيداً عن البقية ويهشمها على السطح الزجاجي للحاوية، ويعاود تركيزه على صاحبه «ذياب» الذي يعقد حاجبيه السوداوين وهو يرسم الكثير من الخطوط ويكتب الكلمات على الورقة الكبيرة التي أمامه.

كان الكل يركز انتباههُ على ذياب، وهو ينقل نظراته الواثقة بينهم، يتحدث بانسيابية، كلماته منتقاة وحركاته مدروسة، وهم يناقشونه ويؤيدون خططه، فلقد خُيّل إليهم أنه منهم، وليس مجرد جاسوس يكيد لهم كيدا!

بعد انتهاء الاجتماع ربّت على ظهر ذياب، نظر إليه نظرة ذات مغزى، ووقفا مع البقية وتصافحوا قبل أن يلملم كل واحد منهم أغراضه ويخرجوا جميعاً من الغرفة مودعين بعضهم البعض، ويسلك الأربعة اتجاها عكس اتجاه الاثنين. مشيا على سجادة حمراء، في ممر طويل شديد الإنارة، تزينت جدرانه البيضاء بلوحات قديمة الطراز، وتجاورت الغرف على طوله.

وأخيراً توقفا عند باب خشبي ضخم ومنحوت، فتح علي الباب من دون طرق، دخل ليتبعه ذياب الذي لا يزال محافظاً على رباطة جأشه.

بعد ذلك اللقاء الذي حدث صدفة، تشابكت الأحداث بينهما. كانت ضربة حظ حصل عليها ذياب في ذلك اليوم الذي كان مكلفا فيه بالقيام بمهمة سرية من العمل، هو ومجموعة من رجال الشرطة لتعقب تجار المخدرات، وبالمصادفة حدث تصادم بالسيارة في طريق ذهابهما، وقبل أن يحدث أيّ نزاع، تعرفا إلى بعضهما على الفور، وتغيرت ملامح وجه ذياب من هول الصدمة لرؤية علي الذي كان وصمة عار التصقت بماضيه!

ولكن علي لم يكن يعتبر ذياب إلا صديقاً قديماً، ففي سنوات الطفولة والمراهقة كانا صديقين تربطهما علاقة مصلحة وقوة، لأنهما كانا يسكنان ذات الحي، وكم تعاركا في طفولتهما وتشاتما وتصالحا، فلقد كان ذياب شخصاً هادئاً وكثيراً ما كان يحاول الابتعاد عن المشكلات إلا أنه كان طماعاً تجذبه أحاديث علي ومغامراته. أما علي فقد استغل في تلك الفترة ضعف نفس ذياب وحاجته لكي يقربه من نفسه ويجعله رفيقه ويشركه في جرائمه الصغيرة مثل سرقة أدوات البناء، وترويج المخدرات.

وفي نهاية ذلك اللقاء الذي كان مليئاً بالحفاوة من جانب علي، ومليئاً بالسخط من جانب ذياب، تبادلا رقمي هاتفيهما على أمل اللقاء القريب!

وعند عودة ذياب إلى المقر راوده الشك بشأنه، فبحث عنه وسأل ليكتشف أن علي لديه سجل إجرامي ضخم مليء بالجرائم، إحداها حيازة المخدرات، فعلي لم يترك ذلك المجال الذي أقحم ذياب فيه ليخرج منه هو الآخر بصعوبة، وبأقل الخسائر بفضل عناية الله ودعوات أمه!

التقرب من علي لم يكن شيئاً سهلاً، كان ماضيه شفيعاً له، بجانب أنه لم يكن شخصاً جيداً في الماضي، إنما كان لديه صفحة سوداء عريضة ومليئة بالندوب، وكان علي رفيق تلك الصفحة.

في المرة الثانية التي التقيا فيها بعد اتصال منه وموعد من الآخر، سأله علي:

- كيف هي أحوال السرقات؟ أما زلت تسرق؟ وهل ما زلت تتاجر بالمخدرات؟

في تلك اللحظة فضل الصمت على الكلام، فصدره امتلأ بالمرارة لكل تلك الذكريات التي تدفقت على عقله، لتذكره بكل تلك الأعمال السيئة التي شارك فيها، حتى تعود عليها ولم يعد

يستنكرها في ذلك الوقت. حتى ضميره الذي يستيقظ متى أحس بالخطر والندم، كان لا يردعه عن تلك الأفعال التي كان لا يجني من ورائها إلا مبالغ نقدية زهيدة يعطيها علي له.

أخبره بعد صمت قصير:

- أقول الحقيقة، لقد توقفت عن ترويجها، ولكنني ما زلت مع الصحبة القديمة!

فكر قليلاً بعد جملته وابتسم ابتسامة صغيرة قوّست شفتيه، إن كل العلاقات القديمة أصبحت سطحية وغير محببة، لأنها لم تكن أكثر من علاقة مصلحة، وهكذا أصبحت علاقته مع علي.

كان مجبراً على الكذب والنفاق على علي لكي يستدرجه، ولكي يعيد بناء تلك الثقة التي ذهبت مع سنوات الفراق، فهو ومنذ أن التقى به وعرف حقيقته وسجله الإجرامي الذي لم يخلُ من جريمة إلا وارتكبها وخرج منها ببراءة، أخذ على نفسه عهداً بأن يمسكه بالجرم المشهود، وأن يستغل علاقته به لكي يظهر العدالة فيه، بعد أن تهرب منها طويلاً.

* * *

دخل إلى الغرفة خلف علي، كانت الغرفة رفيعة المستوى في فخامتها وإضاءتها، وكانت عبارة عن تحف وأثاث تراثيّ عربي، ولكنها كانت فوضوية بعض الشيء. توقف للحظات قبل أن يكمل المسير وقبل أن يصطدم بباقي الألوان وبكل ما حوتهُ الغرفة من أثاث، والتصقت على وجهه الدهشة، وخفق قلبه استنكاراً عند رؤية أبي علي الذي كان يقف في آخر الغرفة يتحدث في الهاتف.

لم يصدق أنه يراهُ هنا!.. إنه ذلك الرجل الهادئ والوقور، الذي يهابه الجميع. كان ضخم الجثة، حنطي اللون، ولم يكن يملك إلا عيونا صغيرة وفما أكبر بقليل، بل كان وجهه كله عبارة عن نقط إلا وجنتيه، ولم يكن له شعر في وجهه، ولا على رأسه مما جعله يظهر أكبر عن عمره، ولم يكن يبتسم، فهو لم يرهُ قط مبتسماً!

تقدم أبو علي ناحيتهما بعد أن أنهى مكالمته ودس هاتفه في جيب سترته البنية الطويلة، لتعلو شفتيه ابتسامة متهكمة، باردة وغير واثقة، نظراته المسترخية تغيرت لتتصاعد إليها القسوة والجمود.

قال وهو يطيل النظر إلى ذياب من دون أن يتزعزع نظره:

- هل أنت واثق منه!

تبخرت ثقته لثوانٍ من شدة توتره والصدمة لكون أبي علي هو الرأس المدبر! وكاد يفقد تركيزه ويقر بالهزيمة، ولكنه تماسك بصعوبة وبادل أبا علي نظراته في ثقة حاول خلقها ليبث في نفس الآخر الطمأنينة.

قال علي باندفاع، وكل الثقة على لسانه:

- أكيد لأنه ذياب، إنه جدير بالثقة لأن نفسه لم تسول له أن يخونني قط!

شد ذياب قبضتيه في جيبي بنطاله الأسود، ونظراته تقع على يد علي التي امتدت لتمسك بكتفه وترسل القشعريرة إلى كل جزء منه، وتجعله يحاول الثبات أكثر.

علي ساذج، بل معتوه وغبي، ومتسرع لا يحسن اختيار أصحابه. ولكن ما قاله صحيح، فذياب لم يخنهُ قط!

قهقه علي لثوانٍ ليكمل، وقد تشكلت على وجهه ابتسامة خبيثة:

- لا تنسَ أنه كان من أمهر المروجين في المراهقة!

زاده تعقيبه ثقة، أراحت تلك الثقة العالية وجه أبي علي، ولكنه اتخذ الحيطة رفيقة، ولم تتمكن الثقة منه، كان متوجساً وحذراً، بحث عنه قليلاً لعلهُ يجدُ شيئاً يدينه به. ولكن مهمته كانت في غاية السرية ولم يكن أحد يعرف عنه شيئاً بعد هجرته في عمر السادسة عشرة من العاصمة إلى المدينة الساحلية مسقط رأس أمه، التي يوجد فيها معظم أقرباء أمه بخلاف العاصمة التي عاش معظم طفولته فيها، وهاجر بعد وفاة عمته التي كانت آخر فرد كبير من عائلة والده، وانقطعت أخباره عنهم إلا أنه مع عمله في الشرطة التحق بالجامعة لدراسة القانون.

* * *

عاد إلى مدينته على متن رحلة على القطار استمرت نصف ساعة، وكله شوق إلى أمه التي ربته وحيدة بعد وفاة والده وهو بعمر ست سنوات. كانت مثالاً للشدة واللين؛ لقد جاهدت لتربيته، وكم تحملت كل نزواته ومشكلاته التي لم تكن تنتهي في سني الطفولة والمراهقة.

الحسنة الوحيدة هي أنه كان مروجاً ولم يتعاطَ المخدرات، ولم يدخل في تلك المعمعة التي يصعب الخروج منها.

كان يطمع لجمع الأموال لأنهما كانا من الفقراء، بعض الدراهم التي تحصل عليها أمه من العمل في بعض البيوت والمتاجر كانت لا تكفي إلا للمأكل فقط، ولأنه رأى الرفاهية التي يعيش بها بعض أقرانه، طمع وطمح لتحقيق القليل من رغباته، فأمه لم تكن تسمح له بالعمل، وفي كل مرة تكتشف فيها عمله تخاصمه وتغضب عليه إلى أن يرضيها ويعِدها بأن يترك العمل ويركز على دراسته.

ويحمد الله كثيراً على عدم اكتشافها ترويجه المخدرات، لأنهُ كان يعمل في الخفاء والكتمان، ولكنها كانت تشك به دائماً، ويصيبها القلق، ويرهقها التفكير في وحيدها، وكانت تواجه ذلك بهدوء مخفيةً اضطرابها.

تقول له في كل مرة يعود فيها متأخراً أو نادماً مغموماً:

- ذياب أتعرف... أشعر دائماً أن هناك في قلبي ما يشبه وخز الدبوس! ذياب اعترف هل تفعل شيئاً تخفيه عني؟!

وكذلك عندما ترى لديه بعض الأموال والأغراض التي لم تعطِه ثمنها، فيكذب عليها بقوله إنها من عند صديقه الغني علي، فتقتنع على مضض.

وكان التوتر يصيبهُ كلما التقت عيناه بعينيها المنقبتين عن أسراره، إلى أن أصبح لا ينظر إليها، يشيح بصره عنها كلما تحدثا أو دخلا في موضوع يخصه ويخص شكوكها.

استقبلته بأحضانها الدافئة ووجهها المتهلل فرحاً، والدمع يكاد يقطر من عينيها شوقاً. جرتهُ إلى أقرب مقعد، طرحت رأسه في حجرها كعادتها، وأخذت تمسح على شعره، كم يشتاق إلى هذه اللحظات في كل مرة يرحل بها بعيداً عنها، وكم يدمنها!

أخذت تسأله عن رحلته وما الذي فعل فيها، بالطبع... لم يخبرها أسراره تلك، فلو أخبرها لابيضّ شعرها رعباً وتفطّر قلبها حزنا، ومنعتهُ منها. فهو لا يحب كسر قلبها، فهي أغلى ما يملك

في هذه الدنيا. فكان في بعض الأحيان يحزن على عدم قدرته على تقديم ما هو أفضل لها، ودائماً تقول عند خروجهما للتنزه أو عندما يحضر لها هدية:

- ذياب لا تكلف نفسك، ولا ترهقها، فأنت أعظم هدية منحها الله لي.

كانا يومين مريحين وممتعين، قضى فيهما لحظات سعيدة غيرت من نفسيته وأنسته صعوبة ما يقوم به. بعد العديد من الكلمات والضحكات والوجبات اللذيذة من يد أمه، جاءت ساعة التوجه إلى العاصمة والعودة إلى مهمته.

تجلس أمه على الطرف المقابل له بعد أن احتسيا قهوة عربية من صنع يده، أصر على صنعها لها. رفعت نظرها إليه في تأمل طويل، كادت تفر ابتسامتها وهي ترى توتره الذي ظهر على ملامح وجهِهِ الحنطية، ونظره الذي انتقل إلى أصابعها التي أمسكت خصلة من شعرها الأسود الطويل، وهي تقول:

- ذياب ما رأيك في أن تتزوج؟

عقد حاجبيه في عبوس واستغراب، استغرق لحظات يستوعب فيها قصدها! فهي لا تكف عن الهمز واللمز في هذا الموضوع من أجل الدعابة، بصوت منخفض رافض قال:

- أمي أرجوكِ أنا لم أكوّن نفسي بعد، وتكاليف الزواج ضخمة وتحتاج عمراً لجمعها.

يشعر أنه صغير على تحمل مسؤولية الزواج وهو بعمر العشرين. أمسكت يده فوق الطاولة الزجاجية بإصرار، وقالت بملامح جدية:

- دعك من التكاليف، فهي محلولة بإذن الله، ما رأيك في خطبة رسمية فقط!

خطرت على باله ابنة خالته علياء، التي اختارتها أمه لهُ منذ نعومة أظفاره، وما زالت تصر عليها حتى الآن، في الحقيقة هو لا يمانع، ولكنه لا يفكر جدياً في الزواج الآن!

قام ليتدارك الوقت، ولكيلا تفوتهُ الرحلة، قامت أمه معه، قبلت جبينه قبل أن يقبلها، ضمته هامسةً بصوتٍ شابهُ الحزن:

- أستودعك الله يا بُني. انتبه لنفسك، ولا تنسَ الاتصال بي!

في الحقيقة هو لا يحب هذه اللحظات، ولا يحب الحزن الذي يُزرَع في داخله، دمعات أمه تملأ جفونها، تمسكها بقوة عن السقوط، ووجهها الشاحب يبتسم بمرارة مخفياً حزنه، ودعها طويلاً قبل أن يغادر، قبّل خدها البارز من نحوله، وأمسك بكفها الدافئة لكي يخفف عنها، ضمّها إليه مودعاً قبل أن تستقبل قدماه عتبة الباب وتمسك يده الحقيبة بشدة.

لا يعلم لماذا شعر بالخوف من فقدانها! أم هو خوف آخر لا يعلم سره!

رحل عنها إلى الشارع، مشى قليلاً والهواء الرطب يهب عليه وأشعة الشمس تلمس بشرته والرمال الصحراوية تتوزع بالتساوي في المنطقة، الشوارع القروية التي يحيط بها بعض النخيل وأشجار الغاف هادئة تقريباً في هذه الظهيرة إلا من بعض المارة. قرية أهل أمه أجمل بكثير من مكان إقامتهم السابق ومن صخب المدينة وشوارعها، الهدوء هنا سيد المكان، والأهالي والجيران كلهم يد واحدة، المحبة والألفة هما من أركان مجتمعهم. وعند ذهابه إلى مكان بعيد يطمئن على أن أمه لن تكون وحيدة، ولن يكون قلقه شديداً إذا ما حدث لها مكروه لا قدر الله، فهم سيكونون بجوارها. رفع يده وهو يقف قرب الشارع العام، يشير إلى سيارة أجرة مارة، اختطف نظرة سريعة إلى القرية، يتأمل تفاصيلها قبل أن يصعد ويرحل.

* * *

أصدر علي ضحكة جلبت الاشمئزاز إلى ذياب الجالس حذاءه، فأسنانه الصفراء متداخلة في بعضها البعض. وفي كل مرة كان يعتدل في جلسته ويدخن سيجارته، يلمس عنقه ويبعد شعره الأسود الطويل عن رقبته القصيرة. وكلما ضحك برز اللون الداكن تحت عينيه الصغيرتين وازدادت بشرته القمحية اسمراراً.

كان يحكي لهُ عن مغامراته المتهورةِ وتصرفاته القاسية، يذم كل من حوله بكلماته هذه ويكاد يبصق على وجه ذياب ويضمه إليهم من شدة غروره!

بعد كل التمثيل الذي قام به، وانصياعه الوضيع لهم، وخططه العبقرية التي أعجبوا بها وأثنوا عليها، رأى نظرات الإعجاب في عيون الجميع إلا في عيني أبي علي الذي ما زال ينظر إليه بتوجس وحذر، وكأنه يقرأ أفكاره ويتتبع تحركاته، يريد الإمساك بأي جرم قد يرتكبه خطأً ويدينه به!

كان مع علي كعادتهما الجديدة، والتي أصبحت عادة علي التي أدمن عليها، بات يثرثر بلا توقف يخبر ذياب بكل صغيرة وكبيرة، وثقته العمياء تعميه، يحدثه عن جريمة ارتكبها قبل أسابيع قليلة، يضحك ويسردها وكأنه اعتاد على جرائمه، وبغرور يذكر السبب:

- يظن نفسه شيئاً ذا قيمة وهو يمتن عليّ لأنه أعطاني شقته مرة، هو يعلم أنني أغنى منه ويعرف من هو والدي، يا له من حثالة، يظن أنه سيتمكن مني بتهديداته الفارغة!

قهقه بصوت عالٍ، ووجه يعتليه الكبر والاختيال:

- لقد أحرقت ظهره من كثرة الضرب، لو رأيت كيف كان أسود، لقد صرخ حتى بدأ يلفظ الدم من فمه ولا أظن أن هذا يكفيه ليتوب من ذنب عصيانه لي!

الجمود والغضب سيطرا على تفكير ذياب، بعد أن أراهُ علي بعض الصور، وهو يفتخر بفعلته، ويعبر عن إنجازاته العظيمة بإخباره عنها!

شل الغضب إحساس ذياب وهو يصر على أسنانه، يشعر بألسنة اللهب تشق صدره شقا، والغضب يعميه ويخنقه، أمسك قبضتيه عنه كي لا يحطم جمجمته حالاً، وكم كان يود فعل ذلك!

أمسك نفسه بشدة، وبقوة كبيرة سيطر على كل تلك الفوضى الداخلية، وأظهر عكس ما يبطن، ولكن داخله قد قرر تلقين علي درساً لا يُنسى!

أخيراً بدأت خططه تسير كما يريد، وقد اتفقوا على يوم المداهمة التي قد تنجح فيها خطتهم أو تفشل، كانت اجتماعاته مع فريقه من الشرطة تتم وفق خطة مرتبة، فهم لا يجتمعون جميعا وجهاً لوجه، وذلك حتى لا يثيروا الشكوك، وإنما تكون اجتماعاتهم بشكل متفرق أو على الهاتف، أو على البريد الإلكتروني، كلماتهم على هيئة شفرات لا يفهمها أحد سواهم!

* * *

قرب إحدى القرى يظهر من بعيد الكثير من الأبنية والعمارات، كان ذياب مع علي في السيارة التي تسير على طريق إسفلتي تحيط به الرمال الصحراوية من كل جانب.

كانت الرمال الصحراوية وكأنها تنزل كالشلال من الجبال الرمادية الشاهقة لتمر على بعض الأشجار والحشائش الخضراء، التي لم يختفِ عنها أثر الأمطار.

يكاد الشارع يخلو من السيارات، ويكاد المكان يخلو من معالم الحضارة، وعلى أنغام الموسيقى الصاخبة كان الصمت ملاذاً لهما!

للحظات شدَّه ذهابهما إلى منطقة لم يخططا للذهاب إليها، وهو لم يكن يعلم عن خطط علي شيئاً، لا يعلم إلا ما أخبره به، وهو أنه يريده في اجتماع مهم وضروري!

وكأن الثقة التي صاح بها منذ زمن كانت مجرد ادعاء، صمت عن الأمر مع فتح جهاز تتبع الأثر. وحاول إبعاد التوتر الذي غزاهُ متمنياً في داخله أن لا يكونوا قد اكتشفوا زيفه!

في بلدة بعيدة عن المدن، وفي مكان معالمه أدنى من المتوسط دخلت السيارة.

كانت النفايات والأوساخ على الأرصفة وعلى الرمال الصحراوية الخالية من النبات، والعمال يجوبون الشوارع وبعض العائلات تطوف بالأسواق الشعبية، توقفا بين الأبنية وعند مبنى ضخم حديث البناء، لونه أقرب إلى البني ولا يحمل لافتة، يشبه في شكله أحد الفنادق ذات المستوى المتوسط، هذا المكان لا يثير الشكوك أبداً، لأنه قريب من بعض القرى ونادراً ما تحصل فيه المشكلات، كما أنه بعيد عن مراكز الشرطة.

* * *

جلسا في غرفة كبيرة بيضاء ذات أثاث رمادي بسيط، وهما يحتسيان القهوة إلى جانب بعض الأطباق الجانبية.

يجلس علي في الجانب المقابل له، عبوس الوجه، متوتر النفس، يدخن بشراهة، يرفع سيجارة وراء الأخرى قبل أن ينهي التي بدأها. ولم يأكل شيئاً من الطعام إلا بضع لُقيمات صغيرة.

انعكست مشاعره السلبية على ذياب. تضايق كثيراً من زفيره ونقر قدميه منذ أن أتيا، ولم ينبس ببنت شفة، فهو لا يبادر بالحديث قبله، والآخر لم يخبره شيئاً!

جاء اتصال هاتفي لعلي فأمسك هاتفه بسرعة، وعلامات التركيز على وجهه. كان اتصالا من أبي علي الذي أمسك زمام المحادثة، فعلي لم يقل إلا نعم ولا وبعض الكلمات المختصرة ونظرة يسترقها بين حين وآخر إلى صاحبه الذي ضاق صدره من نظراته، وأحس أن الهمس عنه وأن شيئاً ما يدور حوله. فخرج بعد أن طالت المحادثة ودخل علي إحدى الغرف.

وقف بعيداً عن الباب الخشبي الذي أغلقه وراءه، والممر الطويل ذو الفرش الأزرق والجدار الأبيض خالٍ تماماً من الأصوات والحركات.

تنفس بعمق، ونظره ينصب أمامه وإلى الجوانب تارة. لا يجب أن يكون متوتراً اليوم، يجب عليه أن يكبح كل تلك الأفكار السلبية وأنهم من الممكن أن يفشلوا! أو أن حدثاً آخر قد جرى، ما بال أبي علي! يشعر أن هناك خطباً ما!

رفع هاتفه فوقعت عيناه عليه وهو يرن رنته الأولى، كان المتصل أمه، رد عليها وهو يحاول السيطرة على مشاعره المنفعلة:

- السلام عليكم، أهلا بالغالية..

لم يبدُ همسه مقنعا لأمه، فأجابت مستفهمة:

- أهلا بُني أين أنت؟ وما بك؟ ولمَ صوتك منخفض؟

ضحك من فوج الأسئلة المنهال عليه، حتى إنها نسيت رد السلام عليه. قال لها:

- أنا في العمل يا أمي، ومنهمك فيه لأقصى حد.

استرسلت أمه في الحديث عن أمور شتى مهمة وغير مهمة، أخبرته عن تلميحها لخالته عن رغبتها في خطبة علياء له. كان يحاول الإنصات إليها، ولكن ذلك محال، لأنه منهمك في التفكير ومراقبة خطوات قد يفوته معرفتها. أحست أمه بانشغاله فودعته وأغلقت الهاتف.

هاتف بعدها أحد أفراد الشرطة ليوافيه بآخر الأخبار، ويرى كيف هي أمورهم، طمأنهُ عن الأحوال وأنها على ما يرام، وأنهم قد استطاعوا تحديد المكان وهم الآن مُتجهون إليه، ولكن بقي

شيء واحد وهو إخباره لهم بموعد المداهمة ومتى سيكون أبو علي الرئيس ومحرك العصابة حاضراً، وفي وقت لا يمكنه الهروب فيه، وتكون العصابة متلبسة بالجرم.

عند عودته إلى الشقة بعد جولة سريعة في المكان، كان علي قد غير مكانه وجلس في مقعد طويل رمادي عند الزاوية وترك مساحة فارغة أمامه وخالية من السجاد، ولم يكن لوحده إنما كانت معه عصابته التي هي كظله، رجاله الذين تحت إمرته والمشاركون في كل جرائمه. لم يكن ذياب يحبهم فهم مجرد تابعين، وغير مستقيمين في تصرفاتهم.

جلس على المقعد المجاور عند ملاحظته لشخصين غريبين، انتقلت نظراته بينهما، كانا راكعين. ومن هزالة أجسامهما وملابسهما الرثة والرضوخ والخوف الذي على وجهيهما، استنتج أنهما من المساكين، وأنهما شخصان بعيدان كل البعد عن العصابة، كأنهما عاملا بناء أو نظافة، كانت نظرات علي مسلطة على الشخصين في صمت وكأنه يستمتع بتوسلاتهما، رفع أحدهما يديه وضم إحداهما إلى الأخرى، وقال:

- أرجوك سامحني، لقد أخطأت، لم يكن ذلك عن قصد لقد رميناه بالخطأ ولقد كان.. أقصد أنني لا أعرف كيف ضاع منا، أرجوك سامحني..

صاح فرد من عصابة علي وهو يشتم:

- يكذب... على الأكيد أنه يكذب، والصحيح أنه باعهُ!

حدثت جلبة بين أتباع علي فمنهم من يريد ضرب الشخصين ومنهم من يلفق أقاويل أخرى عنهما، التفت علي إلى ذياب وكأن شيئا لا يعنيه مما يحدث، قال له بوجه خالٍ من المشاعر:

- لقد وصل أبي، إنه في آخر غرفة في الممر ويريدك فيها.

بعد أن أنهى جملتهُ ضغط ذياب بأصبعه على الهاتف على الرقم واحد، ضغط ضغطة طويلة إلى أن اتصل الهاتف بنفسه وأعلن النهاية.

لقد انتهى كل شيء اليوم بعد هذه الضغطة، وبدأت بداية جديدة.

أحس بنشوة الانتصار والإثارة، لاقتراب ساعة نهاية هذه المهمة.

وأخيراً... سوف يتخلص من كل هذا التعكر الذي هو فيه!

كان سيتحرك ويخرج لولا أن استوقفه منظرهم، أحس بأن علي لا ينوي خيراً لهما!

وأمام عينيه ركل علي الأضعف والأصغر منهما على وجهه، وقفز عليه وهو على الأرض ووضع باطن قدمه على رأس الرجل الذي أطلق صرخة قوية.

أخذ يفرك حذاءه عليه، والرجل يصارع قدم علي العملاقة، يحاول ضربه بيديه ولكن أُمسكت يداه وقدماه بأحكام من قِبل الرجال.

كادت جمجمته تتحطم من قوة ضغطها على الأرض، ويتهشم وجهه عليها، صراخه انقطع وحركات المقاومة ما زالت مستمرة، عند هذه النقطة وقف وأنفاسه تتسارع، فقد القدرة على التحمل عند هذا المنظر غير الإنساني، واستفزه جبروت علي وقسوته!

جرى نحوه وهو يلهث، قدماه تضربان الأرض بعنف، أمسك ذياب علي بقبضة عنيفة من عنقه ليطير كالريشة، ويهوي به على الأرض بأقوى ما لديه.

كادت الأرض تتزلزل من قوة سقوطه، الكل ذاهل والعيون تغدو وتتجه إليه وإلى علي المرمي على الأرض والذي لم يعد إليه وعيه إلا بشق النفس.

وقف ذياب بوجه متجهم، الغضب يفور في دمه، اقترب منه بخطوات بطيئة وعيناه تقدحان شراً.

كان يريد ضربه، فلقد ضاق ذرعاً من أساليبه، وكره رفقته!

فكل ما يفعله للتسلية فقط!

انهال عليه بالركلات، قبل أن يتحرك أفراد عصابته مدافعين عنه، أمسكوه، حاول إبعادهم عنه، قيدوه بشدة، وعلي مطروح على الأرض على بطنه، وعيناه الصغيرتان اتسعتا فجأة من الصدمة، اهتز بدنه، لم تقوَ ذراعاه على حمله حاول القيام مرة أخرى ولكنه وقع!

صرخ عليه بعد أن وقف واستعاد وعيه من الصدمة، وكل علامات الاستنكار تعلو وجهه:

- ذياب كيف تتجرأ على ضربي؟ كيف لك أن تفعل ذلك؟

هجم عليه، ضربه دون أن يحدد وجهة ضرباته، ضرب بطنه لمرات متتالية حتى فقد الشعور فيه، وبكل قسوة وقوة، وكأنه يكرهه أشد كره. ولم يتردد أبداً في البصق عليه وشتمه.

ولم يكن بمقدوره الدفاع عن نفسه أو تحريك أيّ جزء من جسمه، لأنهم كانوا يشدون وثاقه، ويمنعونه من الحركة. كف علي عن الضرب فسقط ذياب من أيديهم على الأرض. انخفض علي إليه، أمسك شعره، هزه وهو يصيح بشدة:

- هل تعاطيت المخدرات؟ أم أصاب عقلك الخلل لتفكر بضربي؟ صدقني لن أغفر لك!

لم يكن يهمه شيء في تلك اللحظة، غير أن الأمر منتهٍ، ومهما فعل علي فسوف يدفع ثمن فعلته غالياً!

رفع ذياب وجهه وطعم مر من الدماء يتذوقه في فمه، نظر إليه بصعوبة وحاول التبسم، وكأنه يهزأ به!.. للحظات تفجر الغضب في صدر علي، تحركت كفه في عصبية وكأنها تبحث عن أيّ أداة حادة في الغرفة ليقوم بتشويه وجه ذياب وطعن صدره بها، ولكن وقبل أن يحاول فعل ذلك، دخل أحد رجاله من الباب بشكل مفاجئ ليصرخ:

- أيها الزعيم إن رجال الشرطة يحاصرون المبنى، وأظن أن بعضهم قد تسلل إليه خفية!

حدثت جلبة سريعة بين أتباع علي، الذين تركوه وخرجوا من الباب دفعة واحدة. كاد علي أن يفر معهم هو الآخر، ولكن ذياب أمسك بقدمه، نظر علي إليه بعينين مفتوحتين ووجه أصفر، هز قدمه بعنف، شد ذياب على رجله وزاد من قوة إمساكه، ضربه بالأخرى، رفعها، أخفضها، هز الأرض من تحته، حاول ضرب أيّ جزء ظاهر من جسم ذياب بكل قوة، والآخر يشد عليه ويمنعه من الإفلات. وهو كالثور الهائج يحاول إبعاده، وذياب مصرٌ على عدم تركه. أخيراً أفلت منه، ومن دون أن ينتبه لطريقه، ضرب ساقه اليسرى على حافة طاولة زجاجية حادة مكسورة، دخلت الزجاجة إلى داخل الجلد، صرخ صرخة صريع، انتزعها من ساقه، تفجرت الدماء على ملابسه، تساقطت قطراتها على البلاط الأبيض مُشكلة بركة حمراء.

أخذ يلعن ويشتم محاولاً الهروب، غير آبه للدماء التي تتساقط على طول طريقه، خرج من الباب وقفز ذياب خلفه راكضاً، عند الباب توقف ونظراته تسير من علي الذي يعرج متجهاً نحو السلم، إلى الغرف المتجاورة وإلى الغرفة الأخيرة المقابلة التي خفتت أمامها الأضواء وسكنها الهدوء، تلك الغرفة التي أخبره علي عنها!

رفع هاتفه النقال، ألصقه بأذنه بعد ضغطه على الأرقام، جاءه صوت رجل من الطرف الآخر، قال له قبل أن ينطق بكلمة:

- أحتاج الدعم في الطابق الخامس غرفة رقم 47، فالرئيس موجود فيها ومن الممكن أن أدخل قبل حضور الدعم إذا ما حصل أيّ طارئ. هناك آخرون قد فروا الآن!

تتقدم خطواته إلى الأمام ناحية الباب البني الضخم، يبدو أن أبا علي لم يتحرك خطوة واحدة إلى الخارج، أو من الممكن أنه قد هرب!!

يظن أنه يجب عليه أن يتفقده ويتأكد من الأمر، ويحاصره إن كان في الداخل!

وصل إلى الباب، أمسكه بخفة، دفعه دفعةً خفيفة ففتحه. قابلته صالة واسعة مضاءة، أثاثها فخم وخالية من أيّ شخص، وعلى جانبه الأيمن دورة المياه وتجاورها غرفة واحدة، غرفة صدرت منها أصوات خفيفة لا تميز. جعلته يقف متردداً لمدة ثوانٍ قليلة، أيدخل أم ينتظر!.. ولكنه تجاهل تردده واتجه إليها ليتأكد من الأمر. انتزع من أسفل بنطاله عند قدمه مسدسه الصغير، وأصابعه تمسك مقبض الباب، وببطء فتحه، تحرك الباب من دون صوت وانفتح على غرفة خفتت أنوارها.

تشكل ظل أبي علي أمام عينيه، إلى أن ظهر جسده بأكمله، كان يوليه ظهره وقد ارتدى سترة سوداء طويلة، وكان يضع يداً على الطاولة الخشبية ويده الأخرى إلى أسفلها، ينحني مرة ويعتدل في الأخرى، لم ينتبه إليه للوهلة الأولى، ولكنه تجمد بعد سماع صوت ذياب الذي أطلقه بثقة وانتصار:

- قف مكانك الشرطة هنا، أنت محاصر، ارفع يديك واستدر.

التفت ناحيته، رفع ذياب المسدس ليقابله، اندفعت علامات الصدمة والمفاجأة إلى وجه أبي علي، عقد حاجبيه بشدة وعبوس. وبحركة تتبعها ذياب أخرج الأخير المسدس من جيب بنطاله

الفضي ورفعه ناحيته، ويده الأخرى ما زالت في الأسفل وتحت الطاولة. تلاشى عبوس وجهه، وتحولت كل طاقته إلى يده التي في الأسفل، انكمشت ملامحه وصغرت عيناه الصغيرتان أكثر، وهو يشد على شفتيه ليخرج كلمات غليظة:

- دعني الآن، لكيلا تندم مستقبلاً!

ازدادت ابتسامة ذياب في ثقة وهو يشير بالرفض. كان مسدس أبي علي مصوباً ناحيته، وأصابعه تتحرك على الزناد، يزداد عبوس وجهه وضيق عينيه ويده الأخرى الضاغطة إلى الأسفل، وفي لحظة مباغتة أطلق النار على ذياب، انطلقت الرصاصة ككرة ملتهبة وخدشت كتفه، مرت لترتطم بالباب خلفه وتنغرز فيه. اختل توازنه.. ذُهِل وتفاجأ... أمسك المسدس بكلتا يديه، أحكم وقفته ضاغطاً على أسنانه من الألم وإصبعهُ على الزناد، يرتفع بصره إلى أبي علي، يراهُ على هيئته كما هو، وملامحه خالية من المقاومة، مستسلمة من الجدال، قال بلهجة حازمة:

- دعني أرحل...

تتساقط قطرات العرق عن جبين أبي علي المتجعد، وتقاسيمه مريبة خالية من شدته التي لم يتخلَّ عنها يوماً منذ أن عرفه إلى اليوم!

كان ينتظر وصول الدعم، قبل أن يتصرف من تلقاء نفسه إن تأخروا!

يتنفس بسرعة من الاضطراب، والمسدس يرتفع وينخفض عليه، يتتبع تحركاته المريبة، والتي تدل على أنه ينوي فعل شيء لهُ!

عيناه تنظران إليه في لحظة وفي اللحظة الأخرى إلى تلك الزاوية التي تقع تحت الطاولة، كان يحاول إخفاء شيء ما فيها أو إظهاره! فهو شك في أمره، فنظراته متوترة غير ثابتة، وكأنه يخفي شيئاً خطيراً تحت الطاولة، ازدادت نظراته قسوة عليه ورفضاً لكلماته، وكأنه يخبره أنه غير موافق على تركه يرحل!

المسدس مرتفع في يد أبي علي بحركة مرتعشة، ومسدسه ثابت في مكانه ومستعد لأيّ لحظة مباغتة، أنزل أبو علي يده وجسده قليلاً وكأنه ينوي التحرك أو الاستسلام، انخفض إلى

الأسفل أكثر وكأنه يظهر شيئاً ما، وبسرعة اعتدل في وقفته، وصوب ناحية ذياب وأطلق مرة أخرى.

في اللحظة نفسها التي ضغط أبو علي على الزناد ضغط ذياب على زناد مسدسه، مصوباً على ذراعه الممسكة بالمسدس وكأنه يوقف تلك الطلقة ويمنعها من الانطلاق، ولكن وفي حين غفلة من أبي علي الذي أخفض جسده في حركة غير مدروسة، اندفعت الرصاصة لتستقر في خده من تحت يديه التي امتدت وذراعه التي انهارت وألقت بالمسدس على الأرض، ظهرت أيادٍ صغيرة من تحت الطاولة، يتلوها شعر كستنائي، ينكشف ببطء كل جزء من ذلك الجسد الصغير، يظهر وجه أبيض مذهول، بعينين عسليتين متسعتين وفستان بحري قصير، أمسكت الفتاة ببنطال أبي علي تشده إليها، وتنادي بـ» أبي» الذي انهار فجأة أمامها قبل أن يهم باحتضانها!

توقف كل شيء عن الحركة وعيناه المذهولتان تسيران من الطفلة التي اندلع صوت بكائها العالي، والرجل الذي ظهر رأسه المضرج بدمائه بجانب الطاولة من الأسفل. عيناه الجاحظتان تنظران إليه في ألم، وكأنهما تلومانه على فعلته المتسرعة، وصوت الطفلة المنادي يزداد ارتفعاً، وينتظر مجيباً!

سقط المسدس من يده من هول الصدمة، وتساقطت كل مشاعره معه، مشعرة إياهُ بأنه قد ارتكب أعظم جريمة في حياته!

انهارت يداه على جوانبه، ونظراته المهتزة والمليئة بالمرارة والدموع تنتقلان من الطفلة إلى أبي علي في ألم يمزق قلبه، فهو لم يكن ينوي الإطلاق على وجهه أو قتله، لقد كان خطأ غير مقصود!

إنما كان ينوي إيقافه عن إطلاق رصاصة أخرى نحوه!

أكانت كل تحركاته تدل على حرصه على إخفائها، وحمايتها!

ففي آخر كلماته كان وكأنه يترجاه ليتركه، لمَ لم يستمع إليه، لمَ كان بهذا التهور!

تماسك بصعوبة، وهو يحث خطاه نحوه بينما انفتح الباب فجأة ووصلته أصوات الأقدام من خلفه.

انخفض إلى الأسفل إلى الجسد المسجى على الأرض، جلس بجانب الفتاة، عيناه تنظران إلى يديها الصغيرتين الملطختين بالدماء واللتين تمسكان بوجه والدها، ومن ثم تنتقلان إلى الدماء النازفة بغزارة من الخد.

الدماء تعبر يديها، تتساقط إلى أحضانها وتبللها. التفت وجهها البيضوي إليه، وبشرتها الشاحبة تنتشر عليها بقع الدم وعيناها غارقتان بالدموع، تتساقط دموعها لتخط خطاً دموياً على خديها.

وضع يده على الجرح يضغط عليه يمنع الدماء من التدفق أكثر، يهمس بصوت مرتجف:

- تنفس ببطء... أرجوك!

يتنفس بسرعة، يختنق بأنفاسه، ينظر إليه بعينين دامعتين، يحاول إمساك يد ابنته، يحيط كتفيها بذراعيه، يشدها إليه، يقرب أنفاسه اللاهثة منها، يتألم بشدة، يحاول تحريك فمه فلا يستطيع إلا الاختناق!

جاء صوت من خلفهم:

- ذياب الإسعاف قريبة، ويجب علينا نقله سريعاً!

* * *

بعد فترة قصيرة من دخول رجال الشرطة الذين أنهوا تلك اللحظات الصعبة، وقبل مجيء الإسعاف، كان منهاراً بجانب الطفلة المتشبثة بأبيها الذي يصارع أنفاسه الأخيرة.

وجهها شاحب ومصدوم، وعيناها لا تكفان عن ذرف دموع صامتة بعد أن تركتها ذراعا والدها. نظراتها تنتقل برعب بين مجموعة الأشخاص الواقفين حولهما، الذين أخافوها بلباسهم وأشكالهم. قوست شفتيها قبل أن تشهق عدة شهقات خائفة وتبكي بصوت عالٍ.

ينقل نظراته التائهة بينها وبين والدها الذي بدأ يتنفس ببطء، يشعر بموجة من الخذلان مع كل نفس يخرج منه، ويقاوم الألم الذي يضني صدره.

بعد تلك اللحظات التي حاول فيها إنقاذه، والضغط على صدره ووضع المناديل على جرحه، وفعل أيّ شيء لإنقاذه، جاءت الإسعاف لحمله وإعلان حالة الوفاة.

وقف وذراعاه على جانبيه، وعيناه ما زالتا تنظران إلى الأمام إلى الباب المفتوح الذي اختفت منه، حاملة المصاب وبعض الرجال.

في لحظة مفاجئة أمسكت أصابعها ببنطاله غارسة أظافرها في جلده، أغمض عينيه، شعر بالقشعريرة تدب في كل جزء منه.

نظر إليها بعينين تحاولان إخفاء الحزن والألم، ارتفع وجهها إليه، وخط دموعها قد جف على خديها الحمراوين وبقيت علامته، ولكن عينيها ظلتا غارقتين بذلك البحر من الدموع.

بمشاعر متضاربة، ويد مترددة وضعها على شعرها الناعم وانتقل بها إلى وجهها المستدير وإلى خدها ومسحه، انخفض إلى الأسفل، وصل إلى مستواها، قابل وجهها المحمر من البكاء.

أمسكت به، تساقطت دموعها، خرجت شهقاتها من عمق صدرها، عبرته، استقرت في رأسه، ودمرته!

أمسك بها بيد مرتعشة ورفعها إليه، تشبثت به ولم تقاوم، وإنما انفجرت بالبكاء أكثر.

بكاء أثّر فيه بشدة، وجعله يود لو أن الأرض تبتلعه

أو يستيقظ من هذا الكابوس المريع!

* * *

هرب علي ولم يُمسَك به، أما بقية أفراد العصابة فقد أُمسك ببعضهم وفرّ البعض الآخر.

وهو خرج من القضية بتهمة قتل غير مقصود بعد الخوض مع اللجنة التأديبية وإقرار بعض العقوبات، منها الإيقاف عن العمل مؤقتاً إلى حين ثبوت الصحة النفسية بعد حضور جلسات نفسية عند المختصين بذلك.

في كل هذه الأثناء كان كل من معه يشرح ويبرر إلا هو، فلم تكن مبرراته لتقنعهُ أو لتخفف من شدة ما يشعر به، ففكره كان محصوراً في تلك النقطة السوداء التي تشكلت في عقله وازداد اتساعها، وفي تلك الروح الصغيرة التي دُمرت حياتها قبل أن تزهر!

والفتاة ذات الثمانية أعوام متشبثة به كما تشبثت بأبيها سابقاً، تمسك أصابعها الصغيرة بيده ولا تتركها، تجعل قلبه يرتعش حزناً كلما شدّت عليها.

يختنق بأنفاسه كلما نظر إلى عينيها الغارقتين في الحزن، وعندما يحاول تركها لتجلس في المكان الذي خصصوه لها، كانت تتعلق به، وتبكي.

تسألهُ عدة أسئلة، تعيدها في كل مرة يكونان فيها لوحدهما.

تسأله بصوتها المحتفظ بنبرته الباكية:

- اسمك ذياب، صحيح؟

يومئ إيجاباً وهو يختنق من الألم.

تبتلع ريقها، تمسح بكفها الصغير الدموع من عينيها، وتقول:

- أنت صديق والدي، صحيح؟

يحبس دموعه بشدة حتى لا تسقط، يهز رأسه مجيباً بـ «لا»، تكمل بصوت مخنوق، تنظر إلى وجهه المتألم لما تقوله:

- أبي قال لي إن علي وصديقه ذياب الذي هو أنت ستأتيان إليه، وهو سيأخذني إلى الملاهي بعد بعض الأعمال المهمة، لأن أمي غير موجودة وذهبت إلى السماء عند الله. أبي أخبرني أن ألتزم الصمت ولكنني لم أفعل ذلك، لقد كنت خائفة عندما دخل ذلك الرجل العملاق، لقد رأيت ظله وقد كان مخيفاً جداً!

شهقت تبكي من جديد، وكأنها تذكره بكل نفس حارق!

كلماتها جعلته يحتقر نفسه أكثر ويلومها، ويندم ملايين المرات، ويتمنى لو أنه هو المصاب، وانتهى أمره قبل أن يقاسي مثل هذا الندم! وذلك لأن رؤية وجهها يعذبه ويحزنه، ويجعلهُ يشعر بالمسؤولية تجاهها، وأنه لن يستطيع مفارقتها بعد الآن إطلاقاً!

بدافع الشفقة والمسؤولية سأل زملاءه عدة أسئلة عن مصير الفتاة ليجيبه أحدهم وكان أعلى رتبة منه:

- أظن أن مصيرها دار الأيتام لأن والديها متوفيان، وأخوها مطلوب للعدالة وليس أهلاً لها، وليس لديها أيّ أقرباء آخرين.

بعد إنهاء الآخر لجملته، قال بجدية:

- هل يمكنني تبنيها!

فتح الآخر عينيه متفاجئاً وسرعان ما عقد حاجبيه استنكاراً، قال له مربتاً على كتفه يواسيه:

- ذياب، يجب عليك أن ترضى بقضاء الله وقدره، فلم يكن الحادث مقصوداً، ودع الفتاة وشأنها ولا تعذب نفسك أكثر!

أخفض بصره عنه، ينظر إلى الأرض، يبحر في أفكاره المشوشة التي لا تهدأ، الكل يأخذ الموضوع بسطحية، ولا أحد يلومه أو يحاول إدانته بالجرم الذي اقترفه في حقها، وأن تلك الفتاة أصبحت بلا مأوى وأنها فقدت نعيم حياتها بسببه!

زاد الآخر من العقدة بين حاجبيه، بعد أن رفع ذياب بصره إليه وقال بإصرار:

- لقد فكرت بالأمر واتخذت قراري، وأنا مصر عليه إذا أمكنني ذلك!

هز الأخير رأسه نفياً:

- ذياب، أنت رجل عازب، والكفالة لا تقع إلا لزوجين يتحقق لديهما جميع الشروط اللازمة لحق الكفالة.

فقد الأمل للحظات بعد كلماته، أمل أن يعوضها عما فعله، وأن يأخذها معه ويكفر عن ذنبه، وينقذ نفسه من جحيم الندم!

نطق ووجهه ما يزال يحدق إليه باحثاً عن الأمل:

- هل هناك حل آخر، سأفعل أي شيء؟

أومأ الآخر نافياً للمرة الثانية.

قفزت الأفكار إلى رأسه قفزاً، سيطرت عليه فكرة واحده فقط، وهي أخذها مهما تطلب الأمر، ومهما كانت عواقبه!

أمسك ذراعه قبل أن يهم بالذهاب، فالتفت إليه الأخير بدهشة، مستغرباً إمساكه العنيف له، قال ذياب وهو يضيق عينيه:

- هل يمكنك مساعدتي في الأمر؟ لقد خطرت لي فكرة، قد لا تكون قانونية!

* * *

يمسك الحقيبة بيد وباليد الأخرى يمسك كفها الصغير، ينزلها من السيارة إلى تلك الساحة الرملية أمام المنزل. شدت على يده، فوضع يده الأخرى على ظهرها يطمئنها ويحثها على المضي إلى الأمام. بخطوات مترددة منه ومنها تقدما، أدار المقبض، دخلا إلى المنزل، توقف للحظات قبل أن يدخل إلى فناء المنزل، وينظر إلى درجات السلم القصيرة البيضاء البعيدة عنهما.

يتذكر لحظة إخباره لأمه واستئذانه إياها لتبني ترفة، التي لم يخبرها الحقيقة كاملة إنما أخبرها أنها ابنة صديق له توفي إثر حادث وتركها خلفه من دون عائل أو أهل تعود إليهم، تفاجأت في أول الأمر ورفضته، أخبرتهُ وهي تقوم من جلستها غاضبة:

- بُني، إن هذه الخطوة جريئة جداً بالنسبة لفتى صغير مثلك يريد فعل عمل خير!

أمسك كفها يعيدها إلى مقعدها ثانية، وبرجاء قال:

- أمي إن أم الفتاة متوفاة، وليس لديها عم أو خال، فكيف لي أن أتركها، وهي ابنة صديق لي.

كانت تعقد حاجبيها، تنظر إلى تفاصيل وجهه الذي يترجاها بيأس، ووجهها يفضح مشاعرها المترددة والرافضة في اللحظة نفسها. تعدل من جلستها وتقابله، تمسك كفيه بين يديها، ترص عليهما، تنطق ونظراتها اللامعة تعبره، وتحاول كشف سبب إصراره القوي:

- ولكن حتى لو وافقت أنا، فكيف هي الإجراءات؟ وكيف لشاب صغير أن يكفل طفلة لوحده دون زواج!.. ومن التي ستقبل برجل لديه طفلة، وأيضاً ليست من صلبه، ولا تنسَ نظرة المجتمع التي لا ترحم!

اقترب منها وإحساس بالأمل بدأ يدب في داخله، وهتف:

- أمي، إن نظرة المجتمع لا تهمني، أرجوكِ اتركي كل شيء عليّ، فالأمور كُلها محلولة.

أبعدت يديها عنه، هزت رأسها رفضاً للمرة الأخيرة:

- يبدو أنك مصرٌّ على الأمر ولن تتراجع عنه مهما قلت، إن كان ذلك ما تريده فهو لك ولكن بشرط، وهو خطبة علياء من الآن.

ومن دون تردد قال:

- موافق على ما تريدينه.

تنفس بعمق وهو يكمل خطواته إلى الأمام وأفكاره تعود إلى الطفلة التي بجانبه، ينظر إلى وجهها المرتعد من الخوف، وشفتيها اللتين تتقوسان ثم تعودان إلى وضعهما، أما عيناها فكانتا بحراً مضطرباً من التردد.

انخفض إلى أن وصل إلى مستواها، نطق بابتسامة يحاول زرع الطمأنينة فيها:

- صغيرتي ترفة، انظري إلى هذا المنزل، إنه منزلكِ الجديد وسيكون لديكِ عائلة كبيرة فيه، وستعيشين فيه معي ومع أمي وخالتي وأبنائها.

أشار بأصبعه إلى كل ركن منه، إلى الحديقة الواسعة التي تنتشر فيها النباتات، وإلى أقفاص الدجاج في الزاوية، أكمل بالابتسامة نفسها:

- أمي إنسانة رائعة وطيبة جداً، وتحب الفتيات كثيراً وستفرح بكِ وستحب أن تكون لديها ابنة مثلكِ إلى أن تعود الأمور إلى ما تتمنين.

وكأنه كان بهذه الكلمات يعطيها آمالاً تعد مستحيلة، ويوهمها بالعودة إلى ذلك البيت بعد أن تركتهُ بلا عودة!

حتى لو كانت مجرد أماني فهي أفضل من الحقيقة لشخص صغير لم يستوعب حقيقة ما حدث له!

توقفت خطواتهما قبل أن يصعدا درجة أخرى، ويدخلا إلى غرفة المعيشة.

صحيح أنه فعلها وأخذها بطريقة غير قانونية، استغل فيها ابن خالته مروان وزوجته لكي يحصل على حق الكفالة التي هي باسمهما، استمرا أياما في التنقل من مكان إلى آخر إلى أن حصل عليها، وذهبت هي إلى الملجأ وجاءت منه الآن معه بخوفها الذي تعاظم أكثر.

دخلا إلى المنزل، وعند الباب قابلهما وجه أمه الذي تبدلت ملامحه في حال رؤيتهما، افترق كفاها اللذان كانا يحتضنان بعضهما، واسترخيا إلى جانبيها. انتقلت نظراتها المضطربة بينه وبين الفتاة قبل أن تهمس بصوت متردد:

- مرحباً بكِ..

المعانقة الثانية

بعد مرور عشر سنوات:

- يبدو أن الآنسة ترفة خارج نطاق الخدمة حالياً!

- ويبدو أنها سارحة بعيداً في أحلام يقظتها!

انطلقت الضحكات الخافتة من حولها، وهي تستفيق من سرحانها الذي لم يدم إلا ثواني قليلة، ترفع نظراتها بامتعاض إلى المعلمة علياء التي تقف أمام السبورة، وتضع يديها على طرفي خصرها، وحاجباها الرفيعان مرفوعان فوق عينيها الواسعتين، أرسلت إليها نظرات الازدراء والاحتقار من خلال ملامحها الجميلة، بادلتها ترفة النظرة نفسها وهي تزمّ شفتيها قهراً وكرهاً لها.

علياء ابنة خالة ذياب التي لا تتردد أبداً عن إظهار مدى كرهها لها للجميع، وتحاول دائماً التقليل من شأنها أمام الطالبات، ونفث سموم حقدها عليها.

في وقت الفسحة، كان الجلوس مع صديقاتها المقربات في منتصف الساحة المدرسية عادة، فهن عبارة عن عصابة تفعل ما تريد وكيفما تشاء، فلا أحد يتجرأ عليهن، إنما بعضهن يحاول التقرب منهن والبعض الآخر ينفر منهن.

تجلس في منتصف المجموعة وبجانبها أقرب صديقاتها ندى. تضرب ندى كتفها لتنتبه لها، تبعد عينيها عن رفيقاتها اللاتي يتحدثن، تلقي نظرة قصيرة إلى ندى وتحولها سريعاً إلى ما تشير إليه، سقطت نظراتها على المعلمة علياء التي تسير أمامهن في الساحة، تقول ندى متذمرة:

- لا أعلم لِمَ هي تكرهك لهذا الحد! مع وجود صلة قرابة بينكما!

تضيق عينيها بغضب، وتوجه كلماتها إلى ندى بحدة:

- ليست قريبتي، إنما هي قريبة أهلي الذين أعيش معهم.

صمتت قليلاً ثم نقلت نظرها من علياء إلى ندى، مضيفة بحنق:

- أظن أنها مجرد شخصٍ مجنون بالغيرة والحقد لمجرد أنها أخذت لقب خطيبة ذياب، فتظن أن لنفسها الحق فيه وفي كل شيء يخصه لتحاول التحكم بي، وتنظر إليّ باستصغار.

اهتز صوتها قليلاً:

- هي لن تكون خطيبته، فأنا لن أسمح لشخص مثل ذياب أن يتزوج شخصاً مثلها فهي لا تناسبه.

خرجت كلماتها مخنوقة، كانت مصرة على عدم السماح لتلك الأفعى بالتفريق بينها وبين أهلها بزواجها منه، ستحاول منعه مهما كلفها الأمر، فذياب يفضلها هي ويجيب طلباتها ولا يرفضها، ستخبره بوجهة نظرها وأسبابها.

* * *

تجلس في غرفة المعيشة، ووراءها تجلس أم ذياب، التي تسرح شعرها الذي يصل إلى كتفيها، تشده قليلاً وهي تقول:

- لقد قصصته كثيراً، إني أرى ذلك بوضوح، لقد تعبت منكِ، فأنتِ لا تستمعين إليّ، يجب عليّ معاقبتكِ.

تمسك أطرافه وتجره مؤنبة، ويدها تنتقل إلى أسفل ظهرها وتقرصها، تصرخ ترفة، تحاول إبعاد يدها عنها، تضحك من شدة الألم الذي حصلت عليه منها.

تبتعد عن قدميها، تجلس القرفصاء أمامها ويدها تمسح مكان القرصة، تقطب جبينها قائلة:

- أمي، إنه شعري، إنه شيء خاص بي وملكٌ لي، ألا يمكنني التصرف به كما أشاء؟!

تشيح أمها بوجهها عنها، تظهر التجاعيد على ملامحها الغاضبة، تعاود الاقتراب منها، وبدلال تضع رأسها في حجرها، تهمس برجاء وبابتسامة واسعة:

- حسناً، أنا آسفة وستكون هذه هي المرة الأخيرة، فأنا أنوي جعل شعري يصل إلى أسفل ظهري كشعركِ تماماً.

تحاول الاعتدال في جلستها ودفع ترفة عنها، تعبس قائلة بفتور:

- لقد أفرط ذياب في تدليلكِ حتى وصلتِ إلى ما أنت عليه الآن!

دائماً ما تعيد أمها كلماتها هذه، ولا تكف عن تذكير ذياب بها، ونهيه عن تدليلها بإفراط!

فهناك صلة قرابة بعيدة بينهما من جهة والده كما قال ذياب لها، ولهذا أخذها معه. وأيضاً هو صديق والدها الذي حاول إنقاذه أمام عينيها، وهو من أنقذها وأخرجها من ذلك البؤس بلطفه وحنانه.

فوالدها الذي قُتل أمامها من شخص غامض غريب، لم يعلم أحد من هو!

ذلك القاتل الذي حرمها من أن تعيش حياة طبيعية في كنف والدها.

وحرمها من لذة النوم، ما جعلها منطوية على نفسها في سنوات طفولتها.

تذرف الدموع حتى الآن، ودائماً ما تتمنى لو أنها رأتهُ أو أن ذياب ورجال الشرطة رأوه قبل أن يختفي لكي تستطيع الانتقام منه، والعيش بسلام!

وذلك لأن ما عاشته في تلك الليلة كان بمنتهى القسوة.

فتلك الذكرى كانت من أقسى ذكرياتها وأمرها، ولا تستطيع تخطيها مهما حاولت.

مع هذا فحياتها مع ذياب وأمها عوّضتها كثيراً، وجعلتها تتناسى الأمر وتوصد الأبواب على تلك الذكرى طويلاً.

ولكن الجرح يُنبش كلما جاءتها الأحلام المرتبطة به، أو تذكرت بأنها يتيمة.

* * *

ينزل شعرها على كتفيها، عيناها تنظران عبر النافذة تنتظران وصول سيارته.

تصل أخيراً بعد طول انتظار، وتصلها رنته فتبتسم.

انتظاره أخذ منها كل ذرة صبر، كانت تعاود الاتصال به بعد كل خمس دقائق لتسأله:

- هل أنت قريب؟ كم بقي؟ ومتى ستصل؟

وفي المرة الأخيرة وصلتها ضحكته للمرة الثالثة وهو يجيب بتعجب:

- ترفة، لقد قلت سوف أصل خلال نصف ساعة، ولم أقل: اتصلي كل خمس دقائق!

خفت ضحكته، أضاف مداعباً:

- حسناً.. أظن أنهُ قد مضى من النصف ساعة خمس عشرة دقيقة، فأصبح المتبقي خمس عشرة دقيقة أخرى.

تمط شفتيها، تجيبه بصوت خافت:

- حسناً..

يقول مهدداً بجدية مصطنعة:

- لا تتصلي، فأنا من سيبادر بالاتصال بكِ عند وصولي، ولكن ستكون رنة واحدة فقط لا رفع سماعة فيها!

تتسع ابتسامتها، تنهض من مكانها، تمشي بخطوات سريعة إلى الباب، تفتحه.. يدخل نور الشمس وصوت محرك السيارة العالي.

تتحرك خطوة تتلوها أخرى وتقف ملوحة بيدها عالياً، ترى سيارته اللؤلؤية تلمع تحت ضوء أشعة الشمس، يتوقف عمل المحرك، يُفتح الباب، يخرج منها جسده الضخم والطويل، ترتسم ابتسامة صغيرة على وجهه الذي لوحته أشعة الشمس، وتختبئ عيناه تحت نظارة شمسية سوداء كلاسيكية، يرفع يده ملوحاً لها وابتسامته تتسع.

الشوق ينبض بقلبها وهي تنزل الدرجات القليلة، تسرع بخطواتها الراكضة إليه، تقف لاهثة أمامه، وابتسامتها ما زالت كما هي تتسع وتتسع.

هو أطول منها بكثير وهي قصيرة لا تصل إلى كتفه، وكأن سنوات عمرها السبع عشرة لا تبدو كافية لنموها!

تحييه بابتسامتها التي لم تختفِ، ترفع بصرها إلى وجهه المبتسم ويده التي رفعها إلى نظارته ليحرر عينيه السوداوين منها:

- أهلاً وسهلاً لقد أنرت المنزل، والحمد لله على سلامتك.

كالعادة وفي كل مرة يعود فيها من رحلة عمل طويلة عيناه لا تستقران عليها ولا تنظران إليها كما في العادة وكأنهما شاطئ حب وحنان واهتمام مخصص لها فقط، إنما تنظران إليها ببريق أسود لامع ليبعدهما سريعاً إلى كل مكان عداها، لفترة طويلة يستمر في تفادي نظراتها وكأن هناك ما يخفيه عنها، ولا يريد منها كشفه!

جاءها صوته الغليظ، وأسنانه تظهر من تحت ابتسامته الخفيفة ليرد عليها:

- منير بأهل بيته، سلمك الله يا صغيرتي.

تمتد كفها إلى حقيبته التي خلفه، تمسك مقبضها تجره، ينعقد حاجباه وعيناها لم تفارقاه، ينفجراً ضاحكاً، يهز رأسه ويقول:

- لن أجادل! لأنني متأكد من عدم قدرتي على التغلب عليكِ!

ولكن كان لديها خطط أخرى، تخفي ابتسامتها وهي تجري أمامه. تدخل إلى المنزل قبله، ترى أمها جالسة على الأريكة تحمل بين يديها مصحفاً ترتل منه، تغلقه. ترتفع عيناها اللتان تشبهان عيني ذياب إليها. تعقد حاجبيها في استغراب ثم سرعان ما يتحول إلى ابتسامة ناعمة، فتتسع إلى أن تملأ وجهها الممتلئ بالفرحة، تقوم من جلستها، تمشي بخطوات بطيئة قد أتعبتها السنون، ترفع يديها قبل وصول ذياب إلى أحضانها، تحتضنه بقوة وهو يقبل جبهتها، وأنفها وخديها، يطوقها بذراعيه أكثر وهي تفعل الأمر مثله.

في كل مرة يعانق ذياب أمها، كانت تشعر بالغيرة، تود لو أنها تستطيع معانقته أيضاً والتعبير له عن شوقها إليه، وإن بُعده يشعرها بالفراغ. ولكن ذياب ترك معانقتها الصغيرة والتي كان يفعلها سريعاً بعد أن نضجت، وانتهى كل لمس جسدي بينهما منذ ذلك الحين.

أبعدت نظراتها الممتعضة عنهما، ووضعت الحقيبة من يدها إلى الأرض وفتحتها، وفوراً بدأت تبعثر أشياءه داخلها، أخرجت بعض الأغراض التي أوصته بجلبها لها ووضعتها جانباً، كان منها وشاح للشعر بلون زيتوني، وحقيبة يد من ماركة عالمية، وجاكيت طويل من الجلد، وأخيراً ساعة باهظة الثمن، صرخت بصوت عالٍ وأفزعتهما.

التفتا إليها بانزعاج، تحدثت أمها والغضب يلون وجهها:

- ما بالكِ يا بنتي لقد أفزعتني؟ وما الذي تفعلينه؟! يا إلهي!

انعقد حاجبا أم ذياب صدمة، أما ذياب فنظر إلى تصرفاتها بابتسامة ودودة وهو يرى ملابسه المبعثرة وجلوسها العفوي أمامهما ونظراتها التي ارتفعت إليه بلطف تشكره.

تحدثت أمها ناهرة:

- عيب يا ابنتي، لا يجب عليكِ التصرف هكذا!

وأشارت إليها بيدها تحثها على الاتجاه ناحيتها، تركت ترفة كل الأشياء وهي تعض شفتها لغمزة عين أمها الغاضبة منها، فهي على علم بما تريده، وأنها ستكرر العبارات نفسها ككل مرة!

اقتربت منها، جلست بجانبها على الأريكة، اقتربت من أذنها بعد أن أمسكت يدها بين أصابعها النحيلة، همست بصوت خافت لكيلا يسمعهما ذياب:

- شعركِ يا ترفة، كم مرة أنبهكِ إليه، يجب عليكِ عدم كشفه أمام ابني، أنتِ الآن فتاة بالغة ومستعدة للزواج ويجب ألا يرى شعركِ غير زوجكِ!

في الحقيقة هي تخجل من تغطية شعرها أمامه، لأنها ستشعر بأنها تخالف أمراً اعتادت عليه، ولأن أم ذياب لم تنهرها عن ذلك من قبل، إلا بعد أن أصبح عمرها خمسة عشر عاماً، وكأنها لم ترَ قبل هذا السن أنها لم تعد طفلة!

بالإضافة إلى أنها لم تقتنع بالأمر، ولا تراه غير الأب والأخ بالنسبة إليها، ولا تريد بناء تلك الحواجز العالية بينهما!

همست كهمس أمها وهي تقترب من أذنها ممازحة:

- أنا سأتزوج من ذياب.

صدرت من أمها شهقة قوية، رفعت يديها إلى فمها وقالت في غضب:

- اخفضي صوتكِ كي لا يسمعكِ، يا إلهي يا لك من جريئة، ألا تستحين؟! كم مرة قلت لكِ إن الزواج منه ليس بهذه السهولة التي تتصورينها!

* * *

في كل يوم جمعة تجتمع العائلتان معاً، عائلة أم مروان خالة ذياب الوحيدة وولديها علياء ومروان الذين انتقلوا من منزلهم منذ قرابة خمس سنوات.

ما إن أتوا وعند مدخل الباب، انقبض قلبها ككل مرة لرؤية علياء ووالدتها التي تعكرت صفحة وجهها وظهر الاشمئزاز عليها، فأم علياء لا تختلف كثيراً عن ابنتها.

دخلت تمشي على عكازة تجر خطواتها الثقيلة إليهم، حيتها ترفة وقبلت خديها، ولكن الأخرى اكتفت بسلام سريع متجاهلة ترحيب الأخيرة لها، بالمقابل تجاهلتها ترفة كما تجاهلتها، فالمرأة الكبيرة تزدريها منذ أن كانت طفلة ولم تتقبلها يوماً، وتراها مجرد عثرة في طريق ابنتها لأن ذياب لم يتخذ أيّ خطوة في الزواج إلا خطبة كلامية، وأعطاهم حرية الاختيار على حد قولها، ولكن علياء لا تزال تنتظره حتى تلك اللحظة.

وفي كل مرة تأتي فيها علياء إليهم تكون بأبهى حلة، واليوم كانت أكثر جمالاً، فبعضٌ من خصلات شعرها الأسود الطويل كانت تهرب من تحت حجابها بنعومة، أما عيناها الواسعتان فكانتا مرسومتين بدقة متناهية، ورموشها أطول وأكثف رموش رأتها في حياتها!

هي أمامها وهي فتاة تبدو كأجمل ما رأت عيناها، فكيف برجل مثل ذياب أو غيره!

لم تكن بيدها أيّ حيلة، فهي وبوجود ذياب لم تكن لتدخل أيّ خصلة من شعرها أو لتأتي من دون هذا الكم من التبرج!

دخل مروان بعدهما وبعد أن ألقى تحية عالية، التفت إلى ترفة بابتسامة ودودة ويده تلوح لها:

- أهلاً بابنتي الصغيرة، كيف حالكِ؟ لم أركِ منذ فترة طويلة، وما أخبار دراستكِ؟

منذ أن كانت طفلة وهي تعتبر مروان فرداً من عائلتها، فهو شخص طيب ومسالم ولا يشبه أخته ولا أمه، ويعاملها باهتمام مبالغ، ويشعرها في بعض الأحيان بالخجل منها.

بادلته الابتسامة مع بعض الكلمات المختصرة، وهي ترى نظراتهم المزدرية لها لا تفارقها.

في الصالة جلسوا على الأرائك الذهبية المتوزعة والمتقاربة، علياء الواضعة ساقاً على الأخرى تجلس بجانب أمها، أما مروان فهو في الجانب الآخر قرب أم ذياب ويضع ذراعه حولها، وذياب يجلس بجانب أمه، أما ترفة فكانت بجانب ذياب، وفي كل مرة تقع عينا علياء المكحلتان عليها كانت تقترب منه.

كانت تريد اللعب بأعصابها، والتفنن في إغضابها، وجعلها تفقد سيطرتها على نفسها ككل مرة. فهي، ومنذ أن جلسوا، لم تكفّ عن رمقها بنظراتها المتكبرة، وما إن رأتها تقترب من ذياب حتى احمرت بشرتها الحنطية غضباً.

أمسكت طرف ثوبه الأبيض، ووضعت إصبعها على طرف كتفه من الوراء ولم تلمس جسده، إنما لمست خط خياطة ثوبه من الكتف حتى نهاية يده. من دون أن يشعر أو ينتبه لها أحد غير علياء. أخذت تعيد الكرة مرتين وثلاثاً، وانتقلت إلى الخطوة التالية وهي وضع يدها على يده، وبسرعة لكيلا ينتبه لها قبل ذلك، وضعت كفها على كفه، ورفعت بصرها إلى علياء التي قفز جسدها غضباً. كادت عيناها تخرجان من مكانهما، عضت على شفتها السفلية، قضمتها بعنف، نقلت نظراتها منها وإلى ذياب الذي تشنجت يده تحت يدها. كانت تعتذر منه في داخلها على إفزاعه بهذه الطريقة، ولكن هي لا تظن أن لمستها الخفيفة قد تضر!

وبهدوء أبعد يده من تحت يدها.

حسناً. كانت هذه المرة الأكثر جرأة على الإطلاق، فهي لم تتجرأ عليه من قبل، ولم تلمس يده منذ فترة طويلة إلا بطريقة عفوية من أجل حاجة أو غير ذلك.

فأقصى جرأة كانت الجلوس بجانبه أو لفت انتباهه بأي شيء أو الخوض معه في أحاديث طويلة عندما تحاول علياء محادثته أو جذب انتباهه في صراعهما القائم دائماً، وكانت تفعل هذا لكي تري علياء أنها قادرة على فعل الكثير معه، أما هي فلا!

ولكن إن لم تكن تتجرأ على هذا، فهي لديها وسائل أخرى لإطاحتها، والتقليل من شأنها!

كان الدفء يملأ الأجواء بينما تتنوع أحاديثهم بين ذكريات ومواقف، والنظرات تنتقل من أم ذياب إلى أم علياء لتستقر أخيراً على مروان الذي ينعش بعض الذكريات الفكاهية.

قبل أن ينتهي الحديث، تدخلت علياء وأرسلت ضحكة مقصودة إلى ترفة، سرعان ما أرسلتها بنعومة إلى ذياب، تغنجت قليلاً وهي تسرد بعض ذكريات الطفولة:

- لقد ضربني ولد الجيران بحجر على رأسي ونزفت بسببه، ووقفت مذهولة من الصدمة، أما أنت فهربت وكأنك تشاركه فعلته!

ابتسم ذياب حتى ظهرت أسنانه، قال مبرراً لنفسه:

- لقد تعاركت معه قبل ذلك، ذكره الله بالخير، لقد كان مجرماً، وعندما لم يستطع فعل شيء لي استغل ضعفكِ وانتقم منكِ، ولقد هربت منه لأخبر والدك بذلك.

تعالت الضحكات بينهم وهم يكملون سرد بعض المواقف، ونظرات ترفة مصوبة إلى علياء. دون شعور منها فتحت فمها وحاولت تقليد ضحكة علياء بازدراء. وضعت علياء كفها على خدها، نقلت نظراتها بين الجميع إلى أن وصلت إلى ترفة وتوقفت عندها، قالت بابتسامة مستهزئة من تحت أنفها الصغير:

- أظن أن لديك امتحانات منتصف الفصل الدراسي الأول، فدرجاتكِ في مادتي متدنية ويجب عليكِ بذل الكثير من الجهد لرفعها!

وأدارت دفة الحديث إلى ترفة، جاعلة النظرات تتجه ناحيتها.

رفع مروان حاجبيه مشيراً بمعرفته بما يدور بينهما، وتجاهلت أم مروان وجودها، أما أم ذياب فتحدثت بهدوء محاولة تلطيف الجو:

- إنه يوم الجمعة وهو يوم استراحتها، ستذاكر دروسها لاحقاً في المساء.

نطق ذياب بعد صمت والدته بهدوء كهدوئها، وبابتسامة صغيرة وجهها إلى الجميع:

- صغيرتي تبذل جهدها، ولا ضير من بعض الراحة اليوم!

قفزت ابتسامة ترفة عالياً، واشتعلت البهجة في داخلها.

أما علياء فاحمرّ وجهها قهراً، وهي تشعر أنها ارتكبت خطأً في الحديث.

استأذن كُلّ من مروان وذياب للذهاب.

بعد ذهابهما، جلست ترفة على الأريكة المقابلة للتلفاز والبعيدة عنهن، تقلب قنواته متجاهلة سماع محور حديثهن.

أما علياء فما إن تجد فرصة حتى تستغلها، كان صوتها يصلها وهي تحاول تجاهل سماعه!

كانت تذم درجاتها وتذم سلوكها بمبالغة مفتعلة، ولكن ليس بأسلوب مباشر كالذي خرج سابقاً وكان غلطة، إنما بخبث تستغل فيه درجاتها الدراسية التي لا تعد منخفضة بل جيدة بخلاف مادتها التي تحاول إفشالها فيها.

مرت فترة صمت اختطفت فيها نظرة إليهن، ورأت أنه لم يبقَ غير علياء التي كانت مخفضة الرأس تنظر إلى هاتفها النقال، أبعدت عينيها عنها وهي متيقنة من أنها لن تمرر ما حدث وستبدأ حربها الضروس الآن!

كانت مستعدة لها بشراسة ككل مرة تحاول فيها تحديها. بعد برهة من الزمن، تقدم نقر كعبها العالي باتجاهها، وفاحت رائحة عطرها القوية في الهواء.

جلست على الطرف الآخر لتقابلها، وضعت ساقاً على الأخرى وظهر لون ثوبها الأخضر الحريري أمام عيني ترفة، لم تتجاهلها، إنما رفعت عينيها إليها متحدية.

نطقت شفتا علياء المطليتان باللون اللحمي:

- لم أرَ أوقح منكِ بفعلتكِ تلك، وأيضاً لا تنظري إليّ بنظراتكِ هذه يا فأرة!

ثار الغضب في صدرها، انعقد ما بين حاجبيها، شدت على أسنانها قائلة:

- من تظنين نفسكِ لتقولي لي فأرة، الزمي حدودكِ يا زرافة!

اتسعت عينا علياء غضباً، قالت لها بصوت عالٍ وقدماها تعتدلان على الأرض:

- احترمي نفسكِ يا قليلة الأدب، يبدو أنكِ لم تتربي جيداً، يا لقيطة يا عديمة التربية!

تصاعدت الحرارة إلى وجهها وأشعلته، اهتزت شفتاها غضباً وألماً. كيف لها أن تتجرأ وتدعوها باللقيطة؟!

صرخت وهي تقف من مكانها، رامية عليها كل غضبها:

- أولاً أنا لست لقيطة وربيت أفضل منكِ، ثانياً الزمي حدودكِ فليس لكِ الحق بنعتي بها!

ذراعاها على جانبيها، أنفاسها تختنق مع كل نفس، نظراتها تستقر على علياء وعلى وجهها المليء بالمشاعر الحاقدة والمستمتعة بإغضابها، تتحرك شفتاها فيرتجل الكلام منهما:

- وما أدراني إن كنتِ لقيطة أم لا!.. فالذي أعرفه أنكِ مجرد لقيطة، دخلت إلى عائلتنا رغماً عنا بحجة أنها منا، وهي بخلاف ذلك!

زمّت شفتيها، وعيناها تحبسان دموع القهر. ارتفعت يدها في لحظة غضب وتهور، واستقرت على وجه علياء للحظة، ولكنها رفعتها بسرعة في اللحظة الأخرى وهي مذهولة. تراجعت خطوة إلى الوراء، وعيناها متسعتان على وجه الأخرى الذي احتقن من الصدمة، مرت ثوانٍ قليلة وقفت فيها علياء بصمت مطبق. تنظر إلى ترفة العدوة اللدودة، التي تفاجأت من جراءتها ووقاحتها التي لم تكن تمتلكها من قبل. تحركت عدة خطوات باتجاهها وتوقف صوت كعبها، رفعت يدها والحقد يتغلغل في شرايينها، والغضب يفجر صدرها. صفعت جانب وجهها الأول ثم الثاني لتعيد الكرة إلى الأول وبشدة أكبر، وكأنها تعطيها درساً يبقى معها أمد الدهر!

صرخت في وجهها، قبل أن تعطيها الكف الرابع:

- يا عديمة الاحترام هذا جزاء فعلكِ، نعم إنكِ لقيطة وستظلين كذلك مهما أنكرتِ!

ارتفعت يداها إلى يديّ علياء لتوقفا سيل ضرباتها، ضغطت بأظافرها على رسغيها وهي تبعدهما عنها وتصرخ:

- أنتِ من بدأ أولاً، ابتعدي عني ولا تناديني باللقيطة، فأنا يتيمة، أنتِ لا تعرفين شيئاً عني، وليس لكِ الحق في قول أيّ شيء!

اهتز صوتها قليلاً لتعيد تماسكه وثباته. تقول بتصميم محدقة إلى وجه علياء المنفعل والغاضب:

- سأخبر ذياب بأنكِ نعتني بلقيطة، سترين ذلك!

وضربت بكلماتها وتراً حساساً في نفس علياء، ما إن قالتها حتى هربت الألوان من وجهها ليبهت ويتردد، فهي تعلم أن ترفة لا تمزح بهذا الشأن، وما إن تقول شيئاً حتى تفعل.

استعاد وجهها ألوانه سريعاً، وبعينين ما زالتا تحتفظان بغضبهما، تقدمت خطوة إضافية ناحية ترفة، ضغطت على ذراعيها المتعانقين بعضهما البعض، أخرجت كلماتها بثقة وصوت عالٍ:

- ذياب سيتزوجني رغماً عنكِ، فأنا من قدر لها الارتباط به منذ البداية، وما أنتِ إلا عثرة طريق!

تقدمت ترفة خطوة مع تقدم خطوات علياء ناحيتها. رفعت رأسها في شيء من التحدي.

هي لم تكن يوماً عثرة في طريقها، ولكن إن كانت تريد أن تكون كذلك، فستكون.

فتحت شفتيها الغاضبتين، ترد عليها رافضة كلماتها:

- أنا لا أرى ذلك القدر الذي تتحدثين عنه وتهذين به في كل مرة أراكِ فيها. وصدقيني لن يحدث ذلك، فذياب لن يتزوجكِ!

لمعت عينا علياء لكلماتها، أطبقت شفتيها بغضب وقالت:

- مَن أنتِ لكي تقرري عنا؟ القرار قد اتخذ منذ زمن طويل وقبل مجيئكِ وتم معظمهُ، ولا جدال فيه لأن الكبار من تكلموا فيه، وبسببكِ ذياب أجل الأمر طويلاً، لأنكِ كنتِ تحت رعايته، والآن كبرتِ وانتهى الأمر.

صمتت ترفة بعد كلمات علياء لأنها لم تكن تملك رداً يردعها. فمن هي كما تقول الأخرى لكي تقف أمام الجميع وترفض ما يقوله الكبار، ولكن أليس رأي ذياب أيضاً مهماً كرأيهم!

بعد الجدال معها والخسارة التي تلقتها فضلت الانسحاب من تلك الجلسة التي ما زالت مستمرة. جلست في غرفتها وفوق سريرها تضم ساقيها إليها.

كانت كلمات علياء لا تفارقها، وإهاناتها تقتلها، تنعتها بـ «لقيطة»، تتهم والديها وهي لا تعلم شيئاً عنها، لا تعلم أنها تموت في كل لحظة تتذكر فيها والدتها التي لا تذكر منها إلا بعض المواقف غير الواضحة، وحين تتذكر والدها ينفتح الجرح الذي في صدرها لينزف بلا اندمال.

تتساقط دموعها الحارة، تجهش في البكاء فيهتز جسمها معها، تضع رأسها على ركبتيها، تغرق في البكاء أكثر، تشعر باليتم وبالألم أكثر. صحيح أنها تحب حياتها مع عائلتها ولا تستطيع تخيل العيش من دونهما. ولكنها تشعر في بعض الأحيان أنها لا تنتمي إليهما، ودائماً ما تشعر بتلك الحساسية بينها وبين أفراد عائلة أم مروان، ولكنها تحاول التغلب عليها، فهي ليست شخصاً يقابل الحسنة بالنكران، فحبها لهما يتغلب على إحساسها هذا.

رفعت رأسها، مسحت دموعها، لا يمكنها أن تضعف لمجرد كلماتٍ حاقدةٍ وغير صحيحة. كلمات أخرجتها انتقاماً منها، علياء لا تحبها وهي من حملت الضغينة ضدها أولاً. فهي لا تتخيل العيش معها تحت سقف واحد، ولا تريد أن تخرج من هذا المنزل أبداً، لأنها تعرف أن علياء ستحول حياتها إلى جحيم، إذا أعلنت الأخرى الحرب فهي من سيبدؤها أولاً!

* * *

كانت جالسة في الصالة تنتظره عندما عاد من الخارج في وقت متأخر، قفزت من مكانها عندما تقدم ناحيتها، توقف للحظات وعيناه تلاحظان لون ثوبها البحري الطويل. ذلك اللون الذي يعيد الذكريات إليه ويوقظ الأوجاع، أبعد بصره عنها وسرعان ما أعادهُ إليها يحدق إلى وجهها المضطرب، الذي تورد لونه الأبيض وذبلت عيناه العسليتان من كثرة البكاء.

وكانت شفتاها تحاولان الابتسام ولكن سرعان ما تنهاران وتتقوسان.

همس وعينه لا تفارقها، وإنما تتأمل كل تفاصليها:

- صغيرتي أهناك شيء يضايقكِ، أتريدين شيئاً وأنا نسيته؟!

رفعت رأسها قليلاً، تساقط شعرها الكستنائي إلى الوراء. عيناها اللامعتان تحدقان إليه بألم، رصت على شفتيها قبل أن تخرج كلماتها بصوت حزين:

- هناك شيء يضايقني، لقد تسببت علياء فيه، لقد جرحتني عميقاً!

قوّست شفتيها، اغرورقت عينيها بالدموع، أضافت بصوت مخنوق:

- لقد نعتتني باللقيطة.. إنها تكرهني ولا أعلم سبب كرهها لي، ولكن أن تقول عني هذا وتجرحني بألفاظها فلا أظن أن لديّ الطاقة للسكوت عنها أكثر!

رفعت كفيها، مسحت دموعها، وعيناها تنخفضان عنه. وقف في حيرة وغضب، غاضب من علياء لأنها جرحت ترفة، ويشعر بالاستياء منها لوضع نفسها مع الصغيرة، مع أنه لم يخْفَ عليه الكره المتبادل والواضح بين الفتاتين، وكلماتهما المتقاذفة بين الحين والآخر، ولكن أن يصل الأمر إلى هذا، فهو ما لا يرضاه بحق ترفة!

لكنه محتار في اتخاذ القرار المناسب، ومتردد في التحدث إلى علياء وإحراجها وإحراج نفسه أمام أمه وخالته وافتعال المشكلات، ولأنه من جعل علياء معلقة إلى الآن من دون اتخاذ خطوة حقيقية في موضوع الزواج منها!

هو يشعر بالذنب تجاهها، بسبب أنها ما زالت تنتظره إلى الآن وقد مضى من عمرها الكثير وقاربت هي من سن الثلاثين، ووالدته مصرة عليه بشأن الإيفاء بالوعد الذي قطعه معها، وخالته تلمح بين الحين والآخر وتُحرجه، وهو ليس مستعدا للزواج إلى الآن، ومتردد في هذه الخطوة، كان فيما مضى يستغل صغر سنه، ويتعذر بكثرة أشغاله وسفره، ولكن الآن ليس لديه أيّ عذر يضعه بعد هذه المدة الطويلة.

همس لها وهو يحاول التربيت على مشاعرها المجروحة:

- وأنا لا أسمح بمضايقتكِ أبداً، سأحاول التحدث معها بهذا الشأن، وأنتِ حاولي عدم الاحتكاك بها، ولا تهتمي بشأنها.

رفعت عينيها الدامعتين ناحيته، واستقرت نظراتها عليه، أبعد تركيز بصره عنها وهو يشعر بالنار تشن هجومها على صدره لرؤيتها بهذا المنظر المؤلم لنفسه، بعد فترة قصيرة أعاد نظره إليها، واستغرب تعبيرها المتردد!

ارتفعت أصابعها إلى رأسها، عبثت بشعرها، عدلت خصلاته الناعمة، قالت بصوت خافت:

- ذياب، لا تتزوج من علياء!

انعقد حاجباه حيرة، فهو لم يتوقع قولها هذا!

تابعت حديثها دون أن تعطيه مجالاً للاستيعاب:

- ذياب، أنا لا أتخيل نفسي خارج هذا المنزل، في الحقيقة أنا لا أستطيع ذلك! فكيف أعيش بعيداً عنك وعن أمي. أعرف أنها أنانية مني، ولكنني لا أعرف غيركما في حياتي، وتعرف أنني بلا أهل غيرك وأن أبي قد قُتل، فأصبحت وحيدة من بعده!

تلاشى انعقاد حاجبيه، تجمدت تعابيره، تجمعت كل مشاعره في صدره وخنقته.

كان يود لو أن سدادة وضعت على أذنيه لكيلا يسمع كلماتها التي تذكره بما يحاول نسيانه!

هي لا تعلم أن وجودها محفور فيه، ورؤيتها تجدد المواجع!

وحتى بعد مرور كل هذه السنوات لم يختفِ شيء، إنما ازداد سعيره، ولم يتغير ما يشعر به، إنما ازداد تعلقه بها ليعذبه!

أبعد نظراته عنها، نظر إلى كل ركن من الصالة عداها، نطق بعد جهد:

- حسناً..

وأضاف وهو يبتلع دفعة من الهواء:

- منزلي هو منزلكِ، وسيبقى كذلك إلى أن أموت، ولن يخرجكِ منه أحد.

ووصله صوتها الناعم المنخفض:

- وعلياء!

اختطف نظرة سريعة إلى وجهها الطفولي، الذي أشرق نوره وتبدل حزنه إلى فرح.

باضطراب أخرج هاتفه من جيب ثوبه الأبيض، أسرع بالنظر إليه في تردد يحاول إخفاءه عنها، وقال بصوت خافت:

- حسناً..

* * *

يتسلل الضوء المنبعث من الباب المفتوح إلى داخل الغرفة، تقترب منه خطوات مسموعة وتتوقف بجانبه، بجانب الأريكة التي ينام عليها متى وجد صعوبة في النوم.

يفتح عينيه عند سماع تحركاتها التي يحفظ تفاصليها، كتم أنفاسه، شعر بها تقترب منه وتجلس على الأرضية، يلتصق رأسها على سطح الأريكة الزرقاء.

يطبق على أسنانه، يسمع صوت أنينها الذي شق صدره.

العادة التي لم تتخلَّ عنها منذ أن كانت طفلة ها هي تعود بعد أن كانت قد انقطعت، عادت اليوم وهو في أشد حالاته تعباً وحزناً، لتذكره بذلك الذنب العظيم!

فلم يخفف عيشها معهُ من حقيقة ما اقترفهُ، إنما زاده عذاباً وندماً!

يسترخي رأسها على طرف الأريكة، تبتلع موجات بكائها المسموع، تنطق وأنفاسها تخرج سريعة:

- ذياب، إني خائفة!

- لقد راودني ذلك الحلم المخيف!

تغرق في البكاء ثانية، ولكن بصوت أعمق وأقوى، يخرج من عمق صدرها المتنفس بسرعة.

يسمعها تكمل بصوتها المتشرب للألم:

- ذياب، هل أنت مستيقظ؟ هل تسمعني؟ حتى لو كنت نائماً فأنا سأواصل الحديث معك، فليس لديّ غيرك من يسمعني ويعرف مقدار حزني وألمي!

يغمض عينيه بشدة، وصوتها الحزين يخترق صدره، وأيادٍ خفية تخنق قلبه.

تصلب جسمه، وهو ينصت إلى كلماتها المتوجعة:

- إنه الحلم نفسه، لقد كان مروعاً وكانت ملامح أبي واضحة وهو مضرج بدمائه.

ضربت صدرها بقبضتها عدة ضربات، وواصلت الحديث شاهقة:

- كنت أريد إنقاذه، واحتضانه وتقبيله، ولكن لم أحصل على شيء من هذا، حتى في أسعد أحلامي لم أكن أحصل عليه!

هدأ تنفسها السريع، انتهت شهقاتها. وبقي الهدوء سيد تلك اللحظات الثقيلة، التي كانت كالجبل على صدره، إلى أن ظهر صوت ضرباتها مجدداً، ضربت مرة لتتبعها بثانية وثالثة وهي تقول:

- لم أكره شخصاً في حياتي قط مثله، بل إن الحقد كان يكبر معي في كل يوم يمر!

تمسكت بطرف قماش الأريكة تشدها إليها، وكأنها تشده من عنقه، وهي لا تعي أنها تصيبه في مقتل بكلماتها، أكملت بصوت حزين ثائر:

- كيف هرب؟ ومن هو؟ ولماذا لا يعرفه أحد؟ ولِمَ لم يُقبض عليه؟ كلها تساؤلات ما زالت تتردد في نفسي! لا أجد أيّ أجوبة عليها من أحد! أتعرف مقدار الألم يا ذياب؟ إنه قاسٍ جداً. فأنا أتمنى قتله بيديّ لكي أريح نفسي ولكي تجف دماء أبي، ولكن كيف لي أن أفعل ذلك؟ ذياب أرجوك ابحث عنه.. قدمه للعدالة.. اقتص منه لأجلي، ذياب أنا أثق بك، وأنت لن تخذلني أبداً!

ورحلت بعد هذه الكلمات، مخلفة وراءها فوضى مشاعر من الندم والانكسار.

جلس بعد أن اختفت الأصوات وحل الهدوء، ورأسه بين يديه، وأصابعه تضغط عليه، وأنفاسه تخرج مختنقة، لا يريد خذلانها، لا يريد ذلك!

لأنه سيجعل ذلك السر يتبعه إلى قبره، ولن يكشفه لها!

لأنه لو كشفه، فستتأذى كثيراً، وأذاها يوجعهُ.

* * *

وضعت الصدفة الأخيرة على اللوح الخشبي المصبوغ، لأن اللوحة الجميلة من وجهة نظر المعلمة قد اكتملت، صفقت لها قائله:

- رائعة يا ترفة، لقد أحببتها!

كانت الأعواد الصغيرة الملونة تشكل لون السماء والشمس وقت الغروب، أما الأصداف بتدرجات ألوانها البحرية الملونة فقد شكلت أمواج البحر، وامتد الشاطئ برماله التي ألصقتها بعشوائية، لتشكل لوحة متعرجة وألوانها ساطعة.

وضعت يديها على جانبي خصرها، وقفت نافضة بعض الغبار الذي علق على ملابسها الرمادية المدرسية، وضعت إصبعها مرة أخرى على الصدفة قبل أن تسمع صوت ندى تنادي بصوت عالٍ. عدلت حجابها الأبيض على رأسها، والتفت ناحيتها إلى جهة الساحة المدرسية الواسعة والخالية من الطالبات. كانت ندى تحسر عن ملابسها المدرسية وهي تركض ناحيتها. وصلت أخيراً، وضعت كفها على كف ترفة وانخفضت لاهثة إلى الأسفل، رفعت وجهها الأسمر إليها، تحركت شفتاها الرفيعتان بنفس مرهق:

- ترفة أخبريني...

صمتت قليلاً، أخذت نفساً آخر من بين أنفاسها السريعة، ثم قالت:

- ألديكِ أخ، أنتِ لم تخبريني بذلك!

انعقد حاجباها، خرجت الحروف ببطء:

- لا!!

نطقتها من دون تفكير، وأنصتت إلى بقية كلمات ندى التي بعثرت مشاعرها.

قالت الأخرى منفعلة:

- عندما كنت عند المديرة كالعادة، حضرت الأخصائية الاجتماعية فجأة وقالت إن هناك شاباً يدّعي أنه أخو ترفة سيف، الأخصائية كذبته في البداية لأنها تعرف أنكِ يتيمة ورباك أحد أقربائكِ، ولكن الصدمة..

اتسعت عينا ترفة، خفق قلبها، وهي تسمعها تضيف بصوت متفاعل:

- هي أنه قد أراها بطاقة الهوية وجواز سفر قديمين، إنه يحمل اسما كاسمك تماما "علي سيف حسن"، وأيضاً كان هناك خلاصة قيد قديمة حملت اسمكِ واسمه واسم والدكِ ووالدتكِ، ولكن كان هناك اختلاف بينكما وأنكما من أمين مختلفتين!

أمسكت طرفي ثوبها ورصت عليه بقوة، لا يمكن هذا! هل يمكن أن يحدث ذلك؟ أخوها علي حيٌّ وموجود!

حركت قدميها وركضت، خطواتها تسرع وأنفاسها محبوسة، الهواء يصفعها والألوان تندمج.

تتقدم في الساحة، تسرع إلى المبنى البني ذي الغرف الكثيرة. وصلت.. وقفت عند باب غرفة المديرة المفتوح، نظرت داخلها، بحثت عن صوت يقودها إلى الحقيقة. تقدمت فيها، حدقت إلى الغرفة البيضاء الواسعة كان المكتب وكرسيه فارغين. خرجت وسارت إلى الغرفة المجاورة ولم تجد فيها أحداً!

تصل إلى بوابة الخروج الكبيرة، تتقدم بخطوات سريعة، ترص على حجابها، تفتح الباب الزجاجي المظلل، ينفتح ببطء وتخرج منه، تنزل الدرجات القصيرة والقليلة، تقف للحظات تلتفت

يمنة ويسرة، عيناها تبحثان عنه بين مواقف السيارات البعيدة عنها، قلبها يرتجف في صدرها خوفاً وأملاً!

تتمنى في داخلها أن تجدهُ، وتتمنى ألا يكون حلماً!

تتقدم خطوة وخمس خطوات أخرى، تقف متلفتة إلى الجهة اليسرى التي هي باتجاه البوابة الرئيسة. تتابع سيرها، ترى سيارة سوداء حديثة الطراز يقف بجانبها رجل ضخم الجثة، أسمر البشرة، يلبس بدلة زرقاء، يحمل عصا في يده اليمنى.

تقف على مسافة قصيرة منه، تنظر إليه دون أن تتقدم خطوة أخرى، ترتفع يده الأخرى الحاملة للسيجارة إلى فمه وهو يرفع وجهه إليها، ينعقد حاجباه الغليظان، تصغر عيناهُ اللوزيتان الصغيرتان أكثر معبراً عن استغرابه!

قلبها لا يزال يخفق ويخفق. عيناها تتجولان على وجهه الغريب عنها، وجهه الأسمر الذي خلا من الشعر كمنتصف رأسه، وملامحه التي لا تذكر منها شيئاً، تقدمت خطوة إضافية منه لعلها تثبت أن هذا الشخص هو أخوها، وليس أحداً غيره!

ولكنها لم تتعرف إليه!

لأنها لا تذكر شيئاً عنه غير اسمه، وضخامته أمام حجمها الصغير!

اتسعت ابتسامته بينما أنفه ينفث دخاناً كثيفاً، تجمدت في مكانها، كتمت أنفاسها. اعتدل في وقفته، تقدم بخطوات بطيئة نحوها وهو يجر قدمه التي ظهر العرج عليها.

اقترب منها إلى أن توقف أمامها مباشرةً وهو يتأملها، نطق وهو لا يزال يحمل سيجارته ويقربها من فمه:

- لقد مرت أعوام طويلة، وكبرتِ فيها بشكل لا يصدق!

وضعها في فمه، نزعها بسرعة. نفث الدخان على وجهها، خنقها به، وقال:

- أنت ترفة، صحيح! أختي الغالية التي اشتقت إليها!

فجأة ومن دون مقدمات، تجمعت وانفجرت مشاعرها في صدرها، طوقتها مشاعر ألم وحنين، وشوق إلى منبع جذورها، إلى من تبقى من رائحة والدها، إلى أخيها الذي هو من لحمها ودمها.

رمى سيجارته وسحقها على الأرض، أمسك بيدها فأمسكت به، انفجرت باكية، كان بكاءً عميقاً تبث فيه سعادتها إليه، وعدم تصديقها لما يحدث لها!

أخيراً.. رأت أخاها بعد أن عاشت يتيمة!

وأخيراً.. سوف يلتم شملها بسندها!

طبطب على كتفها وهو يفتح باب سيارته، يدخلها إلى داخلها، دخلت منهارة، جلست على المقعد وكفاها ما زالتا على وجهها، تكفكفان دموعها الغزيرة.

وجلس هو على مقعد السائق، ليدير مفتاح السيارة وتنطلق.

في أثناء سيرهما، لم يعطِ علي مجالاً للصمت أو الحزن، إنما جعلها تستمع إليه بلهفة عندما بدأ يسرد ذكريات الماضي. يصف والدهما ويصف منزلهما وحياتهما القديمة، وكيف كان والدهما يُفضلها ويحبها ولا يرفض لها طلباً.

ثم غيّر دفة الحديث فجأة بعد أن أوقف السيارة على جانب الطريق قرب المحلات التي عج الشارع بها، وانتشر ضجيج السائرين فيها:

- ما زلت أعاني من الغصة حتى الآن بسبب طريقة موت أبي! لقد غدر بنا ذلك النجس، وقتله عن قصد، لقد أفقدنا والدنا بطريقة وحشية ذلك الحقير!

توقفت عن التنفس، انقبض قلبها وهي تسمع كلماته الهادرة بصوتٍ غاضبٍ غليظ. عيناها تتجولان على وجهه العابس بصدمة، قاطعتهُ وهي تصيح بانفعال وبغير تصديق:

- هل تعرفه؟ أخبرني من هو؟

وجهه الذي لم يكن ينظر إليها، التفت باتجاهها أخيراً بعد أن أشعل سيجارة جديدة، ظهرت تجاعيد وجهه على تقاسيمه المتأملة ملامحها المنهارة. ازدادت ابتسامته اتساعاً، أطفأ سيجارته

ورماها بعشوائية داخل الحاوية القريبة منه وهي تراقبه بانفعال، وتنتظر إجابته بقلة صبر، أخرج واحدة جديدة، أشعلها ببطء شديد، فتح النافذة، دخلت إليهما أصوات الأبواق وضجيج المارة الذي زاد من توترها.

همس بعد مدة وبعد أن وضعها تحت ضغط شديد جداً جعلها منهارة، يتمزق صدرها في كل ثانية تمر:

- ذلك الحقير هو من تعيشين تحت ظله كالمغفلة!

المعانقة الثالثة

- ذلك الحقير هو من تعيشين تحت ظله كالمغفلة!

هذا ما صرخ به لاستفزازها، حدقت إليه بوجه باهت وعينين متسعتين، وما زالت آثار البكاء على وجهها.

فتحت فمها ولكن من دون كلمات، لأن الصدمة أخرستها، وتركت في داخلها إعصاراً مضطرباً من المشاعر.

استفزه رؤيتها صامتة، ووجهها يظهر انفعالات مشاعرها المذهولة مما يقوله.

لا يعلم لماذا أخذها ذياب معه، أضميره أنبهُ بعد فعلته!

أم أنه ينتقم منه بهذه التافهة بشخص لا يهتم لأمره من الأساس!

يا لتفاهة الأمور عنده، فبعد هربه ونجاته بحياته من ملاحقة رجال الشرطة التي استمرت أشهراً طويلة، كان يختبئ خلالها في مقر لا يعرفه أحد من رجال عصابته إلا قلة كانوا معه.

وبعد أن هدأت الأمور ونسي. خرج وبدأ اتصالاته ببقية أفراد عصابته وغيّر اسمه وكل شيء عنه، وبجهد كبير بدأ يسترجع أعماله التي كانت متوقفة وحصل على ورث أبيه.

وبعد أن وقف على قدميه من جديد وتحسنت الأوضاع، بدأ رحلة الانتقام بعد هذه السنين، فهو لم ينسَ تلك الخيانة التي أدهشته والتي لم يتوقعها من شخص وثق به، وأسفرت ثقته به عن مقتل والده، وجعله أعرج.

فكيف له أن يغفر لذياب بعد أن فعل ما فعله؟ بل إنه سيدفع الثمن الأغلى، فهو سيدمر حياته ويحولها إلى حطام لا يُعاد ترميمه.

والصدمة الكبرى التي اكتشفها، هي تبنيه لأخته غير الشقيقة ابنة المرأة التي دخلت حياتهم طمعاً، وجعلت والده يفضلها ويفضل ابنتها عليه!

منذ فترة طويلة بدأ مراقبة كل خطواته وتاريخه المهني، الذي فصل منه فترة ثم عاد إليه. وإلى طريقته غير القانونية في تبنيه لترفة التي لا تعرف شيئاً عن فعلته وحتى العالم بأسره، لأن رجال الشرطة قد أخفوا الأمر ووضعوا الكثير من المبررات على الحادثة.

أما مراقبة حياته الاجتماعية فكانت عن طريق أجهزة التنصت وسائق العائلة الذي ينقل كل أخبارهم إليه من أمه إلى خالته وأبنائها.

ما زالت تنظر إليه ببلاهة، وهو ما زال ينتظر منها ردة فعل تجعله يكمل خطته.

ولكن نظراتها غير المستوعبة لما يُريده تجعله يود صفعها على وجهها من الغضب، أو إطفاء السيجارة التي في يده في إحدى عينيها.

رمى السيجارة من النافذة المفتوحة، أمسك رسغها بقوة يشد عليه بقسوة مفتعلة، يصرخ على وجهها:

- ذلك الحقير ذياب، وأنتِ أحقر منه لأنكِ معه، الذي رباكِ كما أرَى!.. لا أعلم لمَ أخذكِ معه بالضبط ولكن وحتماً من أجل الانتقام، يظن أنه بانتقامه الغبي هذا أنه قد انتصر!.. يا لسخافة الأمر تعيشين معه بعد أن رأيت قتله لوالدكِ. نعم هو من قتله يا غبية، والكل يشهد على ذلك، ذلك الخائن للعشرة غدر بنا في حين غفلة منا!

شحب وجهها، ارتعب قلبها، وعيناها شاخصتان، تبتلع ريقها وهي تشعر بغصة خانقة في حلقها... لا تصدقه! لا يمكن أن تصدقه!

ترتجف يدها التي بين كفيه، تحاول التحرر منه، تشد أصابعها بتشنج، تهز رأسها الذي سقط حجابه عنه، تنطق وشفتاها ترتجفان:

- لا، أرجوك!!!... ليس ذياب، لا يمكن أن يكون هو، فذياب رجل شرطة، ومن أكثر الأشخاص احتراماً وأخلاقاً وأكثرهم رحمة وعطفاً، ومن المستحيل أن يقتل شخصاً!

شد على رسغها لكي يؤلمها، هز ذراعها بعنف وهو يخرج كلمات غاضبة يستثيرها بها:

- إن لم تصدقيني فاسأليه! دعيه يخبركِ بنفسه، وعندما يخبركِ انتقمي لنفسكِ منه، ولماذا أكذب عليكِ بأمر كهذا!.. إن كان هناك شخص يخفي أمراً ما، فهو من لديه تلك المآرب، لأنه أخذك لشيء ما أو أنه استغل ذلك ليهرب من العدالة!

امتلأت عيناها بالدموع، اختنق صوتها بينما انفلتت شهقاتها من الصدمة العنيفة التي تلقتها. ملأ صوتها الشجي السيارة، وأزعج علي وجعله يفقد أعصابه من الغضب.

يده التي تركتها أثناء حديثه، عادت إليها بلكمة عنيفة سددها إلى ذراعها وألصقها بباب السيارة. التصقت بالباب منزوية تضع يديها على وجهها المحمر من البكاء.

تحاول نزع الألم من قلبها، تسحب أنفاسها المخنوقة من البكاء، وتنفي ما تسمعه!

لأنها لا تستطيع تصديقه!

مسحت وجهها من الدموع، ووجهت نظراتها الحزينة إليه، شهقت قبل أن تقول:

- أرجوك، لا تخدعني. لا تكذب عليّ بهذا الشأن، ولا تخبرني بأمور لا أستطيع تصديقها، لا يمكن أن يفعل ذياب بي هذا، ذياب يحبني ولن يجرحني!

بعد كلماتها التي اندفعت بغصة، تبعتها موجة عنيفة من المشاعر الداخلية التي تحاول بيأس المدافعة عنه.

صدرت من علي ضحكة عميقة مستهزئة بقولها، تساقطت دموعه بسببها. وأخذ يضحك وهي تبكي.

قال بعد أن هدأت موجة ضحكه، وهو يستحقر ما قالته:

- يحبكِ!

وعاد إلى ضحكه، مضيفاً باشمئزاز:

- في وضعنا هذا ليس هنالك في القاموس شيء سخيف كالحب، بل هناك الخداع والكذب، هو كذب عليكِ واستغلكِ لكي يغطي على أفعاله الإجرامية!

ازدادت حدة بكائها، همست وهي ترتعش:

- لا أصدق ذلك! أتمنى أن يكون حلماً، خدعة منك. أرجوك، قل إنه كذب!

كان يريد منها ردة فعل مختلفة عن هذه!

كان يريد الغضب والحقد منها لا الانهيار والضعف، صرخ عليها ويداه تمسكانها من كتفيها ليجعلها تقابله.

قربها نحوه لتفصلهما المسافة الصغيرة التي تفصل مقعدي السيارة، ضغط بشدة عليها، وهو يفح بأنفاسه القذرة على وجهها المنتفخ من البكاء:

- كفاكِ ضعفاً وبكاءً على الأطلال. هيا استعيدي قوتكِ واستعدي للانتقام لأبي، أيرضيكِ موته غير العادل واستغلال ذياب لكِ؟ سأخبركِ كيف تقومين بالأمر وأنتِ فقط اتبعي أوامري!

تركها، دفعها عنه، وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه، فلقد بدأ ما يخطط له يسير كما يريد!

وبدأت هي تتجاوب معه قليلا، فيبدو أن كلماته قد أثرت فيها!

رفعت كفيها المرتجفتين إلى وجهها، مسحت دموعها التي ما زالت تتساقط، وهي تحاول النهوض من الصفعة التي تلقتها في قلبها.

والآن وبعد أن تأثرت بكلماته، سيبدأ بقرصة صغيرة كبداية، وسيعيث فساداً في أرضه.

وسيرى إلى ما ستؤول إليه الأمور في النهاية!

* * *

توقفت السيارة أمام المنزل الذي بدا ضخماً وكئيباً من خارج النافذة، ومن داخل السيارة انحنى علي أمامها، فتح بابها بعنف قائلاً بجمود:

- هيا اخرجي، سأتصل بكِ لاحقاً. واحتفظي جيداً بالمسدس لكي تدافعي عن نفسكِ وقت الحاجة!

لم تلقِ نظرة على وجهه، إنما حملت نفسها إلى الخارج بعد أن وضعت المسدس في جيب ملابسها.

انطلقت السيارة بسرعة ورحل ضجيجها في ثوانٍ.

أنفاسها محبوسة وخطواتها ثقيلة، تنظر إلى الأسفل إلى قدميها، إلى دموعها التي تتساقط إلى الأرض. تأخذ نفساً سريعاً، تمسح وجهها، تمسحه بشدة لكي تمحو دموعها وتزجرها عن السقوط.

ما أخبرها عنه علي لم يكن شيئاً هيّناً!

إنما هو من أعظم المصائب التي حلت عليها، ولا يمكنها تصديقها أو استيعابها!

علي يكذب، بل يخدعها! ولكن لماذا يفعل هو ذلك، لماذا يتهم ذياب؟ هل يمكن أن تكون الحقيقة وأن ذياب من عاشت معه واعتبرتهُ موطنها وملجأها يكون هو نفسه عدوها اللدود؟

تدخل إلى فناء المنزل، تمشي بخطوات بطيئة تحت أشعة شمس الظهيرة الحارقة.

تكتم عبراتها، تمسح دموعها للمرة الأخيرة. ترفع رأسها، تنظر أمامها بقوة تحاول التمسك بها. ومع كل خطوة كانت تفقد الأمل، لتعيده ثانية.

تصعد الدرجات، تتجه نحو الباب البني الكبير، تمسك مقبضه وتفتحه ببطء.

يندفع الهواء البارد، يسقط حجابها عن رأسها ويرميه بعيداً عنها، تمسح أنفها بطرف كمها تنهي به آخر لحظات بكائها العصيب. وبصرها يقع على أم ذياب الجالسة على الأريكة في طرف الصالة.

على صوت فتح الباب جاءت أم ذياب واقفة وهي تراها، تهلل وجهها الشاحب المرهق الذي ظهرت تجاعيده. حاولت ترفة الابتسام، امتلأت عيناها بالدموع، تقدمت أمها بخطوات بطيئة متعبة، ونادتها:

- حبيبتي أين ذهبتِ؟ لقد متنا جزعاً لاختفائكِ، خفنا أن يكون أحد حاقد قد اختطفكِ منا!

خطوات أمها تقترب منها، تصل إليها، ترفع ذراعيها لتحتضنها بشدة، تطبطب على ظهرها وهي لا تعي أنها تزيد من حدة انهيارها. انهارت ترفة بين ذراعيها، تبكي بصمت ولوعة، وجسمها يهتز.

ابتعدت أمها عنها، أمسكت وجهها بكلتا يديها، حاولت ترفة إخفاءه عنها، أغمضت عينيها بشدة تمنع نفسها من البكاء.

قالت أمها بصدمة محدقة إليها:

- ما بال وجهكِ يا ابنتي، هل كنت تبكين؟ والذي ذهبتِ معه وأخبرونا أنه يدّعي أنه أخوكِ، هل هذا صحيح؟ وهل فعل بكِ شيئاً؟ هل آذاكِ؟ أخبريني! أخبريني يا ابنتي ولا تخفي عني أمراً!

هزت رأسها نافيةً، وهي تحرر نفسها من أمها بهدوء، تصد بوجهها بعيداً عنها لكيلا ترى الأخيرة سوء حالها، قالت بصوت مخنوق ترد عليها:

- أمي، لا تخافي أنا بخير، وأنا هكذا لأنني التقيت بأخي.

أمسكت أمها بها، شدتها برفقٍ إليها، تجولت نظراتها المستغربة والمندهشة على وجهها الذي تحاول ترفة جاهدة السيطرة على مشاعره المضطربة لتكون بأفضل حال، قالت بحنان وأصابعها تمسح على يدها:

- الحمد لله يا ابنتي على هذا الخبر السار، والشكر لله.

ارتفعت يد أمها إلى شعرها، ربتت عليه بينما هتفت فجأة متذكرة:

- سأتصل بذياب، سأخبره أنكِ عدتِ، فهو قد ذهب للبحث عنكِ كالمجنون!

وقبل أن تندفع الغصة إلى بلعومها، وتخنقها وتذكرها بكل ما حدث، انفتح الباب وجاءها صوته العالي الذي جمدها وأرجفها:

- ترفة، يا إلهي.. الحمد لله أنكِ هنا..

تقدم صوت خطواته باتجاهها، توقفت قدماه اللتان انتعلتا حذاءً أسود أمامها، ولكنها لم ترفع بصرها إليه.

إنما جعلته ينظر أمامها، إلى الفراغ الذي تكوّن في داخلها.

أكمل حديثه بذعر:

- لقد مت خوفاً عليكِ، لقد بحثت عنكِ حتى يئست، الحمد لله أنكِ بخير!

أخيراً.. وبعد فترة طويلة من الوقوف أمامه، والصمت الذي أطبق عليهم من بعد كلماته، ارتفعت نظراتها الحزينة إليه التي طوقتها هالة من الوجع.

التقت عيناهما، شحب وجهه لرؤيتها، انكمش قلبه خوفاً وفزعاً لرؤية وجهها الأحمر الذي فضح مشاعر الألم والرجاء، لمدة طويلة تبادلا النظرات، نظرات تقرأ الكلمات التي لا تُنطق!

انطبع الخوف على وجهه. انقبض قلبها لرؤية مشاعره التي اضطربت فجأة، كان يريد إخفاء خوفه عنها، وإنكار ما يقوله قلبه له، وأن علي قد كشف الحقيقة لها!

وكانت هي بيأس تحاول إيجاد أيّ إجابة وافية منه، أو أي أمنيات تقول لها إن ما قاله علي مجرد أكاذيب!

لأنها تثق به أكثر من علي، ولكن تلك الثقة كانت تتزحزح في كل ثانية تمر وكلما تذكرت فيها كلمات علي.

تجعلها في شك وريبة من الحقيقة التي تخاف أن تصدمها!

حاولت التمسك بقوتها التي بدأت بالانهيار مجدداً، أبعدت وجهها عنه وجعلت جسده يتشنج من الخوف، وقلبه يدق بعنف داخل صدره.

أسرعت تركض ناحية الدرج، تصعد درجاته القصيرة قفزاً، تحاول خنق شهقاتها والبكاء بعيداً عن أعينهما.

في غرفتها انزوت، وعلى سريرها انطوت.

إنها في حيرة وتيه من الأمر!

تخاف المواجهة، وإخباره عما قاله علي، تخاف من سماع شيء يخالف ما تؤمن به!

تخاف الخيبة، وانكسار ظنونها التي تضع آمالها عليها.

رمت بالمسدس في أحد الأدراج وأقفلت عليه.

جلست لوحدها طويلاً إلى أن جاءت أمها إليها. دخلت بهدوء، هزتها من فوق لحافها الذي كانت تختبئ بداخله، تحدثت ماسحة على سطحه وقلبها منقبض لحال ابنتها الغريب، فلا يمكن أن يكون لقاؤها بأخيها سبب كل هذه التعاسة غير المبررة!

- ترفة عزيزتي، لا تفعلي هذا بنفسكِ، وإنما يجب أن تكوني الآن في قمة سعادتكِ لا تعاستكِ، لأن لديكِ أخاً تستندين إليه.

ترفع الغطاء عنها، بعد أن أحست أن موجة بُكائها قد هدأت، ترى ابتسامة أمها تتسع وهي تحثها على النهوض. اعتدلت جالسة في منتصف السرير، تكتم ألم قلبها الذي ينشطر من الحزن. تهمس أمها مطبطبة على ظهرها:

- يا ابنتي، هيا تعالي إلى الصالة، لكي تتناولي طعام الغداء.

أومأت برأسها، أخفضت نظراتها الهاربة منها وصوت الباب ينغلق، تنظر إلى يديها، تمسح عليهما بألم وهي ترى أثر الكدمات التي خلفها عنف علي معها.

بعد فترة قصيرة من الجلوس، الذي أوصلها إلى أقصى مراحل الإرهاق النفسي.

شعرت أن التهرب ليس حلاً مريحاً، أو طريقة لها للهروب!

كانت تريد الذهاب إليه، والإفضاء لهُ عما يعتمل في روحها من صراع وإخباره عن علي، وأنه يفتري عليه!

فذياب من المستحيل أن يتسبب في تعاستها، وأن يكون قاتل والدها!

وأن يرتكب مثل هذا الإثم الذي لا يُغفر بإخفائه عنها!

تترك سريرها، تخرج مسرعة من الباب، تقترب من غرفة مكتبه التي يلازمها دائماً، تبطئ خطواتها وشعور بالخوف يعذبها.

تصبح المسافة أقصر والباب أقرب، تقف أمام الباب الخشبي الأملس، ترتفع يدها إلى مقبضه ولكنها تسحبها بسرعة وأنفاسها تختنق، وصوت ضربات قلبها يزداد في صدرها.

تضع يديها على وجهها وكأنها تستعيد أنفاسها لكي تقوي من عزيمتها الخائرة، تمسك المقبض بقوة وتدفعه. ينفتح الباب ببطء، يظهر لون الغرفة الأبيض، ومكتبته الكبيرة الخشبية المليئة بالكتب. تتقدم خطواتها، يظهر مكتبه البني الذي نظمت فوقه بعض الكتب الملونة، وكرسيه الذي كان يجلس عليه.

كان ينحني على مكتبه، كُوعاه على سطح الطاولة، يداه تمسكان شعره الأسود، ورأسه منخفض ينظر إلى الأسفل. عندما سمع صوت انفتاح الباب الكامل، ارتفع رأسه وحررت أصابعه شعره، تلاقت نظراتها بنظراته المندهشة لدخولها السريع الذي فاجأهُ. خطواتها تتقدم ببطء ناحيته، ويداها تتكوران كقبضة متوترة.

يعتدل ويقف، يظهر قميصه الأبيض الذي تحررت بعض أزراره من الأعلى، ويداه على جانبيه تلامسان بنطاله الأسود.

أما عيناه فلم تخفضا نظراتهما عنها. تقدمت خطوة وراء الأخرى وهي تشعر بالانهيار. تبلل شفتيها متوترةً، تقضمها خائفةً. اقتربت منهُ حتى توقفت أمام مكتبه وأمامه. عيناها تقيدان عينيه، تمنعانهما من الفرار، تريدان كشف الأسرار، والإقرار بالحقيقة!

ولكن لم يُطمئنها وجهه الحزين، أما صمته الذي استمر حتى تلك اللحظة فقد أصبح خانقاً.

على غير العادة، كان ينظر إليها دون أن يُبعد عينيه عنها. عيناه الحزينتان اللتان تنظران إليها بأسى جعلتاها تعقد حاجبيها صدمة!

فهو لم يكن واضحاً من قبل بهذه الطريقة!

رفعت يديها المتشنجتين، احتضنت جسدها، وقد تساقطت كل آمالها وانهارت ثقتها به.

طال الصمت وأفقدها أعصابها، شدت ذراعيها حول نفسها، وكأنها تحميها من الصدمات، ثم قالت بصوت مهتز:

- لقد التقيت بعلي..

لانت عيناه بشجن، وازداد شحوب وجهه، وانفتح فمه قليلا دون كلمات.

أكملت وعيناها تنظران إليه دون أن ترمشا:

- أنت تعرف علي، وهو صديقك، صحيح؟ لأنني أذكر ذلك جيداً، علي أخيراً ظهر بعد هذه السنين بحثاً عني، وأيضاً.. علي أخبرني..

توقفت لتتنفس، حاولت التماسك لا الانهيار. حبست دموعها قبل أن ترفع نظراتها المتألمة إليه، وتنظر إلى وجهه الذي كان أتعس حالاً منها.

قالت وقد تخلت قوتها عنها، وانهارت أخيراً:

- أنا متعبة جداً وقلبي يتمزق، لست أصدقهُ، لأن ما يقوله لا يُصدّق!

أبعدت ذراعيها عن صدرها، تقدمت إليه، التصقت بالطاولة، وضعت كفيها على سطحها، اقتربت منه أكثر لتواجه وجهه، وبحزن بعثت إليه كلماتها وقلبها يتقطع:

- ذياب، لقد أخبرني علي أنك من قتل والدي!

بحزن أعمق أكملت وعيناها تنخفضان إلى سطح الطاولة:

- لا أعلم لِمَ هو يكرهك، ولمَ يحاول جرحي بهذه الطريقة..

ارتفعت نظراتها إلى وجهه الذي لم تتغير تعابيره، إنما ازداد شحوباً وتعاسةً، وكان صمته بعد كلماتها غريباً عن عادته!

اتسعت عيناها دهشة لرؤية أن كلماتها لم تؤثر فيه!

وكأنها كانت تخدع نفسها بهذه المشاعر والثقة!

الثقة التي تكسرت فجأة وهي تسمع صوته الهامس المخنوق يقول:

- ترفة، سامحيني أرجوكِ... أنا آسف!

* * *

باختناق تلفظ باسمها.. وبانهيار اعتذر إليها..

بعد أن سمع من أمه التي اتصلت بها مديرة المدرسة تخبرها أن لترفة أخاً ظهر فجأة وأخذها من دون أن يأخذ تصريحاً للخروج، جنّ جنونه.. وكاد يفقد صوابه من القلق، وعندما ذهب إلى المدرسة وتأكد من كل شيء، وأن علي قد ظهر بعد هذه السنين، وأخذها فجأة دون مقدمات.

مات رعباً وخوفاً من أن يفعل بها شيئاً أو يؤذيها!

أخذ يسير في الشوارع كالمجنون يبحث عنها، لا يعرف طريقة صحيحة للبحث، ولكنه كان ينظر إلى داخل كل سيارة متوقفة أو سائرة.

يبحث عنها بين المنازل القريبة والبعيدة، وبين الأزقة والشوارع إلى أن فقد الأمل بإيجادها أو عودتها إليه!

وحينما عاد إلى المنزل على أمل إيجادها فيه ووجدها هناك،

شعر بالراحة والسكينة، ولم يصدق أنها لا تزال بخير وأمامه!

ولكن ترفة لم تستقبله بابتسامتها المعتادة، وإنما نظرت إليه بوجه حزين متألم، متردد النظرات يراهُ لأول مرة، ولم تحدثه كعادتها، إنما تركته في حيرته، وذهبت.

أحس بالخوف، وأيقن أن هناك خطباً ما بها، وأن شيئا مختلفاً قد حدث لها. هل من الممكن أنها اكتشفت الحقيقة!

فهو يعرف علي جيداً، وعلي لن يتردد أبداً في تحطيمه والانتقام منه، وها هو قد فعل ذلك!

ولكن أن يكون تحطيمهُ بتحطيم ترفة، فهو شيء لا يقوى على احتماله.

كان يجلس في غرفة مكتبه حينما دخلت عليه، يحاول السيطرة على أعصابه المرهقة من التفكير، وحل الأمر بعد أن اكتشفت هي الحقيقة. شعور مدمر يجتاحه، وهو يفكر بالألم الذي ستقاسيه والصدمة التي سوف تتلقاها عندما تعلم بالحقيقة، وكيف ستكون ردة فعلها تجاهه، وما الذي عليه قوله لها!

فحتى لو كان والدها مجرماً، فهو لا يريد قول ذلك، ولا تشويه صورته أمامها، سيحتمل الألم حتى لو كرهتهُ ولعنتهُ، سيحاول التخفيف عنها بقدر استطاعته، تعويضها عن كل شيء، حتى لو تطلب ذلك دفع حياته ثمناً!

وها هو وبعد دخولها الذي جعله يتجرع المرارة، ويتمنى لو أن ما حصل لم يحصل!

وكم تمنى لو كانت لهُ القدرة على دفن نفسه ودفن تلك الحادثة إلى الأبد.

بعد كلماته التي نطقها بحسرة، تراجعت خطواتها إلى الخلف، ووجهها مذهول الملامح. قال مبرراً مخففاً من صعوبة المواجهة، وهو يمسك رأسه بيأس واضطراب:

- لقد كانت حادثة غير مقصودة وندمت عليها كثيراً. ترفة، أنا لم أخبركِ بذلك لأنني كنت لا أريد إيذاءك والتسبب في حُزنكِ، ولأنكِ كنت طفلة. كنت أريد فقط تعويضكِ والحصول على الغفران، مع أنني أعلم أنه صعب، فما فعلته لا يُغتفر..

فقد وجهها بريقه من الصدمة، غرقت عيناها بالدموع لتتساقط، وتمزق قلبه النابض بعنف في صدره.

ترك مكتبه، مشى ناحيتها، وقف أمام جسمها المهتز، مسح على رأسه بينما هو يكمل بتوتر أمام صمتها المؤلم:

- سأفعل أيّ شيء لكِ لكي تغفري لي، اطلبي وتدللي، سأعطيكِ كل شيء لديّ، أفديكِ بروحي، ولكن لا تُحزني نفسكِ وتتألمي بسببي، وأقسم بالله إنه لو كان بيدي لما أطلقت النار عليه، لقد كان خطأ ندمت عليه ملايين المرات.

تقوّست شفتاها، صرخت بصوت عالٍ توقفه عن إكمال حديثه:

- كفى، كفى!!

صراخها أخرس لسانه، وتغيّر تعابير وجهها المصدومة إلى الغاضبة والمنهارة جعلته يتوقف عن التفوه بالكلمات أكثر!

انتحبت بعد صراخها، أخفضت جسمها إلى الأرض، جلست ويداها على وجهها، تبكي بصوت مرير، تشهق وتقول بصوت يختنق مع كل كلمة تخرج:

- لِمَ... لِمَ... خدعتني؟ لِمَ كذبت عليّ؟ لِمَ جعلتني أعيش معك؟ لِمَ فعلت بي هذا؟ لماذا يكون أنت، لماذا؟

لم يبقَ من الكلمات غير الغصات التي استقرت في منتصف بلعومه وخنقتهُ، كان مسلوب الإرادة أمام انهيارها الذي تهرّب دائماً من تخيله، ليأتي في الواقع أمرّ من الخيال.

هي أمامه تقوِّس ظهرها وتبكي بحسرة، وهو لا يملك حقاً واحداً يفعله لأجلها، حتى احتضانها والطبطبة عليها حق لا يملكه، لا يملك إلا الوقوف بصمت. كان هذا خياره الوحيد.

* * *

ترتفع يدها إلى رقبتها تدعكها بألم... تقاوم موجة تثاؤب عميقة، تعدل من جلستها، تصلب ظهرها. تحاول فتح عينيها على وسعهما، لعلها تستعيد تركيزها وتبعد موجة النعاس التي تجتاحها كلما حاولت التركيز.

ولكن ذلك محال!

فبعد قضاء الليلة الماضية في مشاهدة أحد المسلسلات التلفزيونية، كان نصيب نومها ثلاث ساعات فقط، لتستيقظ بعدها بمنتهى الإرهاق والمرض.

مع أنها تعرف عاقبة الأمر، ولكنها لا تردع نفسها عن ذلك!

أبعدت نظارتها الطبية عن عينيها البنتين الواسعتين. تركتها على الطاولة أمامها بجانب بعض الأوراق وقلم الحبر.

تضع ذقنها على راحة يدها، تحاول التركيز على ما يقوله الدكتور في أول القاعة الصغيرة، ولكنه كان مملاً بالنسبة لها، وهي كانت في حاجة ملحة للاسترخاء.

تغمض عينيها اللتين قاومتهما طويلاً.

تحاول الثبات على يدها، والنوم يتسلل سريعاً إليها.

كانت تطمع في القليل من الراحة، وها قد حصلت عليها أخيراً!

حل الصمت على القاعة وهي تأخذ غفوتها القصيرة. ولم تشعر بوقع صوت القدمين اللتين اتجهتا ناحيتها. ضرب بمجموعة من الأوراق على سطح الطاولة، استيقظت مفزوعة، قفزت من مكانها مرعوبة من الضربة. وضعت يديها على منتصف صدرها مستعيدة جميع حواسها. أغمضت عينيها، تنفست بعمق متأوهة بعد أن لمحت الذي ضرب طاولتها:

- لقد أرعبتني فلقد خيل إليّ أن صاروخاً قد سقط علينا!

انطلقت الضحكات الخافتة من حولها لثانية واختفت في الثانية الأخرى، ترفع عينيها نصف المفتوحتين، تقابل عينين سوداوين واسعتين، وأنف منحنٍ بدقة، وجسد بنفس طولها تقريباً أو أقصر أو أنها هي الطويلة أكثر من اللازم!

كان يجب ألا تستخف دمها أمامه، فهو دائماً ما يتصيد أخطاءها!

كان ينظر إليها مباشرة، حاجباه الكثيفان مرفوعان باستحقار، ظهرت على شفتيه ابتسامة متهكمة ومستخفة بمن أمامها، تلك الابتسامة التي تراها دائماً كلما أخطأت ولو كان خطأ بسيطاً، وتجعلها تشعر أنها لا شيء أمامه، وبأنها أحقر مخلوق موجود على سطح الكرة الأرضية!

ازدردت ريقها، رفعت يدها إلى حجابها الأسود، عدلته متجنبة نظراته الغاضبة.

أخيراً تكلم بعد طول انتظار منها لكي يحرك ساكناً، وينهي هذا الموقف المحرج:

- اخرجي!

حسناً... كانت تتوقع أن يطردها بهذه الطريقة المخزية، فهذه هي المرة الثانية التي تحصل، وكانت المرة الأولى قبل أشهر، وعلى كل حال فهي قد ندمت قليلاً عليها.

لم يعجبها طردها بهذه السهولة، فقالت بصوت خافت محرج:

- لم أرتكب أي خطأ، كنت أتخيل فقط، أو قل إنه من شدة اندماجي في المحاضرة!

أغمض عينيه، حاول ضبط أعصابه، حتى لا يصل إلى مرحلة الغضب بسببها.

رص على فمه وجعله كالخط، وقال مرة أخرى بنفس ذلك الهدوء:

- اخرجي!

وأشار ناحية الباب الذي على يمينه.

بللت شفتيها، حدقت إلى المتواجدين باستحياء وخزي من هذا الموقف الذي وضعها فيه. نطقت بعد أن أعادت بصرها إليه، وهي تشعر بالغضب وفي قرار نفسها ترى أنهُ يظلِمُها:

- أنا لم أقصد...

وقبل أن تكمل باقي جملتها التي خرجت دون تفكير، انتابتها فجأة موجة من الضحك، كانت ردة فعل عكسية تحصل لها أحياناً. وضعت يدها على فمها تسكتها وهمست من ورائها:

- أعلم أنه ليس الوقت المناسب للضحك ولكن...

وانفجرت في الضحك، وكلتا يديها على وجهها.

هي تعلم أنها بهذا قد ارتكبت أكبر حماقة في حياتها، وتعلم أنها مجنونة، ولكن لا يجب أن يكون هذا أمام الطبيب عامر، لأنه لن يرحمها أبداً!

* * *

صدمت رأسها بالطاولة الخشبية للمرة الثالثة على التوالي، وهي ما زالت تشعر أنها بحاجة للضحك من جديد، ولكنه ضحك يرافقه خيبة أمل!

أغمضت عينيها، أخيراً تشعر بأنها قد هدأت قليلاً.

ما إن غرقت في الضحك وفرغت ما بداخلها، حتى صمتت وقد هالها رؤية وجه الطبيب عامر المصعوق. كان مصدوماً جداً للتحول الذي حصل لها ولضحكها غير المبرر والذي ينافي مكانه، والذي لم يكن يتوقعه حتى في أحلامه!

لقد أخطأت عندما أسرفت في تناول الفطور مع زميلاتها، وأكثر ما أكلته كان الحلويات، وهي تعرف أن الحلويات تسبب لها الهستيرية، ولكنها لا تتوب!

في نهاية الأمر أذعنت له بعد أن استوعبت فادحة الأمر الذي قامت به وعواقبه.

ولأنه لم يتكلم معها ثانية إنما ابتعد وذهب ليكمل ما كان يقوم به.

ضربت بيديها على الطاولة وهي ترفع رأسها عنها، حدقت إلى صديقتها سلوى التي أجفلتها الضربة. اهتز كوب قهوتها الذي أخذت منه رشفة سريعة. قالت وحاجباها ينعقدان:

- يا إلهي... أمل، رجاءً كفي عن هذا، فكوب القهوة يكاد ينسكب عليّ!

وضعت أمل الإبهام على السبابة، وهي تقاطع حديث سلوى مشيرة إلى يدها:

- انظري، إنه فقط بهذا الحجم. وكيف لهذا الجحم أن يراني كذبابة مزعجة، ويعاملني بهذه الفظاظة، وما مشكلة النوم! إنها غفوة لثانية واحدة فقط بسبب التعب، أهذه جريمة يعاقب عليها القانون؟

هزت منكبيها نافضة ذكرى ذلك الموقف، وأكملت بقهر:

- إنه شخص كريه جداً. ولا أستغرب كره الكثيرين له بسبب أسلوب تعامله، فهو شخص متكبر، ودائم العبوس فلم أرهُ في حياتي قط مبتسماً، إنما متذمر ومتهكم على أتفه الأسباب!

كانت سلوى تنظر إلى الأمام، ترسم ابتسامة خرقاء، لم تكن ابتسامة إنما كانت بعض الإيماءات غير المفهومة لأمل!

سمعت صوتاً ذكورياً يأتي من خلفها:

- وأنا أظن أن قمة الاستهتار هو ألا تهتم بآداب الزمان والمكان الذي أنت فيه، وتعطيه حقه من الأقوال والأفعال.

ذلك الصوت لم يكن صوتاً غريباً عنها، ولكنها لم تعر كلماته أدنى اهتمام!

فهي لم تظن أن الكلام موجه إليها، إلا عندما سمعت صوته الذي تردد ثانية، وجعلها تعي أنه الطبيب عامر وأنه يقصدها:

- ما بال قلة الأدب في هذه الأيام؟ يبدو أن بعض الأشخاص قد خلعوا رداء الاحترام ولبسوا رداء النفاق، ويأكلون من لحمك بدم بارد!

كان يوليها ظهره عندما وقفت والتفت إلى مصدر الصوت، رأته يجلس على إحدى الطاولات القريبة منها مع زميل له.

ولسوء حظها الذي ازداد سوءاً، عندما همت بالتحرك من الصدمة والإحراج علق طرف قميصها الطبي بالكرسي، اختل توازنها وسقطت معه إلى الأرض.

كان موقفاً لا تحسد عليه، فالموت أفضل منه!

نظرت مصعوقة إلى قدميها اللتين في الأعلى، حاولت التحرك فلم تستطع من الصدمة!

جاءتها سلوى وساعدتها على الاعتدال، وقفت وجسمها يؤلمها، ووجهها يحترق من الخجل. نظرت إلى كل اتجاه في القاعة الكبيرة المليئة بالناس الذين ضحك بعضهم، والبعض الآخر نظر إليها باستغراب.

شعرت أنها تتقلص من الإحراج، وسلوى تقودها من ذراعها تجاه المخرج. نظراتها تنتقل بين طاولتها التي تركتها وعامر الذي يعطيها ظهره، قالت لسلوى بصوت عالٍ مشيرةً إلى الطاولة وآثار الصدمة ما زالت واضحة عليها:

- لقد نسيتِ قهوتكِ!

ردت سلوى بهمس راصة على أسنانها:

- تباً... دعكِ منها، فأنتِ سكبتِ نصفها على ملابسي!

أكملت وعينا أمل تنظران إلى ثوبها الأخضر تحت قميصها الطبي الأبيض الذي تظهر عليه بقع بلون القهوة:

- لم أحرج في حياتي كهذا اليوم!.. أمل، لمَ لسانكِ تكلم بالتحديد؟ يا إلهي.. لم تريِ وجهه الذي أراهُ لأول مرة وهو مصدوم. لقد احمر بشدة.. لا أعلم كيف أمسك أعصابه وهو يسمعكِ تسبينه!

* * *

كانت تستلقي على سريرها عندما رن هاتفها النقال الذي بجانبها، وضعت رأسها فوق ذراعها منقلبة تجاهه. امتدت يدُها إليه، رفعتهُ لترى اسم المتصل.

حبست دموعها المنهمرة، وهي تقرأ اسم علي المكتوب على شاشته.

تجلس.. تُبعد شعرها الناعم عن وجهها. تُمسك الهاتف بكلتا يديها. تضغط على زر الرد وترفعه إلى أذنها. وقبل أن تصدر منها أيّ كلمة جاءها صوته الخالي من الرحمة:

- تباً لكِ، إلى متى سوف أتصل وأعطيكِ الأسباب وأدفعكِ للفعل لا للقول!.. أنتِ ابنة عاقة وغير مشرفة لعائلتنا، حتى والدكِ لا تستطيعين الانتقام من أجله!.. تؤجلين الأمر وتتهربين من اتصالاتي!.. أقسم إن أغلقت الخط في وجهي مثل تلك المرة أو تجنبتِ اتصالاتي، أقسم إنك سوف ترين ما لا يرضيكِ مني.. ترفة، يجب عليكِ الحذر مني فأنتِ لا تعرفينني جيداً. ألا تستطيعين فعل شيء للانتقام؟ أيّ شيء يهزه تخبرينني بنقاط ضعفه، وكيف هو جدوله المهني؟ أو ما الذي يملكه وأوراقه المهمة؟ أين يضعها؟ ومتى يكون المنزل خالياً؟ حسناً... أو على الأقل لو أطلقتِ النار عليه وأصبته في ساقه فهذا سيكون بمثابة شرف لكِ، لأنكِ انتقمتِ لأخيكِ منه.

علي عديم الإحساس، فهو لا يشعر بالعذاب الذي تعانيه!

لا يعلم أنها تختنق في كل ثانية تمر وتموت في اليوم ألف مرة، وتتمزق في كل لحظة تفكر فيها!

لا يعرف كم من الدموع تتساقط، وكم من الغصات تُحبس!

وكيف تشعر وحياتها انهارت وتيتّمت للمرة الثانية، من دون أن يكون هناك مجال للترميم، وفقدت استقرارها وكل شيء بنت عليه حياتها!

قبل أن يُكمل علي باقي هذيانه، صرخت فيه:

- رجاءً... اتركني واصمت وارحل عني، فلقد اكتفيت منك ومن غيرك، ألا تشعر؟ أليس لك قلب؟ إنني متعبة جداً ولا أريد سماع المزيد منك!

وأغلقت في وجهه، وأقسمت ألاّ تحادثه بعد اليوم.

كان جلوسها بين جدران غرفتها القرار الذي اتخذتهُ بعد مواجهتها مع ذياب، دموعها التي أغرقت وسادتها، كانت المتنفس الوحيد للبؤس الذي تعيشه. لا تعلم ولكنها ما زالت في حالة صدمة عنيفة، لا تستطيع الخروج منها!

ومنذ ذلك اليوم وذياب يحاول الحديث معها في الهاتف أو في الرسائل النصية يطلب منها مقابلته. يحاول طلب مغفرتها، ولكنها ترفض بشدة ولا تعطيه المجال لرؤية طرفٍ منها، فهي قد أعلنت الحداد على نفسها!

كانت أمها تحاول وبشدة معرفة ما يدور حولها، فذياب لم يخبرها بشأن خداعه لهم وكذبه عليهم بأنهم أقارب. وإنما الحقيقة المرة هي أنه أخذها لأنه كان يشعر بالذنب فقط. ليكفر عن ذنبه، ويقتلها به ويجعلها تشعر أنها شخصٌ مخذول.

كانت في كل يومٍ تمر على غرفتها مرتين أو ثلاثا، تحضر لها الطعام، أو تدخل لتحدثها قليلاً. تحاول حثها على قول أسباب سوء حالهما، وما بالها وبال ذياب الذي لا ينطق؟

أما ترفة فكانت تلزم سريرها وفي مرات قليلة تجلس قرب النافذة التي تجعلها مفتوحة طوال اليوم.

في ذلك اليوم وقفت بقرب النافذة، عبث الهواء النقي بشعرها الناعم الذي لم تمشطه منذ أيام. تنظر إلى الخارج ساهية، تعبر بخيالها الرمال الصحراوية والأشجار التي تتناثر في كل مكان. يخيل إليها في ذلك الوقت من الغروب وتحت ضوء القمر أن تلك الأرض تدعوها للذهاب إليها لكي تخفف من حزنها.

أمها الواقفة وراءها، تنطق بعد صمت قصير وبعد أن طافت في الغرفة مرتبة بعض الأغراض فيها:

- ترفة، أنا غاضبة منكِ ومنه، وأريد سؤالكِ قبله فأنا لديّ تصرف آخر معه. ما الذي يحدث معكما؟ لماذا أكون أنا خارج الدائرة بما يحدث هنا ولا أعرف شيئاً!.. أسأل فلا يُرد على أسئلتي! أتوسل فلا أجد إجابة، ألست أمكما؟ تعبت في تربيتكما وهذه حصيلة تربيتي!.. أهكذا أُكافأ؟

كانت كلمات أمها تقطر حزناً، تؤلم قلبها الذي حن إلى أحضانها وإلى مشاركتها أسرارها.

التفتت ترفة إليها، تقوّست شفتاها. لقد تعبت من الكتمان، وفشلت في إيجاد حلول للموضوع!

ابتلعت الخطوات الثلاث الفاصلة بينهما، ارتمت في أحضانها، شدت جسدها الحنون إليها.

بكت بصوت مسموع خرج أخيراً بعد كل ذلك الكبت، تطبطب أمها على ظهرها، تشدها إلى أحضانها هامسة بحنان:

- أبكي يا ابنتي إن كان البكاء يريحكِ. وأخرجي ما في قلبكِ، فإني كلي لكِ آذان صاغية.

من بين صوت بكائها قالت:

- أمي.. إن الذي في قلبي لا يُقال، والذي أشعر به أكبر من قوة احتمالي، والنطق به صعب!

تزيد من قوة الاحتضان وتكمل همسها:

- أمي.. أنا أحبكِ كثيراً، ولا أعلم كيف تكون حياتي لولاكِ، لولا وجودكِ الآن معي لفقدت عقلي، وفعلت أشياء لا تليق بأخلاقي.

ما زالت أمها تُطبطِبُ على ظهرها، تحثها على إفراغ ما بجعبتها، ولكنها فضلت الاحتفاظ به لنفسها.

فهي لا تريد أن تُحزن أمها في ابنها الذي تعشقه، فهي لا دخل لها بينهما، لأنها ربتها كابنتها من دون مقابل، ولم تبخل بحنانها وعطفها عليها.

ذهبت أم ذياب عنها بعد أن يئست منها، وهي غير راضية عن حالها الذي هي فيه.

بعد وقت طويل جداً من الجلوس في الصمت الخانق الممتلئ بالحسرات والآهات، سمعت صوت الباب يطرق، لم تجب على الطارق، فدخل من دون إذنها. رفعت جسدها عن السرير، جلست على طرفه، عقدت حاجبيها بغضب، سقطت نظراتها على الخادمة.

صرخت عليها:

- لِمَ دخلتِ، وأنا لم أسمح لكِ بذلك!

كان وجه الخادمة الأسمر شاحباً، وعيناها الواسعتان تنظران إليها باضطراب، تقدمت خطوتين قبل أن تقف وجسمها يرتجف:

- آنستي، المنزل خالٍ من السيد والسيدة.

غرفت عينيها بالدموع فجأة، واختنق صوتها:

- هناك رجل يريدكِ، إنه يهددني بالقتل أن أخبرت أحداً بوجوده لهذا لم أتصل بهما. أرجوكِ.. ما الذي يجب علينا فعله؟ فأنا أكاد أموت من الرعب فالرجل يحمل سلاحاً وهيئته مخيفه، وكأنه رجل عصابات!

قفزت من سريرها كالمصعوقة، نظرت إليها وعيناها متسعتان من الدهشة. قالت بصوت عالٍ:

- علي، إنه علي أنا متأكدة من ذلك!

تقدمت باتجاه الخادمة التي ترتعد أمام الباب، وأكملت شادة على يديها:

- ما الذي أحضره إلى هنا؟ وما الذي يريده؟ اللعنة عليه!

هزت الخادمة رأسها بجهل:

- لقد وضع السلاح على رأسي فخيل لي أنه سيطلق رصاصة لا محالة!.. ترفة، أرجوكِ لا تذهبي إليه فأنا أخاف أن يقتلنا، يجب علينا أن نخبر السيد!

لم تعر حديثها أيّ اهتمام، إنما تقدمت لتتجاوزها نحو الباب المفتوح، ولكن وقبل أن تخرج أمسكت الخادمة ذراعها تتوسل إليها رافضة ذهابها، ولكنها نفضت ذراعها منها وخرجت، لأن علي أخوها ومن المستحيل أن يقوم بإيذائها. إنما تظن أنه غاضب منها بسبب تصرفاتها، وأنه لم يستطع التحكم في أعصابه فجاء إليها!

ستناقشه وتحل الأمر معه بكل بساطة، وتخبره أن يأخذها معه إن أمكنه ذلك!

لأنه لا يمكنها العيش مع ذياب بعد اليوم، فحياتها معه قد انتهت منذ معرفتها حقيقة خداعه لها!

في الصالة وقفت بعد رؤيتها علي الواقف مستنداً إلى الباب الخارجي، لم يختلف شكله عن المرة السابقة التي رأته فيها، فبدلته الرمادية الأنيقة تشبه تلك التي كان يلبسها. كان يمسك بالهاتف متحدثاً بصوتٍ منخفضٍ، وباليد الأخرى يدخن وينفض غبار سيجارته إلى الأرض.

يعقد حاجبيه لثانية ويرخيهما في الثانية الأخرى. يرسم على شفتيه ابتسامه صغيرة خبيثة. ينفث دخاناً كثيفاً من فمه، رمى السيجارة من يده وعيناه تنظران إليها، أغلق الهاتف، ووجهه الأسمر لم يظهر أيّ ردة فعلٍ على رؤيتها!

جرّ قدمه المصابة متقدماً ناحيتها، فتقدمت هي بخطوات مترددة إليه.

شعرت للحظة بالذعر، ضاق صدرها من النفور الذي أحست به تجاهه. توقفت قبل أن يتوقف هو على بعد خطوتين منها. عيناه الخاليتان من المشاعر حدقتا إليها من أعلى رأسها حتى

أخمص قدميها.

وقبل أن يصدر منه أيّ ردة فعل أو يتحدث، قالت متسرعة ويداها على خصرها:

- ما الذي أحضرك إلى هنا؟ أنت لم تعطِني الوقت الكافي للتفكير واتخاذ القرار النهائي.. وأيضاً.. أنت تصر على فرض رأيك عليّ! ولم تجعلني أتخذ قراري بنفسي، ولكنني قررت الآن أنني سأترك كل شيء له. وإن كنت تستطيع أخذي معك فخذني بعيداً عن هذا المنزل.

صمتت بعد سردها السريع للكلمات، ولكن وقبل أن تستعيد أنفاسها لتكمل، جاءتها صفعة سريعة وقوية على وجهها وأخرستها.

لم تستوعب ما حصل لها!.. لأن علي انقضّ على شعرها يمزقه بين يديه، يجرها به إلى الخارج، حاولت كفّ يديه عنها، ضربه بكل قوتها للخلاص منه. كانت تضرب صدره وبطنه، تصرخ عليه من شدة الصدمة والألم:

- اتركني، اترك شعري ولا تضربني..

ولكنه يزيد من قوة شد شعرها، وكأن ضربها لهُ لا يؤثر فيه إطلاقاً فهو كالحجر.

يدفعها على باب سيارته البيضاء، يمسكها من تلابيبها، يرفعها، يُلصقها على زجاج النافذة، يبصق عليها ليلجمها، ويحول صدمتها إلى اندهاش واضطراب يبعثر استقرارها النفسي.

تتسع عيناه، يجز على أسنانه، يصرخ على وجهها قائلاً:

- لقد طفح الكيل.. لقد حذرتكِ مسبقاً مني، ولكنكِ لم تلتفتِي إلى تحذيراتي!

يرص على قبضته الممسكة بملابسها، يرفع يده الأخرى التي تحمل المسدس إلى رأسها، ينتفض جسمها، تتشنج وعيناها المتسعتان مصوبتان إليه دون أن ترمشا، يهزها بعنف، يكمل وعيناه لا تحيدان عنها:

- إن كُنتِ تريدين مني أن آخذكِ معي فسآخذكِ وأقتلكِ بيدي أيضاً، إن كان ذلك يرضي غروركِ!

وبوجه غاضب غير متردد، يضغط بفوهة المسدس على رأسها، تغص بأنفاسها، وهي ترى الموت محدقاً بها من نظراته.. كانت مبهوتة من رعب، لا تقدر على تحريك ساكن أمامه. أنصتت إلى صوته الذي اختلف بظهور ابتسامة مخيفة على وجهه أبرزت تجاعيد عينيه:

- ولكن أظن أنني سأغير رأيي من ناحية قتلكِ، لأنه اتضح أنكِ أكثر نقاط ضعفه تأثيراً!

أبعد يديه عنها، ابتعد المسدس عن رأسها، سقطت على قدميها المخدرتين من الفزع.

بقسوة أمسك ذراعها، دفعها بعيداً عن الباب، فتحه، أعادها بنفس القسوة إلى داخل السيارة.

زجّ بها إلى الداخل دون ردة فعل مقاومة منها، جلست على المقعد الجلدي وظلام الليل يخفي كل الألوان عنها، احتضنت جسمها المرتعش، أغمضت عينيها، ابتلعت غصة وقفت في منتصف بلعومها.

كانت غير قادرة على إخراج الكلمات أو الصراخ، فصوتها لا يخرج إنما يتعثر مع كل نفس يخرج منها. لقد صدمتها ردة فعله، وأرعبتها! فهي لم تتوقع أن يكون قاسياً عليها وهي أخته! من البداية تغاضت عن شكله المخيف، وعن تصرفاته التي كانت تدل على قوة بطشه وعنفه، ولكنها لم تضع في الحسبان أن يضربها بهذه القساوة ويهددها بالقتل، إنما تصرفت معه كما تتصرف كالعادة مع أيّ شخص، وكان هذا خطأ لا يُغتفر منها!

والآن وبعد تهديده لها أيقنت أنها لن تفلت من عقابه، وسيكون حسابها عسيراً!

* * *

كان يحبس نفسه في معظم أوقات فراغه وبعد عودته من العمل في غرفة مكتبه، يجلس فيها وهو يشعر بالاكتئاب الشديد بسبب ما حل بترفة من بعد معرفتها الحقيقة.

كانت تمتنع عن الطعام والكلام، وتمتنع عن رؤيته، ترفضه بشدة عندما يحاول طلب مغفرتها أمام باب غرفتها.

أما الآن فأصبحت عادته هي تصفح الكتب التي لديه، قراءتها مراراً وتكراراً لعلها تشغل وقته عن التفكير بها، وتنسيه همومه التي تزيد من حجم معاناته.

وأيضاً لكي يغطي على نفسه ولا يجعل ما به مكشوفاً لأمه.

أمه التي كلما رأتهُ يدخل من باب الصالة أو يخرج من غرفته ذاهباً إلى غرفة مكتبه تأتي بطعام الغداء لأجله. يحمله عنها في إحراج، يحدثها بصوت مخنوق وعيناه تحدقان بعيداً عنها في توتر:

- سلمت يداكِ يا غاليتي، أنا سأحضره في المرة القادمة، أرجوكِ لا تتعبي نفسكِ به!

تكشف عيون أمه ما به عندما ترتفع لتنظر إليه مطولاً دون حديث.

كانت تضيق عيناها في ضيق منه، فتبرز تجاعيدها موضحة مقدار معرفتها به.

واجهتهُ في أول الأمر، وبعد أن رأت ترفة تخرج من غرفة مكتبِه منهارة باكية، وكان هو قد ذهب إلى غرفته بعد أن أصيب بالإحباط والألم من ذلك الموقف العصيب. أغلق الباب عليه، دخلت عليه بعد ثوان قليلة دون طرق. حدق إلى وجهها الذي ما زال مصدوماً، انتظرته لمدة قصيرة لعله يخبرها قبل أن تنطق، ولكنه ذرع الغرفة بصمت، فقالت بصوت منخفض النبرة ولكنه منزعج النفس:

- أخبرني ما الذي يحصل؟ ما بال ترفة؟ هل حدث لها أيّ مكروه؟ ولمَ تبكي بهذه الطريقة؟ وتتلفظ بهذه الألفاظ الغريبة عنها؟ وأيضاً بشأن الأخ الذي ظهر فجأة دون أن أعلم بوجوده. لقد أخبرتني أنها ليس لها أهل، فكيف يكون هناك أخ لها؟

توقف في مكانه، حاول طرد الألم الذي يشعر به، والتخفيف من توتره.

صمتت أمه قليلاً، أكملت وحاجباها ينعقدان بحيرة واستغراب لحاله وكأن مصيبة حلت على رأسه:

- ذياب، إني ومنذُ زمن طويل حينما جئت بها إلينا وأنا أشعر أن هناك شرخاً كبيراً حدث فيك. بُني، إن حدسي لا يخطئ فيك. أنت لم تعد ذياب القديم الفتى المليء بالحيوية والنشاط الذي يحب المغامرة، إنما أصبحت شخصاً حذراً في كل خطوة ومتردداً عند كل كلمة، تخفي

وراءك الكثير من الهموم والأحزان، نظراتك تفضحك، ووجهك يظهر الكثير.. ما الذي بينك وبينها أفصح عنه؟ أخبرني لعلي أساعدك فيه!

لانت ملامحها، اقتربت منه، أمسكت يديه بين أصابعها الناعمة. شدت عليه، تنتقل كفها إلى كتفه الأيمن لتربت عليه وتحثهُ على التحدث.

ولكنه لم يستطع النطق بأي كلمة، لأنهُ غص بالكلمات وأصبح إخراجها صعباً من حباله الصوتية.

إنه صعب بقدر تذكره لها.. فتلك الحادثة ما زالت شديدة التأثير في نفسه، فكيف لو عرفت أمه بها!

توسل إليها بعينيه لعلها تُعفيه من الجواب، وترحمه من الذكرى لأنها موجعة.

لم يعطها أيّة إجابة واضحة تزيل شكوكها، إنما حاول التعلل طوال تلك الفترة. أخبرها أنهم اكتشفوا أن أخا ترفة شخص سيئ وأنه لا يريدها. وهذا ما استطاع قوله لجعلها تكف عن الإصرار لمعرفة ما يخفونهُ عنها!

ولكن أمه لم تقتنع بما قاله، إنما توجست من الأمر خيفة، لم تظهر ذلك ولكن تصرفاتها وأسئلتها تحاصره في كل مرة، إلى أن اشتد غضبها وأرهقها حال ترفة، فأصبحت ترميه بالكلمات في كل حين، تلمح إلى شكوكها مرة ومرة أخرى تقولها بصريح العبارة أنها تشك فيه، وأنه يكذب عليها ويخبئ عنها أمراً جليلاً!

ولكن اليوم على غير العادة مؤخراً استقبلته أمام الباب، بعد أيامٍ من الصدود الذي بدأت تمارسه معه، وكان هو فيه يحاول استرضاءها ووضع الأعذار لها لكي يخفف من شدة غضبها.

كانت تزيل بعض الأوراق والحشائش عن نباتاتها التي في الواجهة، عندما اقترب منها وهو يحمل حقيبته السوداء، ويلبس بدلة العمل الزرقاء.

في الحقيقة لم يكن استقبالاً، ربما كانت صدفة هي تواجدها في الخارج في هذه الظهيرة.

انخفض إليها وإلى رأسها الذي تغطى بوشاح أزرق مزخرف. طبع قبلة عليه، احتضنها قليلاً وهمس:

- السلام عليكم، كيف أمسيتِ أيتها الغالية؟

أخذ نفساً عميقاً ليضيف:

- أرجوكِ ارفقي بي، فأنا لا أقوى على غضبكِ!

بصوت منخفض ردت السلام عليه، ولكنها لم تعتدل من جلستها، ولم تنظر إليه. أبعد يديه ببطء عنها، اعتدل واقفاً، وألمٌ يشق صدره على عدم قُدرته على تغير هذا الوضع المجنون الذي هو فيه!

فالآن أصبح الوضع أصعب وأمر، بغضب أمه عليه، وقبل أن يحرك خطواته بتعب وإحباط من مسامحة أمه له وتبديد شكوكها عنه. سمع صوتها الهامس يقول:

- أريد الذهاب معك إلى أحد أقربائي بعد صلاة المغرب.

بعد صلاة المغرب، كان ينظر نحو الممر الطويل والجدران التي تواري غرفة ترفة عنه، وبابها الخشبي الذي يخفيها عن ناظريه.

فهو لا يجرؤ على الذهاب إليها بعد الآن، ولا يجرؤ أيضاً في المحاولة مع أنهُ يتوق لذلك!

وذلك لأنه توصل إلى أنه ليس له الحق في ذلك، وأنه يجب أن يدفع ثمن إخفائه لتلك الجريمة التي ارتكبها في حقها، إلى أن تغفر هي له!

جاءت أمه بعد مدة قصيرة بمشيتها البطيئة التي يظهر عليها العمر، ولباسها الأسود يغطي كامل جسدها مظهراً وجهها وكفيها فقط.

كان وجهها الأبيض متعكر الملامح، وكانت عيناها متوترتين ترمشان كثيراً. تبعد نظراتها عنه، تمشي باتجاهه، تجرح قلبه الذي اعتاد على نظرات اللهفة والمحبة منها، أسرع إليها وقد ضاق صدره من التعب الواضح عليها، وندم كثيراً على جعلها تعاني بسببه.

أمسك كتفيها يضمها محاولا احتواءها، فلم تمانع ذلك، ومشت معه نحو الباب وخرجا.

في السيارة وعند ذهابهما لم تتطرق أمه إلى موضوع ترفة. رافقهما الصمت في بداية الطريق إلى أن فتحت أمه موضوع أقربائها وأخذت تحدثه عنهم، وكأنّ شيئا لم يحدث بينهما ولم يكن هنالك أيّ خلاف، وكأن المياه قد عادت إلى مجاريها.

بعد زيارتهما لأقرباء أمه البعيدين عن منطقتهما، وبعد وداعهما الذي استمر دقائق قصيرة، خرجت السيارة من تلك المنطقة السكنية الريفية.

كان في الطريق لا يفقه شيئاً من صوت الراديو العالي، فجل اهتمامه منحصر على ترفة التي تركها لوحدها في المنزل مع الخادمة. كان قلقاً عليها، ومشتاقاً لرؤيتها، ولرؤية ابتسامتها التي اختفت بسببه. انقبض قلبه، شد على المقود ونظراته منصبة أمامه إلى الأضواء التي تختفي وتعود، وإلى الشارع المظلم الخالي من السيارات، يزيد من سرعة العداد دون أن يشعر. نبهته أمه معاتبة:

- على رسلك يا بني خفف من سرعتك.

خفف من قوة ضغطه على الفرامل، أخذ نفساً عميقاً، ألقى نظرة جانبية إلى أمه التي تحدق إليه بعينين حادتين في ذلك الظلام. عدل جلسته لعله يعيد تركيزه الذهني إليه، ويبعد التوتر قبل أن تلاحظه أمه.

همست له بصوت غامض:

- لقد أجلنا الأمر طويلاً، وبات التأجيل مجرد أعذار واهية وغير محترمة. فأنا قد مللت من الانتظار، ومللت من رؤيتك تعيش بهذه الطريقة وأنت متعلق بالفتاة بصورة غير معقولة وكل شيء تؤجله من أجلها. وما تهذي به عندما أفتح الموضوع معك هو ترفة.. وترفة.. وكيف ستعيش ترفة.. ومن لها، وكأنك لا تعيش من دونها!

عقد حاجبيه متفاجئاً من كلماتها التي فجرتها بغتةً. تصبب عرقه متوتراً، وهو غير قادر على الرد على غضب أمه الذي يظهر في صوتها الذي كان يخنق مشاعره.

أكملت بصوت جاد مبعدة نظراتها الغاضبة عنه، كاتمة غيظها، تنظر إلى الطريق الذي وجهت نظرها إليه:

- الآن اذهب بي إلى منزل أختي لكي نخطب علياء رسمياً، ونحدد يوم الخطوبة.

رفع يده إلى صدغه، دعكه باضطراب، وباليد الأخرى شد على المقود. قال بانفعال وهو يرفع من درجة التكيف:

- أمي، الوقت ليل وغير مناسب، وهناك بعض الأمور المعلقة التي يجب حلها أولاً، أرجوكِ انتظري قليلاً وأمهليني، وسأفعل بعدها كل ما تريدينه!

شهقت أمه قبل أن تعيد نظراتها المصدومة إليه، علا صوتها قائلة:

- ما أريده أنا، بعد كل هذا الانتظار والتأجيل يكون الأمر هو رغبتي أنا! وليست رغبتك أنت؟

ارتفعت يد أمه إلى الأعلى مشيرة إليه بالتوقف، احتد صوتها:

- توقف على جانب الطريق فأنا قد ضقت ذرعاً منك وصمت كثيراً، لعل قلبك يرق عليّ ويخبرني بما يخفيه!

وقفت السيارة على جانب الطريق وعلى الرمال الصحراوية، بقرب إحدى لوحات الطرق ومصابيح الشارع الصفراء تسقط ضوءها عليهما.

أمه الجالسة على الطرف الآخر، كانت تضم ذراعيها إلى صدرها غضباً، وقد ازدادت العقدة بين حاجبيها ضيقاً. ألصقت شفتيها ببعضهما قبل أن تفرج عنهما موجهة كلماتها إلى داخله الذي عاثه الاضطراب:

- إن كنت ستستمر بوضع الأعذار والتهرب، ما رأيك في إلغاء الأمر برمته قبل أن يمضي عمري وعمرك هباءً، وتترك علياء لتلملم باقي عمرها بعيداً عنك، وتتزوج من ترفة إن كنت تهيم بها ولا تستطيع رؤية غيرها؟

اتسعت عيناهُ دهشة من كلمات أمه الأخيرة، ارتفعت يداهُ إلى وجهه تمسحه، بلل ريقه بصعوبة قبل أن يقول بصوت مأخوذٍ بما سمعه:

- أمي، كيف أتزوج من ترفة؟! أمي، كيف وصلتِ إلى هذا الاستنتاج غير المعقول الذي لم أفكر به إطلاقاً؟ فترفة مثل ابنتي وأنا شاركت في تربيتها معكِ!

قاطعته أمه مستهزئة، وصوتها الغاضب ما يزال يحتفظ بنبرته:

- لا داعي لتفكر به فهو واضح من أفعالك قبل أقوالك، وشاركت في تدليلها وتنفيذ رغباتها بشتى الطرق حتى وصلت إلى مرحلة الهوس!

صمتت قليلاً لتتحول نبرتها إلى ساخطة:

- ذياب، أكاد أصاب بالجنون بسببك في هذه الفترة. لقد أوصلتني إلى أقصى مراحل الغضب والشكوك، حتى أوصلني الأمر إلى النبش في أغراضك لعلي أجد فيها ما يدلني على ما تخفونه عني، ولكنني لم أجد شيئاً يدينكما، الآن اعترف لي، أخبرني قبل أن أغضب عليك إلى يوم القيامة.

انهارت الحواجز التي بناها أمامه عند قول أمه، وفقد قدرته على التمسك بأسراره، إلا غضبها وحزنها!

حتى لو تسبب في حزنها، فسيكون أخف من التهرب وإخفاء الأمر عنها، وكذبه المتكرر عليها الذي لا يتقنه!

فمن الممكن أن تضع هي الأعذار لهُ كما وضعها غيرها من الناس، وقد ترى هي الموضوع من وجهة نظر مختلفة عن رؤيته.

ما بال قلبه قسا عليها؟ وكيف يجرؤ على ذلك؟

وقبل أن ينطق ويفضفض لأمه عن كل شيء، رن صوت الهاتف الذي كان معلقاً أمامه على الزجاجة الأمامية في ذلك الصمت القصير، لينبههُ إلى اتصال أتى من رقم مجهول.

وضعه على الصامت وأهملهُ حتى أغلق من تلقاء نفسه، أخذ نفساً عميقاً، التفت إلى وجه أمه الذي ينتظر إجابته بنفاد صبر، وقال:

- أعتذر منكِ على هذا، فلقد كانت لديّ أسبابي والأمر صعب على نفسي..

وقبل أن يسترسل في الحديث أكثر عاد الرنين العالي ثانية ليسكتهُ، عقد حاجبيه، رفع يده إليه، التقطه مشيراً إلى أمه:

- لعل الأمر طارئ أو من العمل، سأرد لأعرف من المتصل!

جاءهُ صوتٌ واضحٌ وخشن من الطرف الآخر:

- وأخيراً، ظننت أنك لن ترد أبداً، فلقد نفد صبري!

اختنق بالهواء، شعر أنه يعرف جيداً صاحب نبرة الصوت هذه. كاد يكذبها بعد كل هذه السنوات، ولكن تردد صوته ثانية ليثبت حقيقة صاحبها:

- لقد اشتقت إليك يا حثالة!

ترددت ضحكته المثيرة للاشمئزاز عالياً، متذكراً معها كل تلك الذكريات التي كانت معه... تذكر أنه من آذى ترفة، وكشف لها الحقيقة التي عذبتهما كل هذه المدة.

انقبض صدره بشدة، تصلب من شدة الضغط عليه، اتسعت عيناه، ضغط الهاتف على أذنه من الرعب. فلقد خيَّل إليه ذهاب علي إلى ترفة... فهي لوحدها في المنزل!

يا لجنونه كيف لهُ أن يتركها لوحدها هناك، كيف لهُ أن يقترف مثل هذا الخطأ الفادح، لماذا نسي علي؟.. وكيف هو بعد الذي فعله؟

ضغط على الفرامل بأسرع ما يمكنه، رص على أسنانه بشدة قائلاً:

- ما الذي تريده؟

قال علي بصوته البارد، ونبرته الهامسة المستفزة تصيبه بالجنون:

- أريد منك أكثر مما أخذت مني.. أريد تحويل حياتك إلى جحيم.. أريد الانتقام والاقتصاص منك!

تشنج جسم ذياب من شدة الانفعال، لهث.. صرخ عليه بصوت لم يستطع التحكم به:

- إياك وإياك أن تقترب من ترفة، لأنني سأمزقك إن فعلت ذلك مرة أخرى!

نخر علي بعد كلمات ذياب، ليتبعه بصفير عالٍ شديد الاستفزاز. قال ونبرته تدل على استمتاعه في إغضابه:

- إذن هي إحدى نقاط ضعفك، كنت أشك في ذلك ولكن اتضح الآن أنها أكثر نفعاً مما تبدو عليه!

فقد سيطرته على نفسه، فداخله يشتعل من الحرارة وجسده يرتعش من التأثير، وكاد الهاتف يتحطم بين يده من شدة ضغطه عليه.

شد على شفتيه، أخرج صوتاً غاضباً متوعداً:

- علي، إني أحذرك وأحذرك للمرة المليون، الحساب معي وليس معها.. أيها المجنون إنها أختك من لحمك ودمك، أختك أيها اللعين!

لم تتغير نبرة صوت علي وهو يرد على ذياب ببرود قاتل:

- الحساب معك وسيظل معك ومع كل ما يتصل بك ويخصك حتى إن كانت أختي التي لا تعني لي مقدار جناح بعوضة.. فهي الآن مجرد أداة أستخدمها لتحقيق انتقامي.. وأيضاً اجعل الحساب بيننا ولا تدخل الشرطة فيه وإن أدخلتها فإنك سوف تندم ندماً لن تبرأ بعده.

وأغلق الهاتف في وجهه من دون أن يعطيه أي فرصة للرد، وجعله كالمجنون يقول:

- انتظر، علي... سحقاً لك، اللعنة عليك!

ضرب بيده على المقود، رمى بالهاتف تحت قدميه بكل ما أوتي من قوة.

في لحظة يأس أحس بيد أمه التي كانت تشد على ذراعه، صاحت عليه بصوت خائف وهو يزيد من سرعة سيره التي تخطت المئة والثمانين:

- ذياب، ما الذي يحدث أخبرني؟ وما بها ترفة؟

قال ونفسه منهارة، وقلبه ينشطر عدة انشطارات غير متوقفة، وداخله يثور بين رعب وغضب:

- أمي، ذلك المجنون يريد استخدام ترفة للانتقام. يريد إيذاءها على حسابي، سأموت إن لمس شعرة واحدة منها.. لا أستطيع تخيل أن صغيرتي قد تُضرب منه، إنني أعرفه جيداً فهو شخص عديم الرحمة ومجرم حقير ونجس، اللعنة عليه.

المعانقة الرابعة

كانت سرعته تزداد مع اقتراب المسافة، وأمه الجالسة على الطرف الآخر تستغفر وتسبح بصوت هامس مرتجف، تردد في كل مرة يضرب بها على المقود:

- استهدِ بالله يا بني، وخفف من سرعتك، من الممكن أنه يهدد فقط، وإن شاء الله فلن يحدث لها أيّ مكروه، هو أخوها في النهاية.. ومن المستحيل أن يؤذيها!

كانت أمه تهون الأمر عليه، ولكنه لا يستطيع السيطرة على الرعب الذي ينهش صدره، ويمحي كل أمل له، ويجعله يلعن نفسه مئات المرات ويموت أضعافاً مضاعفة!

يتمنى من كل قلبه أن يكون مجرد تهديد، ويتمنى أن تكون هي في المنزل! لكي يعود ويرجوها أن تغفر له... ويحاول التقرب منها وتعويضها من الآن بدل التخاذل والتردد... يريد أن يحرسها بعينيه ليروي شوقه منها... ويعيد ابتسامتها إلى وجهها... فهو لا يطيق تخيل أن يخطفها علي منه أو يؤذيها من أجل الانتقام!

أطفأ المحرك أمام المنزل، قفز من السيارة نحو الباب المفتوح، دخل إليه، أبطأ خطواته عندما وقع بصره على درجات المنزل القصير وعلى الخادمة التي وضعت رأسها على ركبتيها هناك، هبت الخادمة واقفة عندما سمعت صرخته:

- ترفة!!

انطلقت خطواتها المتعثرة ناحيته.. توقف عن السير وعيناه تتسعان خوفاً من تحقق حدسه. حدق إلى وجهها الأحمر الغارق في البكاء، تحدثت بصوت مرتجف:

- لقد خطفها الرجل، لم تكن لديّ أيّ حيلة، فالرجل هددني بالقتل إن اتصلت بالشرطة أو أخبرتكم، سيدي أرجوك اغفر لي!

دخل المنزل كالمجنون، رفع هاتفه، اتصل على الرقم الذي اتصل منه عليٌّ سابقاً، رن ورن إلى أن أغلق من نفسه. اتصل ثانية وأصابعه متشنجة وجسده متصلب من الخوف. وأخيراً يسمع من الرد الآلي أنه أغلق. يضغط هاتفه بين يده. يركض ناحية الممر إلى غرفتها وعند نهايته يقف أمام بابها البني المفتوح. كان مفتوحاً على اتساعه وغرفتها الواسعة الملونة باللون الأصفر مضاءة، سريرها الأبيض يتبعثر فوقه لحافها الوردي. تتقدم خطواته، تصطدم قدمه بشيء ما على الأرض. تنخفض نظراته المتغضنة إلى هاتفها الأبيض المرمي تحتهُ، يزداد ضيق صدره إلى أن ينكمش قلبه بداخله، يلتقطه وهو يقترب من السرير، يبعثر اللحاف عنه بعصبية، ينظر تحته، يفتح باب الدولاب، يسرع بخطواته إلى دورة المياه التي في الزاوية، يفتح بابها فلا يجدُ شيئاً!

يخرج من الغرفة، يذهب إلى غرفة أمه يبحث فيها بهلع، وإلى المطبخ والصالة وفي كل شبر في المنزل حتى غرفة مكتبه التي تأمل أن يجدها فيها، ثم يعود أدراجه إلى غرفتها منهاراً.

يجلس على سريرها، يمسك هاتفها وهاتفه بين يديه، يفتح هاتفها الذي لا يحتوي على كلمة مرور، يدخل رقم علي، يُكتبُ على الشاشة اسمه بخط عريض، والهاتف يتصل به، يبتلع المرارة التي يشعر بها في حلقه، يضع الهاتف على أذنه فيجد نفس الرد وبأنه مغلق. يرمي بالهواتف في حضنه. ترتفع أصابعه إلى شعره ورأسه ينحني إلى الأسفل.

يضغط عليه بشدة، يشعر أنه فاقد للحيلة، منهار من الأفكار التي لا تذهب به إلى أيّ مكان، إنما تقف به في زاوية واحدة ضيقة. ليس لديه إلا الشرطة لحل هذه المصيبة، فلو رد علي عليه لكان الأمر مختلفاً ولحاول معه حل الأمر دون إدخال الشرطة في تلك المعمعة، ويخاف إن أدخل الشرطة أن يفعل عليٌّ بها شيئاً، أو أن لا يجدها إطلاقاً!

أعاد تركيزه إلى هاتفه، اتصل منه مرة أخرى وعشراً إلى أن انهارت أعصابه، فعلي يختبر قوة صبره، ويفقده عقله. قرر أنه لن ينتظر أكثر ولن يهتم لأمر تهديداته، ولا يجب عليه أن يترك ترفة له ويصمت أكثر، لأنه يشعر أنه سيموت هماً، والأفضل له أن يستعين بالشرطة وزملائه.

وقع بصره على قدمي أمه الحافيتين عند الباب، ارتفعت نظراته إلى أن وصلت إلى ملابسها التي لم تبدلها بعد، وإلى وجهها الذي احمر وغرقت عيناها بالدموع، اقتربت منه، قالت بصدمة ظهرت على صوتها:

- هل صحيح ما تقوله الخادمة؟

جلست أمه بقربه متهاوية بعد أن أومأ لها برأسه بإجابته التي لم يقدر على النطق بها. أمسكت بكفيه كاتمة نشيج بكائها:

- لا أصدق هذا، يا رب احمها وأرجعها سالمة إلينا، لا يمكن أن يكون هناك أخ بهذه القسوة، لا يمكن أن يحصل لها هذا!

مسحت دموعها بكفيها اللتين أبعدتهما عنه لتعيدهما ثانية إليه ملطختين بدموعها:

- قالت لي الخادمة إنه ضرب ترفة ضرباً مُبرحاً، وجرها إلى الخارج بعنف!

شد على أصابعها، ارتجف جسمه بعد كلماتها، أغمض عينيه يكتم صرخة غضب انحبست في صدره.

يجب أن لا ينتظر أكثر، ويجب أن لا يغرق في هذا الإحباط واليأس، همس لأمه تاركاً كفيها، ممسكاً بالهاتف:

- يجب علينا الاتصال بالشرطة.

أومأت أمه له، مسحت دموعها. اتصل هو بأحد أفراد مركز الشرطة الذي يعمل فيه لكي يكون الأمر مستعجلاً، ولأنه أمر يخص علي الذي هو مطلوب للعدالة.

بعد عدة تحقيقات حول الأمر وحضور أفراد الشرطة إلى منزلهم لأخذ البصمات، وإعطائهم رقم الهاتف الذي اتصل منه علي، والتحقق من آخر مكان كان في الهاتف إرسال.

كان في داخل المدينة وقرب أحد الشوارع، وهذا لا يدل على المكان إطلاقاً، إنما يضع في الحسبان أمر إغلاقه في ذلك المكان فقط، لا تواجدهم فيه. حاولوا بعدة برامج أخرى إيجاد الهاتف وهو مغلق، والبحث في الأماكن المشبوهة، وتتبع سير سيارته عبر إشارات الهاتف.

في داخل المدينة الصاخبة بالسيارات والناس، كان الليل في آخره والفجر على وشك البزوغ. الظلام يستعمر بعض الجهات عكس الأخرى التي عجت بجميع الألوان المختلفة. كان في سيارته مع رفيق له يتتبعان أثر هاتف علي الذي انقطعت إشارته عند إحدى المناطق السكينة. وجدا الهاتف أخيراً مرمياً وشبه محطم بقرب الشارع وحاويات النفايات، التقطاه وحاولا تشغليه ولكنه كان شبه محطم!

أخذا يجوبان الشوارع الكائنة بالقرب منهما، يعبران الأزقة والممرات، يبحثان في البيوت المشبوهة والمهجورة، إلى أن بدأ يتسرب اليأس إلى داخله، ويفقد كل أمل كان يتمسك به كي لا ينهار، ويوقن أنه فقدها إلى الأبد.

طلعت الشمس أخيراً، بعد وقت طويل من بعد صلاة الفجر الذي قضياهُ في بحث مستمر لم يثمر عن أيّ نتيجة!

كان يجلس في سيارته بعد أن نزل رفيقه إلى أحد المتاجر. يستند بذراعيه على المقود، عاقد الحاجبين متعباً من التفكير، غير قادر على جمع أفكاره المتعثرة، عاجزاً عن التفكير بخطة معينة أو مكان قد يكون عليٌّ أخذها إليه.

يشعر أنه في محنة عظيمة يحتاج فيها من يساعده لحلها، ويخلصه من عقدة الذنب والندم، ويطمئنهُ عنها، يخبره أنها بخير ولم يحدث لها أيّ أذى!

الآن يشعر أن قتلهُ لوالدها لم يكن شيئاً يُذكر أمام ما يشعر به في هذه اللحظة. إنه يتمزق إلى أشلاء.. يموت ببطء شديد.. الكثير من الألم يجثو على صدره.. الفقدان مر والانتظار أمر.

علا رنين الهاتف لينتشلهُ من الغرق، يرفع نظراته إلى لوحته المضيئة، يظهر رقمٌ غريب لا يعرفه!.. يلتقطهُ بسرعة ويرد عليه، يضع الهاتف على أذنه كاتماً أنفاسه ينصت إلى صوت المتصل. فيأتيه صوت من ينتظره، لينزعه من حفرة بؤسه:

- هل جربت الانتظار.. والبحث الطويل دون جدوى.. سترى ما أنا فاعل بك.. فأنت لم تتريث لعل الحساب يكون بيننا فقط، إنما تجرأت مخالفاً أحد تحذيراتي!

يكاد الهاتف ينزلق من يده من شدة تعرقه، يرد عليه بصوتٍ عصبي وجسمهُ يرتعش:

- لماذا لم تجعل تصفية الحساب بيننا فقط؟.. لماذا أدخلت شخصاً بريئاً في مشكلاتنا؟... وكيف تتجرأ وتلمس شعرة منها.. علي، صدقني ستندم، إلا ترفة يا علي، إلا ترفة.. فترفة لا أحد يتجرأ عليها ما دمت حياً.

استمع علي إلى ذياب وعندما أنهى الآخر حديثه انفجر مندفعاً غاضباً:

- ومن وضعك ولياً لأختي لتهددني؟.. أنت مجرد شخص خسيس غدر بي وكنت أظنك صديقاً لي، لم تقف عند هذا الحد فقط إنما تجرأت أيضاً على قتل والدي بكل بساطة.. هو والدها أيضاً قتلته أمام عينيها.. لتختبئ وراء أفعالك بأخذها معك دون وجه حق.. أتعلم أنني أنا لي الحق كله فيها وليس أنت؟ سأمزق شعرها وأضربها كيفما أشاء فهي أختي في النهاية.

يضيق صدر ذياب أكثر فأكثر مع كلماته المستفزة، يفقد حيلته، يشعر باليأس يتسلل ببطء إلى داخله، يشد على قبضته لكي يتماسك، يزيد من جزه على أسنانه بعصبية، يصرخ عليه مقاطعاً كلماته:

- لا... ليس لك الحق.. كلنا ليس لنا الحق في ذلك.. اتركها بعيداً عنا ولا تؤذِها، هيا دعنا نتقابل ولتذهب الشرطة إلى الجحيم.

انطلقت صرخة علي عالياً راداً على كلماته:

- لا!!... لن نتقابل الآن، لأن الأمر قد انتهى، ولأنني أمسكتك من يدك التي تؤلمك، وسيكون عقابي بها.. سترى ما أنا فاعلٌ بها.. وحاول مع الشرطة في البحث عنا، أبحث وأؤكد لك أنك ستفقد الأمل قبل أن تجد ظفراً يدلك علينا!

وأغلق الهاتف في وجهه، الذي ما زال متشنج الملامح، ضغط على الهاتف بعصبية، اتصل برفيق له في مركز الشرطة، أعطاه رقم هاتف علي ليتتبعه في يأس وعجز لعله يقدر على الوصول إليه!

* * *

تجلس في غرفة صغيرة مظلمة جدرانها إسمنتية، خالية من أيّ أثاث أو كائن حي غيرها. تتسلل أشعة شمس الظهيرة الحارقة من نافذة مربعة صغيرة تقابلها في الأعلى، تستقر عند قدميها

الحافيتين، اللتين جرتهما إلى صدرها لتحتضنهما.

يلتصق شعرها بوجهها الشاحب والمتعرق، تسند جذعها إلى بابٍ خشبي قديم. الحر يرهقها ورائحة الغرفة الإسمنتية أصبحت جزءاً لا يتجزأ منها عندما اعتادت عليها.

تمسح براحة يدها على رقبتها المتعرقة، تنتقل إلى ذراعيها اللتين تؤلمانها بسبب ضرب علي لها.. منذ البارحة وهي هنا، وبعد أن جاء بها علي إلى هذا المكان الذي لا تعرف عنه غير أنه في قلب المدينة. رماها في هذه الحجرة المنعزلة في هذا المنزل الصغير وأوصد الباب عليها بالمفتاح دون أن يهتم بأمرها، أو يلتفت لهتافاتها واعتذارها منه.

في السيارة وبعد أن رأت عصبيته صمتت لعل الصمت يمتص غضبه، تمنت في تلك اللحظة لو أنها تكون مخطئة في حكمها على شخصه، وأن هناك أشخاصاً في وقت الغضب يفقدون أعصابهم. ولكن بعد أن جاء بها إلى هنا وهو يجرها بكل عنف، ويصرخ عليها أيقنت أنها تسير إلى حتفها!

فهي لا تعرف علي كفايةً. فكيف لها أن تثق به بعد أن أوسعها ضرباً، ووضع المسدس على رأسها، وتركها لوحدها في هذا المكان الغريب.

في البداية جلست تهون الأمر على نفسها. وأنه سيُحل وسيأتي في الصباح ولكن أتى الصبح ولم يأتِ هو!

كانت الليلة الماضية من أتعس الليالي التي مرت عليها، في البداية لم تستطع النوم بسبب خوفها من الظلام والوحدة والغربة. ولكن من شدة التعب غلبها النوم لتزورها الكوابيس. كل الكوابيس السيئة تجمعت في تلك الليلة. كل الذكريات اتضحت معالمها، تلك الذكرى وذلك الدم الذي كان يبلل وجه والدها وملابسها، وذياب الذي كان شخصا غير الشخص الذي تعرفه، كان الحلم حزيناً فلقد كانت تريد التمسك به ونفي ما فعله بها. ولكن اختلط الحلم عليها، ظهر علي، أصبح هناك إطلاق نار وحفر في الأرض.

استيقظت مذعورة على صوت الديك الذي أعلن عن انبلاج الفجر. انتظرت علي إلى أن انتصفت الشمس!

كانت تطرق على الباب الخشبي وبلا جواب، تصرخ بصوت عالٍ من دون أيّ رد!

كان الجلوس خلف الباب وطرقه بين حين وآخر الحل الوحيد لها لعل أحداً ما يسمعها أو ينقذها!

تضغط على بطنها بقوة لعلها تبعد ألم الجوع عنه، تبلل ريقها الناشف من العطش، فهي لم تأكل وتشرب شيئاً منذ غداء الأمس!

تخنق موجة بكاء متبوعة بغصة، تمسح دموعها المنهمرة بشدة. تدعو الله في سرها بأن يفرج عنها، فأخوها قد انتزعت الرحمة منه، يضربها ويحبسها في هذه الغرفة بلا اهتمام، ويمنعها من شربة ماء!

ما الجريمة التي ارتكبتها في حقه؟ أليست هي مظلومة أيضاً!

يمر الوقت ببطء شديد، ينحسر ضوء الشمس إلى أن يصبح بقعة صغيرة في الزاوية، يحل الظلام شيئاً فشيئاً. تلصق ظهرها على الباب وكأنها تتشبث بآخر أمل لها. تتألم بشدة من شدة العطش والألم الذي بدأ يتسرب إلى خاصرتها وأسفل بطنها، فلقد مُنعت من قضاء حاجتها في دورة المياه طويلاً حتى تحجر بطنها.

في الظلام تسرب ضوء القمر عبر النافذة، تجلس في مكانها، تضم أجزاءها إليها، ترفع رأسها وتخفضه إلى ركبتيها، لا دموع لتنهمر أكثر، ولا طاقة لها للصراخ أكثر، ترفع قبضتها، تجمع طاقتها في يدها إلى الباب الذي لا ترى إلا لونه الغامق أمامها وتطرقه.

تخور قواها، يرتجف جسمها تعباً، تستلقي على جانبها الأيمن مرهقة.

بعد مدة قصيرة من الانطواء، والألم الذي تحاول تحمله، انفتح الباب، تسلل ضوء المصباح الأصفر من الخارج، أُنيرت الغرفة، غشيت عيناها فلم تستطع تمييز الداخل. حاولت النهوض من مكانها، والنطق بالكلمات، فلم تقدر من شدة إعيائها.

أمسكت يد علي الخشنة والعنيفة بوجهها، شد على فكها يجبرها على فتح فمها. فتحتهُ متألمة، زج بفم زجاجة المياه الكبيرة في فمها، بلل الماء ريقها، روى عطشها، تسلل إلى خارج فمها بكثرة

وتقاطر على ثوبها الذي يعلوه التراب. شربت لاهثة، شرقت به، خرج من أنفها وكحت بشدة. أبعدها عنها، فرغها دفعة واحدة على رأسها. التصق شعرها بوجهها، تبللت ملابسها والتصقت بها.

رفعت عينيها الرطبتين إليه، حاولت فتحهما. اعتدل في وقفته وصار جسده المرتدي البدلة السوداء ضخماً أمام حجمها، عبس وجهه وصوته الغاضب يتحدث بكلمات غير مفهومة بالنسبة إليها، حاولت النطق بعد أن أحست أن فمها عاد إلى الحياة:

- أرجوك أعدني إلى المنزل وسأفعل لك كل ما تريده، ولكن لا تتركني هنا رجاءً!

ارتعشت بشدة بعد كلماتها، انهمرت دموعها بغزارة.. هي خائفة جداً وتريد العودة إلى منزلها، تريد أمها..

أجهشت في البكاء بمرارة، ترجته أن يرحمها.. كان منشغلاً عنها بحديثه لمن خلف الجدران. أزعجه صوتها، أفقده أعصابه، أعاد جل تركيزه إليها، رفع قدمه رفسها بعنف، لم يرحم ضعفها ولا قلة حيلتها عندما صرخت باكية بعد ضربته، وإنما صاح بها مهدداً:

- اصمتي حالاً.... فأنا لا أريد سماع صوتكِ المزعج، أتمنى لو كنت قادراً على التخلص منكِ سريعاً.. ولكن صبراً فليس الآن الوقت المناسب لفعل ذلك!

انطوت على نفسها رعباً، تصلبت من الألم. عضت على لسانها لكي تخنق كل ذلك الألم الذي يضنيها.. بعد فترة قصيرة من البكاء بصمت، سمعت أصوات أقدام تتحرك، وهمساتٍ وكلماتٍ رجالية خشنة. ظهروا بأشكالهم المختلفة وألوانهم مع علي أمام الباب الذي جعله نصف مفتوح وراءه. نظراتهم التي تأخذ نظرة خاطفة سريعة إليها في كل حين، تجعلها تتشنج وتجر ثوبها الأخضر الطويل إلى أسفل قدميها، مغطية شعرها المكشوف بذراعيها. كان الباب نصف مفتوح والهمس مسموع، تسمع أصوات الذين يجلسون في الغرفة المجاورة قرب الباب يسترقون النظر إليها. ترى أقدامهم وأحذيتهم السوداء، تسمعهم يتحدثون بصوت هامس بعيداً عن مسمع علي الذي اختفى.

ينظر إلى رفيقه بنظرة حازمة:

- إنها أخته لا يجب عليك النظر إليها!

كان ينهر الذي عاد إلى كرسيه بعد أن نظر نظرة قصيرة إلى أخت زعيمهم.

ترتسم على شفتي جمال ابتسامة غير مبالية، يزيد من اتساع المساحة بين قدميه متحدثاً:

- وكيف يفعل بها هذا، حتى لو أنها عاشت مع قاتل والده!

يشبك جلال أصابعه فوق الطاولة التي أمامها، وبصره يرحل إلى الباب الذي يحجبها:

- إنه ينتقم منه.. ونحن ليس لنا سلطة إلا اتباع أوامره، فأنت تعرف ما الذي سيحصل لنا إن أخطأنا ولو خطأً بسيطاً.. غض بصرك عنها، فلو رآك لقتلك!

صدرت ضحكة قصيرة من جمال، قال بنظرة مستحقرة:

- أتظن أنها تعنيه حقاً! فلو كانت كذلك لخاف على عرضه ولما تركها أمامنا هكذا! يا لثقته العمياء!

بصوت عميق قال جلال ونظره يعود إلى الباب الخارجي الذي يقف عنده ثلاثة من الأفراد:

- ليست ثقة، إنما هي سيادة مطلقة، لا داعي لإخبارك بالمزيد فهو واضح، والمخاطرة تعني الموت!

تسارعت أنفاسها بهلع بينما هي تسمع حديثهما، جلست متألمة، ودت لو أن هناك عباءة تختفي تحتها، أو تنشق الأرض وتبتلعها. ولا أن تكون في هذا المكان، تحركت حبواً. وصلت إلى زاوية بقرب الباب. جلست فيها منكمشة، تتمنى بهذا أن تختفي لكيلا يراها أحد، ولكيلا تكون محط تلك العيون القذرة التي لا تستحي من رمقها بنظراتها الدنيئة!

هم يرون أنها لا تعني شيئاً لعلي، فكيف بنفسها التي أحست بالخزي والعار بوجودها في منظر كهذا أمام رجال غرباء، وأمام أخِيها الذي يجب أن يكون غطاءها!

وأخيراً أيقنت أن أخاها الذي تمنت رؤيته كثيراً، وفرحت به أشد فرح هو أخ قد تخلى عن مروءته وإنسانيته!

* * *

بعد أن اختفى علي وتركها في زاويتها قرب الباب، التي انطوت فيها على نفسها بعيداً عن عيون المتلصصين، رأسها يلتصق بالحائط وشعرها القصير يتناثر حول وجهها الشاحب. كانت تحاول بصعوبة الحفاظ على اتساع عينيها اللتين فقدا بريقهما العسلي. حاولت تركيز انتباهها على الباب وعلى كل حركة صادرة أو صوت. تستمع إلى أحاديثهم الخافتة والعالية، تتبع تحركاتهم وظلالهم التي تأتي إلى الباب وترحل، ولكن لا أحد يدخل أو ينظر!

بعد فترة طويلة من الجلوس الذي أهلك جسمها من التعب. أرادت الاستلقاء لكي تعانق نفسها وترثيها، من شدة الألم والإرهاق الذي يزداد أضعافاً في كل ساعة تمر. للحظات تغلق عينيها المتعبتين، ولكنها تفتحهما على اتساعهما عند سماع صوت حركة بعيدة. تنتفض، تسري القشعريرة في جسمها من الخوف من أن يأتي أحدهم وهي في حالتها هذه!

جاء علي بعد مدة طويلة من الاختفاء، دخل إلى الغرفة وصوت جر حذائه مسموع من مسافة قريبة، وجسده الضخم لا يزال يلبس بدلته السوداء الكئيبة. ارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة قبل أن تتحول إلى تكشيرة، وقف قليلاً وهو يفكر، كان متردداً وقلقاً من وضعها هنا، يخاف أن يجدوهم إن تأخروا قليلاً عما رسم وخطط، أو إن ارتكبوا أيّ خطأ بسيط.. ولكنه في الوقت نفسه كان واثقاً من نفسه لأن خطته بغاية الدقة، فهو ليس غريباً على هذا المجال، إنما هو تجاوز الاحتراف بمراحل طويلة، فعشر سنوات كانت كفيلة لتلافي الثغرات.

وأكثر ما كان يقلقه هو كيفية نقلها إلى المدينة الأخرى دون أيّ عراقيل. كان قبل دقائق يخطط لفعلها بنفسه، ولكن طرأ طارئ في أحد المصانع التي يمتلكها ويجب عليه أن يتركها ويرحل قبلها بوقتٍ طويل. مع كل ما فعله بها وكرهه لها تظل أخته وورقته الرابحة للانتقام. ويبدو جنونياً وضعها هنا مع العديد من الرجال، ولكنهم لم يكونوا إلا أكثر الأشخاص الذين يثق بهم، فمعظمهم كانوا مع والده ومعه وقدموا العديد من التضحيات من أجلهم، وبعد وفاة والده كانوا كالعائلة والإخوة بالنسبة له، وساندوه ولم يخذلوه يوماً.

أرعبتها تكشيرة وجهه الخالي من الشعر. مد يده السمراء إليها بينما ازدادت التجاعيد بين حاجبيه السميكين وفوق جبينه الخشن، أمسك بها في لحظة كانت فيها تنظر إليه برجاء لعل قلبه يرق لها!

أمسكت أصابعه العملاقة بمعصمها الضئيل، نظر إلى وجهها المذعور وشفتيها المتشققتين والمرتجفتين، كانت عيناها الواسعتان تطالبانه بالرحمة، ولكنهما لم تحركا فيه أيّاً من مشاعر الرحمة أو الشفقة ناحيتها، إنما حركتا فيه مشاعر القهرُ والحقْدِ، فوجهها لم يذكره إلا بوالدتها فهي نسخة مصغرة منها. إنه يكره تلك المرأة الدخيلة التي أخذت مكان أمه، بل أكثر من ذلك، لأن والده فضلها وعشقها بوضوح، لم تعامله يوماً بقسوة، وإنما مثلت أمام والده أنها تهتم بأمره، ولكنه رأى أن العكس صحيح، فهي وبنظراتها الحذرة منه، وتصرفاتها المثالية معه جعلته يكرهها حتى بعد موتها بمرض مميت.

اندفعت كل تلك الذكريات لتجعله يثور غاضباً، رفع قبضته ليلكمها ويتخلص من مشاعره السلبية. سدد لكمته العنيفة إلى وجهها، شعرت وكأن صخرة ارتطمت بها وهشمت فكها.

لم تستطع الصراخ أو الدفاع عن نفسها من شدة الألم عندما وضع يده على مؤخرة عنقها، طرحها أرضاً على بطنها، ثبتها ضاغطاً بإحدى قدميه على فخذها، ثم ضغط أحد جانبي وجهها بالأرض والآخر التصق به شعرها وتمزقت خصلاتها تحت قسوة يده الضاغطة بعنف. أنفها يتنفس الغبار وفمها يخرج أنفاساً سريعة مرعوبة.

حررها بعد مدة من الاستمتاع بمنظرها الضعيف، أصدر ضحكة خافتة متلذذاً بمقاومتها الضعيفة وصوتها المخنوق المتوسل إليه.

وقف وظله الضخم يرتسم على الجدار أمامها. رفع يده إلى جيبه، استخرج الهاتف منه، التقط لها عدة صور قبل أن يخرج من الغرفة كما دخل.

كان شعور تواجده قاتلاً، يجعلها تنتفض فزعاً منه حتى بعد خروجه، فهي ترتعب مما قد يفعله بها أكثر، بالإضافة إلى أنها لا تجرؤ على الحديث معه بعد الآن، لأن الحديث معه يأتي بنتيجة معكوسة، تجعلها ترتعد من شدة الرعب.

تكتم الألم والحزن في داخلها، ترثي نفسها ببضع دمعات هاربة. تنطوي على نفسها في تلك الزاوية الضيقة. تتخذ من ذراعيها درعاً، تراقب بعينيها الواسعتين كل حركة صادرة، تحاول تقوية عزيمتها كلما انهارت بيأس.

* * *

حين أغلق الهاتف على علي وصلتهُ رسالة وسائط، فتحها على عجل فالرقم لعلي، ألجمه ما شاهده، للحظات تصلب يحدق بالصورة، عاجزاً عن التعبير وعن انتشال نفسه من الصدمة. كانت صورة لترفة ترقد على أرض إسمنتيه، وثوبها الأخضر ممزق ومبقع بالدم وشعرها شعث، كان وجهها لا يرى فلقد أخفته تحت ذراعيها، انزلق الهاتف من بين يديه، سقط تحته وقرب الباب، رفع يديه، أمسك رأسه من الجهتين، حبس غضباً مدمراً ورغبة عميقة في إيجادها حالاً، وبأي وسيلة ممكنة!

انسكبت دمعة حارقة من عينيه، وضع يديه على وجهه، شعر في تلك اللحظة بالعجز والألم، وأنه مجرد شخص لا فائدة منه، وأنه غير قادر على إنقاذ أحبائه.

بيدين مرتجفتين، وغضب عميق انبعث من داخله الضائع، ضرب على المقود بكل عنف واضعاً رأسه عليه، همس بأسى:

- يجب عليّ أن لا أتخاذل! إنما يجبُ عليّ أن أجد علي حالاً وأقتله، وأسترد ترفة منه.

* * *

بعد ذهاب علي بدقائق طويلة، ارتفعت ضجة الأصوات من خارج الغرفة، وأصبحت أصوات خطواتهم مسموعة وبكثرة. كانوا كثيرين، يتناقشون بحدة، يصرخون ويلعنون ويضحكون ويتصارعون فيما بينهم، يصدرون كل أنواع الأصوات التي أدخلت الرعب إلى نفسها.

اقتربت أقدام أشخاص لاحت ظلال أجسامهم قرب الباب، حاجباها ينعقدان، تتسارع أنفاسها، تزدرد ريقها، يتصلب جسمها من الخوف، ينفتح الباب ببطء، تطل عليها أربع عيون مختلفة ألوانها من خلف الباب، وأجساد طويلة وقصيرة وبشرة فاتحة وغامقة، من الأربعة تقدم اثنان لينصرف الآخران، عيناها المتوسعتان تراقبانهما برعب، كانت تفضل الموت على ما يحدث لها!

تريد الصراخ والاستنجاد لعلها تفيق من هذا الكابوس!

ولكن لم يتغير شيء، ولم يختفيا بعد أن أغمضت عينيها وفتحتهما، حاولت الصراخ أو الكلام ولكنها لم تستطع، فالإجهاد والخوف الذي تشعر به أقوى من قدرتها على النطق!

لم تنخفض نظراتهما عنها، إنما استمرت في التحديق إليها، كان الأضخم والأسمر بينهما يرسم ابتسامة قبيحة تحت شارب كث، أما الآخر الذي امتلك بنية أقصر وبشرة بيضاء، فقد نظر إليها بتفحص وازدراء.

قال الأسمر بعد أن تقدم خطوة إضافية تجاهها بصوت قوي خشن:

- لا تخافي ولا تجزعي، فالرئيس علي قد أوصانا بكِ ووضعكِ تحت إشرافنا، ونبهنا إلى عدم لمس شعرة منكِ وأنك في مأمن معنا، فقط سنقوم بنقلكِ إلى مكان آخر آمن تستريحين فيه.

انتفضت من خشونة صوته الذي أخافها، جزت على أسنانها جزاً، وداخلها يتمزق من الحسرة، كيف لهُ أن يتركها بهذه السهولة لرجال غرباء عنها؟

كيف له أن يفعل بها شيئاً كهذا! وكيف لها أن تشعر بالأمان معهما، وذلك الذي يُسمى أخاها لا تأتمن نفسها معه!

هي خائفة منهم، إنهم مجرمون ولا يمكنها الوثوق بهم. إنما يجب عليها أن تقتل نفسها إن حاولا الاقتراب منها.

لم تتزحزح من مكانها، إنما التصقت بالجدار، رصت بذراعيها حول جسمها لتحميه، ونظراتها العابسة تنتقل بينهما بحذر وشراسة.

تقدمت خطوات الرجل الأقصر وعيناه الخضراوان تضيقان، توقف أمامها، ارتفعت نظراتها المعادية إليه في احتراس. وضع يديه في جيبي بنطاله الأسود الضيق، واتضح نفاد الصبر على ملامحه العابسة فنطق بصوت حاد:

- هيا الآن قفي حالاً.. وسيري معنا بلا عناد أو جدال، فلسنا في موقف يجعلنا نترجاكِ ونتوسل لكِ لكي تقومي حضرتكِ بالموافقة أو التفكير!

ازدادت عبوساً وتشبثاً في مكانها وداخلها يرتجف من الرعب. حركت رأسها رفضاً، تأخرت إلى الحائط لعل هناك مسافة كافية لها لكي تختبئ فيها. فجأة امتدت يده إلى ذراعها، أمسكها،

جرها بعنف إلى الأعلى، اقشعر جلدها، صرخت فزعاً، تصادم صوتها بصوت الرجل الآخر الذي صرخ على صاحبه دون أن يتحرك خطوة من مكانه:

- جمال، اتركها!!

أمسكت يده الخشنة برسغها، حفرت أصابعه جلدها بشدة آلمتها، حاولت تخليص نفسها من قبضته بنزعها منها، ولكنها لم تستطع، فيده تقيد يدها، يزيد من شده عليها ليثبت لها أنها أضعف منهُ لكي تقاوم.

بدا عملاقاً أمام حجمها الضئيل وحركتها اليائسة في المقاومة. نظرت إلى عينيه القاسيتين والخبيثتين، نظرت قهراً وقلة حيلة، احمر وجهها من الظلم وهي تحبس دموعا حارةً، ارتفع طرفا شفتيه عن ابتسامة صغيرة، فقال موجهاً كلماته إلى جلال:

- أخبره إن كنت تتجرأ على ذلك!

اضطرم الغضب في صدر جلال، قبض قبضتيه في اضطراب، لا يستطيع ردع جمال عن تخطي حدوده. فالآخر قد أمسك عليه أمراً كبيراً مر عليه وقت قصير وإن كشفهُ لأحد فسيخر الكثير وأولهم عائلته والرئيس الذي يثق به، فعلي ولشدةِ ثقته به أولاهُ هذه المهمة ليكملها على أكمل وجه كما يفعل في كل مرة، فهو ومنذ أكثر من عشرين سنة يعرفه ولم تكن علاقتهما، إلا علاقة صداقة وولاء.

أمسكت يد جمال الأخرى ذراعها المشدودة في الجانب المقابل له بقوة أكبر. كانت منهارة من الرعب من وجهه الذي برزت عليه الغلظة، بدأ يسري الخدر في جسمها ليضعفها، قاومت قبضتيه وهو يشدها إلى الأعلى ليوقفها، شدت ذراعاها إلى الخلف لتتخلص منه بأقوى ما لديها.

أخيراً وقفت على قدميها مجبرة، ولكنها حاولت الجلوس ثانية والتملص من يديه اللتين ما زالتا تشدان ذراعيها.

في لحظة خاطفة ترك ذراعاً واحدة، ارتفعت يده إليها، أمسك عنقها في سرعة عنيفة أخرستها!

شد.. أرخى.. وابتسامته تختفي وتعود. تحدق إليه مذهولة، جسمها متصلب من الخوف، وعيناها لا تنخفضان عنه، إنما تنظران إلى وجهه المستمتع بتعذيبها. ترك عنقها أخيراً وذراعيها معها بعد أن التهم صاحبه المسافة الفاصلة بينهما، أمسك بيده، أبعدهُ عنها بعنف، أصدر ضحكة مستفزة وجلال يزمجر:

- هل جننت؟ أتريد أن يبطش بك الرئيس؟!

انهارت على الأرض بعد أن فقدت قوتها، همس جمال وعيناه تحويان بريقاً جعلها ترتعش اشمئزازاً ورعباً:

- لقد كنت أحذرها فقط، لكي تطيعني وتنصاع إليّ قبل أن يحدث ما لا يُحمد عقباه!

صمت جلال من لهجة صاحبه المتوحشة، وكأنه يخرسه من تهديداته التي لا تجدي نفعاً معه!

قررت بذلٍّ وخنوع الوقوفَ والانصياع لهما قبل أن يحصل شيء تندم عليه، وقبل أن يلمسها أحد منهما ثانية بيده القذرة.. تقف ووجهها ينظر إلى الأسفل، تحاول حبس دموعها التي تبلل خديها المتوردين، وتتساقط بقاياها على ملابسها البالية. تمسح وجهها بيدين مرتعشتين ولا ترفعه، وإنما تتقدم مع أصواتهما المتحدثة إليها بالإسراع. تخرج من الغرفة الضيقة إلى الغرفة الأكبر التي احتوت أثاثاً بنياً رثاً، خطت بخطوات متعثرة على سجادة صفوية تلاشى لونها الأحمر، تمر بجانب أكياس الطعام ومخلفاتها والمحارم الورقية التي تناثرت في كل بقعة من المكان. كانت الغرفة تعج بالفوضى وخالية إلا منها ومن الرجلين، فيبدو أن الكل قد رحل بعد علي ولم يبقَ إلا هما!

تسمعهما يتبادلان الحديث غير مباليين بالتي تمشي بينهما، فيقول جلال:

- الشرطة ما زالت تبحث، ومن الممكن أن تصل في أيّ لحظة إلى هنا، يجب علينا الإسراع في الرحيل.

رد جمال بصوت هادئ حوى نبرة عميقة جعلتها تتجمد:

- ما رأيك في تغيير الخطة قليلاً ولبعض الوقت وأخذها إلى مكان ما، والعودة بها بعد ذلك إلى المدينة السمراء، ولن يعلم أحد بذلك!

تتوسع عيناها بينما تتوقف خطواتها. طنت الكلمات في رأسها حتى انتزعت قلبها من مكانه، رفعت رأسها المتبعثر شعرهُ، وطل وجهها المبهوت من الرعب.

تصطدم نظراتها الفزعة بظهر جلال الذي توقف متصلباً، التفت بسرعة كبيرة إلى صاحبه ينظر إليه بعينين مفتوحتين وحاجبين سميكين أسودين متعلقين في جبينه، ينقل نظراته إلى ترفة المتصلبة، ومن ثم يعيدها في استنكار إلى جمال!

سرعان ما انعقد حاجبا جلال في تهكم، تتعلق نظراته بصاحبه غير المبالي الذي تقدم خطوة إضافية خلف ترفة. شد على فمه الأسمر القاسي، مهدئاً من تأجج نار الغضب في صدره، إنه يعرف جمال حق معرفة، فهو شخص متغطرس وصبياني الأفعال، يجعله وهو معه يشعر بالاستفزاز والضيق، علي لا يعرف جمال كفاية، فهو مع المجموعة ومختلط معهم، ولولا تلك المصيبة وحادثة اختلاسه لبعض المواد من المصنع في لحظة ضعف نفس، وبيعها خفية من أجل سد ذلك الدين الكبير الذي دخل به تجارة فاشلة لما سكت عنه وتركه يستغله ويضيع أمانته للمرة ثانية، فهو لا يريد تكرار ما فعله في المرة السابقة، فعلي يعطيه اهتماماً بالغاً ولا يبخل عليه بشيء، وهو يعتبره كعائلته ولا يريد خذلانه!

قست ملامحه في محاولة لضبط أعصابه وهو يرد على جمال:

- تعقل يا رجل، الظروف ليست مناسبة للمزاح.. ولسنا هنا نلعب لعبة سخيفة، إنما نحن في دائرة عصيبة، فالشرطة من أمامك والرئيس من خلفك، وإن تجرأت عليها فإنك سوف تلقى مصيراً لا يرضيك!

صرخ جمال من خلفها ليجعلها تتقدم عشر خطوات إلى الأمام من الفزع:

- ومن طلب رأيك لتدلي لي بنصائحك في كل دقيقة، إنني أخبرك فقط وأحذرك من مخالفة ما أريده، إن أردتُهُ!

كان الاضطراب يلون ملامح جلال، يشد كفه الضخمة أمام عينيها اللتين لا تنظران إلا إلى الأمام، كانت لا تعلم ما الذي يجب عليها فعله!

والتفكير في ما قاله يجعل عضلات صدرها تتشنج من الرعب، تشد على أسنانها، لا... لن يحصل هذا فهي لن تجعلهُ يلمس شعرة واحدة منها، لن يحصل على أيّ شيء منها، ستُدافع عن نفسها حتى لو تجرأت على قتله!

بعد صمت قصير تصادمت فيه نظرات الاثنين في شيء من التحدي والتوتر بنظراتها التي ارتفعت في عبوس إليهما، مشى جلال، تبعه جمال الذي همس من خلفها:

- تقدمي..

كانت تشعر مع كل خطوة تخطوها أن رعبها يشتد. وجهها متجمد وأسنانها تصطك، خطواتها تهتز، تحاول الثبات والتقدم وتهدئة نفسها المرتجفة، وأنه لن يحصل لها أيّ مكروه لأنها... ولأنها... تشهق بعنف، تشعر أنها تسير إلى الهاوية، تفقد ثقتها تدريجياً، فأي قوة تمتلكها للدفاع عن نفسها!

تدعو الله في سرها، تتضرع إليه، تتمنى لو أنها تعود إلى ذياب وأمها ولا تقاسي مثل هذا الكابوس!

تتمنى بيأس لو أن كل هذا لم يحدث، ولم تعلم بالحقيقة! ولم تقابل علي، تتمنى لو أنها لم تُخلق!

تمشي.. تخرج معهما إلى أضواء المصابيح الصفراء في فناء المنزل الصغير والمضيء، تحث الخطى إلى ممر ضيق باتجاه السيارة السوداء المركونة أمام الباب الخارجي. قدماها الحافيتان تؤلمانها من المشي على التراب والحصى. فتبطئ مشيتها محاولة إرخاء أعصابها المتشنجة، والتفكير في حل يخرجها مما هي فيه!

لا تريد الانصياع لهما ولا الذهاب معهما، إنما تريد الهرب منهما!

وقفت معهما عند السيارة وتحت الظلام، قدماها تنغمسان في التراب البارد، وجسمها متصلب وداخلها بركان ثائر.

سار جلال أمامها، ركب السيارة، أدار محركها، أما جمال فكان بالقرب منها يمسك هاتفه النقال يحادث أحدًا فيه.

تقف وهبوب الهواء يحرك خصلات شعرها القصيرة، يصفع صفحة وجهها المضطرب. في قرارة نفسها ترفض إكمال خطواتها والصعود إلى السيارة التي فتح جمال بابها الخلفي لها.

تشد على قبضتيها، تستعد للحظة الهرب، تنتظر لحظة يغفلان فيها عنها. تتجول نظراتها القلقة حولها، ترى على يمينها خط المنازل المضيئة والمظلمة المتصلة بعضها ببعض، وبين المنازل شارع إسفلتي شبه مظلم خالٍ من المارة، أما اليسار فكان ساحة سوداء امتدت أرضها الصحراوية إلى ما لا نهاية.

تتراجع خطواتها البطيئة إلى الخلف. تحاول السيطرة على ضربات قلبها المتزايدة من الخوف.

ببطءٍ تتسع المسافة بين السيارة وبينها وبين جمال الغافل عنها، وتقربها من النور المحيط بالمنزل خلفها. تحرك قدميها، تركض ناحية اليمين، تدخل إلى الظلام. ترتطم قدماها بالأرض الرملية، تمسك يداها طرفي ثوبها الطويل، تتسارع أنفاسها، تتعثر.. تقفز.. تركض، تحاول الإسراع بكل قوتها. تسمع صوت جمال الصارخ الذي رمى هاتفه وركض خلفها بكل سرعته، اقترب منها بسرعة لم تتوقعها، أمسكت يده الخشنة والقاسية بقماش ثوبها من منتصف ظهرها، جرها، طارت في الهواء البارد، هوت بسرعة جنونية رهيبة على الأرض بكل عنف.

يندفع إليها، يطوق عنقها بذراعه، يشدها إليه، يسحبها إلى الخلف، تركل بقدميها، تمسك حفنة من التراب ترميها على وجهه، ينتفض مبتعداً ويحررها، يمسح وجهه، يقذفها بسيل من الشتائم والتهديدات، تقوم سريعاً لعلها تهرب منه، تتحرك خطوة واحدة وفي الخطوة التالية تصطدم قدمها بحجر في الظلام، تتعثر.. تسقط على ركبتيها، تعاود الوقوف بصعوبة، تتحمل ألم قدمها. يمسك جمال ذراعها بقسوة، يشدها إلى الخلف.

أخيراً... تنهار على الأرض بعد مقاومة الألم واجتذاب الأمل. ينهال عليها باللكمات والركلات، تخفض رأسها، تنكمش، تصد ضرباته الوحشية، يغرقها التراب من رأسها حتى أخمص قدميها وهي تتقلب عليه، تحاول مقاومته ولكنها تفشل، تحاول التنفس فتختنق بأنفاسها.

بكت متوسلة إليه، بعد أن رفعها وقابل وجهها وجهه الذي أخفى الظلام ملامحه، أمسك شعرها الذي تمزق معظمه في يده، وباليد الأخرى ثبت ذقنها بعصبية، لم تكن إلا ثوانٍ قليلة ثم اندفع جسد جمال بعنف إلى الخلف، وابتعدت يداه عنها وحررتها.

تيبست في مكانها حينما رأت جسد جلال الضخم الذي قفز على جمال، ارتفعت أصوات اللكمات والأنفاس اللاهثة، أشباح جسديهما المتعاركة كانت لا تظهر منها إلا سرعتهما الرهيبة في المعركة التي تحدث بينهما.

من بين أصوات أنفاسهما واللعنات المتقاذفة بينهما، انطلق صوت جلال الغليظ صارخاً:

- اهربي...!

كان جلال يلصق صدر جمال على الأرض، يطوي يديه وراء ظهره، جمال يرفس بشدة، يسب ويتوعد، ولكن جلال يجلس فوقه ووجهه يقابل وجهها الذي هربت ألوانه منه. تحجرت في مكانها كالمشلولة من هول الموقف.. حاجباه المعقودان بعقدة عميقة بينهما جعلتا ملامحه أكثر بشاعة، ووجهه المرهق من العراك الذي فضح تردده وإصراره كان يخبرها أن تهرب قبل أن يغير رأيه أو يفقد زمام الأمور.

تحركت أخيراً إلى الخلف، انطلقت جرياً بأقصى سرعتها. تركض تحت أضواء الشارع وعلى الأرضية الرملية والإسفلتية، تسقط مرة، تكمل جريها في الأخرى. لا تبعد نظرها عن الأمام. تحيطها المنازل الشعبية الصغيرة من كل جانب، تختفي أضواء الشارع والمنازل، تعود ثانية وهي ما زالت تجري وتجري. تقفز بخطواتها إلى أكبر مساحة تفصلها عنهما. تختفي البيوت، تظهر أضواء المدينة الصاخبة، لا توقف خطواتها إنما تبطئها. تشعر أنها تدخل إلى عالم آخر، لا تعلم أين هي فيه!

تمشي وخطواتها تثقل، وكأن رملاً ثقيلاً تجمع في باطن قدميها من التخدر. تزداد حدة أضواء المدينة. وألوان لوحات المحلات المضيئة والمتلاصقة. بقربها وبعيداً عن تلك المتاجر الملونة والصاخبة، ظهر اللون الأحمر في الأعلى واختفى ليظهر بعده الأزرق. تكتب على اللوحة «مقهى النور»، في تلك اللحظة استوعبت وجوه الناس المارين من جانبيها. منهم من لا ينظر ومنهم من يأخذ نظرة خاطفة إليها.

تحتضن نفسها بشدة، تحاول التنفس بعد كتم أنفاسها طويلاً، تشعر أنها بالكاد تستطيع الوقوف على قدميها من التعب والخوف.

نظراتها تنخفض وشفتاها تتقوسان إلى الأسفل، تنظر إلى الأحجار الرمادية والحمراء على الأرضية، تشعر بالألم يعتصر صدرها وباليأس الشديد لما هي فيه!

كيف سيكون حالها بعد الآن!

وإلى أين سوف تذهب؟ وهي لا تعرف هذا المكان الذي هي فيه.

هل تذهب إلى الشرطة التي لا تعلم أين هو مكتبها هنا؟

أو إلى تلك المحلات التي لا تضمن أن يرفق بها أصحابها!

تمشي بخطوات مرتجفة إلى المقهى، ترفع بصرها، تخفضه، يقع على شخص مار، تشيح بوجهها متجنبة نظراته المتفحصة.

تقف أمام نوافذ المقهى الكبيرة والتي عكست صورة ضبابية لها شوهت ملامحها القديمة، شعر منفوش، بشرة ملطخة بالغبار والكدمات، شفاه منتفخة ودامية، عيون واسعة مذهولة.

شعرت بالغصة، تلاشت صورتها عندما نظرت إلى داخل المقهى، إلى الناس الجالسين على طاولات خشبية راقية، وأمامهم الصحون البيضاء التي تصاعدت منها أبخرة الطعام.

كانت تصلها ضحكاتهم وحركة شفاههم عبر الحاجز الزجاجي بصمت، بعضهم يجلس لوحده أمام جهاز الحاسوب. والبعض الآخر يجلس مع عائلته، كان كل شخص هناك يملك عالمه الذي يحتضنه ويعطيه الأمان، كل ذلك الذي تفتقده في ذلك الوقت، وتتمناهُ بيأس!

تقع بعض النظرات على شكلها الغريب والمنفر، تتراجع خطواتها الثقيلة إلى الوراء.

لم تكن تعلم إلى أين تذهب، عيناها تتجولان حولها في خوف ورهبة من المكان الذي تتواجد فيه. أتدخل إلى داخل المقهى وتطلب هاتفاً وتهاتف أمها؟ أم تنتظر إلى أن يذهب الجميع فتذهب بعدهم! لأنها لا تريد أن ترى نظرات الازدراء فلقد اكتفت من النظرات العابرة، والأهم أنها تريد ستر نفسها ولا تريد أن يراها المزيد من الأشخاص بهذا الشكل الفاضح والمريع!

تمشي بخطوات بطيئة متعبة تحت الظلام وبعيداً عن المحلات، تزدرد ريقها لتبلل حنجرتها الجافة. تُنزل يديها إلى معدتها، تضغط عليها بألم، تخفض عينيها اللتان ذبلتا من الحزن، تقلب كفيها المليئين بالخدوش واللتين تحول لونهما الفاتح إلى الرمادي. تنتقل عيناها إلى ثوبها المبقع والممزق من كل جانب، تمسح عليه بكفيها، لعلها تعيد إليه لونه وبريقه، لعلهُ يسترها بهذا المسح، أو لعل هناك قوى سحرية تعيدها إلى منزلها وتجعلها تستيقظ من هذا الكابوس الشنيع!

اتجهت إلى زقاق مظلم بين جدارين يفصلان المقهى عن مبنى ضخم. جلست هناك على كومة من الصناديق الورقية المحطمة بجانب حاوية القمامة. ضمت ذراعيها إلى جسمها المرتعش بقوة ورأسها على ركبتيها. استفحل بها الألم، أحست بأن وعيها بدأ يغيب عنها، أرهقتها موجة من الغثيان والدوار. استلقت على الأرض، خدها يلاصق ورقة الكرتون البنية.

كانت تحارب الآلام التي تعاني منها بصعوبة، وأخيراً استسلمت وهي تشعر بأنها بدأت تغرق في هلوسات الحمى. لم تقاوم ولم تكن ترغب في المحاولة، إنما كانت تريد فقط الاستيقاظ والعودة إلى هناك، إلى دفء منزلها وسُكانه!

* * *

تفتح باب الشقة، تضيء المصابيح، تمشي بخطوات سريعة، ترمي حقيبتها على أول أريكة تراها، تنزع حجابها الأسود عن رأسها، ترمي حذاءها الرياضي بإهمال على الأرض. وأمام المرآة المعلقة على أحد جدر الصالة، انعكس عليها وجهها الحنطي ذو الشكل المربع. رفعت أصابعها الطويلة إلى شعرها الأسود الذي طوته على شكل كعكة. حررت ربطته، تبعثرت خصلاته الطويلة والمنطوية، أدخلت أصابعها فيه وهي تفكر في تمشيطه!... هزت رأسها غير راغبة، فكرت بملل أنه لا داعي لذلك.. فهي لا ترغب في قضاء أكثر من ربع ساعة في فك تجعده، لأنها لم تمشطه منذ أيام!

انتقلت يدها إلى منديل ورقي مبلّل ومخصّص للوجه، مسحت الكحل عن عينيها الواسعتين، وانتقلت إلى باقي وجهها تمسح مساحيقه. ترميها بإهمال على الطاولة. استلقت على نفس الأريكة التي رمت حقيبتها عليها دون أن تبدل ملابسها، مدت قدمها، التقطت اللحاف من على الأرض وتدثرت به. أغمضت عينيها واللحاف الأبيض يغطي رأسها وخصلات شعرها تخرج من تحته ملامسة البلاط، كادت تأخذ غفوتها في هذه الدقائق القليلة، بعد ساعات طويلة من العمل الشاق. ولكن جرس الباب دق بشكل متواصل ومزعج، جعلها تتقلب في تأفّف وانزعاج.

يُضغط على الجرس بشكل متواصل ومن ثم يترك قليلاً ليعاود الأمر بشكل مختلف ويصبح الصوت: ترررن.. ترررن.. ترررن.

أمسكت طرف اللحاف، أبعدته عن وجهها، جلست مزيحة الخصلات النافرة من شعرها عن وجهها ورقبتها، همست في غضب:

- يا إلهي.... إنهم هم، أقسم إنه ليس الوقت المناسب لاستقبال الكائنات غير المنقرضة هذه!

- فليذهبوا إلى الجحيم! لن أقوم من مرقدي هذا، ولن أتزحزح بعد أن ارتحت أخيراً!

تصفع خدها بخفة، تكمل حديثها مع نفسها بصوت أعلى:

- يا لي من مجنونة، فأنا لا أخاطب إلا نفسي، فأنا أعرف تكوين هذه الكائنات المزعجة والبغيضة، فهم يهوون إزعاجي وزحزحة هدوئي!

اختفى الرنين، وصلتها أصواتهم العالية من وراء الباب وهم يطرقونه:

- أمل، هل نمتِ؟!

- أمل، أسرعي وافتحي الباب فلقد أهلكني الحر!

- يا فقمة، أنا جائع!

- أمل، سأكسر الباب على رأسكِ، افتحي الباب حتى لو كنت ميتة لا قدر الله!

لم يقتصر الأمر على هذا فقط، إنما وصل إلى طرق الباب بكل قوة وعنف، بعصبيةٍ رمت اللحاف عنها، لمّت شعرها ووضعت الحجاب عليه.

وقفت، مشت بخطوات سريعة إلى الباب، عقدت حاجبيها، نفخت أنفها، قبضت على المقبض، فتحته بعصبية، ظهرت أمامها ثلاثة وجوه مألوفة، كلها تسكن في الطوابق العلوية، ضمت ذراعيها إلى صدرها. حدقت إليهم بنظرات حانقة، تقدم أخوها إبراهيم الذي تبدو أمام بنيته العريضة ضئيلة الحجم. أزاحها عن طريقة، وعيناه السوداوان تخفيان مكراً وخبثاً تعرفه، أخفى ابتسامته، حك لحيته الكثيفة وهو يدخل إلى الداخل دون أن يعيرها أيّ اعتبار!

عبست وعيناها تضيقان، فتحت فمها لتصرخ عليه ولكنها توقفت عندما تقدم عمها راشد الذي يشبه بهيئته هيئة الآخر، تحدث إليها لتبتلع صرختها:

- أمل، إنني أتوق لأكل طعام من صنع منزلي، فأنتِ تعرفين أنني أفتقد طعام أمي بشدة!

أكمل طريقه إلى الداخل متجاهلاً نظراتها، كتمت غيظها، رفعت عينيها إلى الأخير، فوقع نظرها على ابن عمها أحمد الذي كان أصغر من في المجموعة، وأطولهم وأضخمهم بنية، ابتسم ابتسامة واسعة أخفت ملامح وجهه الحادة من شدة اتساعها، قال بمرح:

- أمل، لقد خفت من تأخركِ لفتح الباب، لأنني ظننت أنكِ نمتِ قبل أن تطعمينا!

لم تستطع الابتسام بسبب نكتته السخيفة، ولم تعبس بالمقابل إنما أشارت إلى الداخل وهي تدعوه للدخول:

- تفضل مع بقية القطيع الجائع، الذي وصل أخيراً إلى المرعى المطلوب!

حسناً... شقتها الصغيرة التي تضم غرفتين إلى جانب المطبخ والصالة، لم تكن مرتبة بصورة لائقة لاستقبال الضيوف، ولكن هؤلاء الضيوف أمرهم مختلف، فهم يعيثون الفساد في أيّ مكان يتواجدون فيه، ويزيدون من مصيبتها عندما تفكر بمقدار ما ينتظرها من تنظيف وترتيب.

بعد أن دخل أحمد، أغلقت الباب وراءها، وقبل أن تلتفت إليهم أحست بالمصائب التي حدثت خلفها من أصوات ضحكاتهم وحركاتهم الصاخبة، التفتت بسرعة، أغلقت عينيها في غضب، جرت

خطواتها المتعبة إليهم وهي تسبهم في داخلها!

فما أسرع ما استلقى كل واحد منهم على أريكته. وبدأوا بأكل المكسرات والحلويات التي كانت تخبئها تحت الطاولة لوقت الحاجة.

تكلم عمها راشد الجالس على الأريكة البيضاء يقلب في قنوات التلفاز:

- أمل، أريد سلطة خضار فيها الكثير من دبس الرمان.

أسرعت بخطواتها متجاهلة حديثه. كانت تقسم في داخلها إنها ستدخل إلى غرفتها وتغلق عليها الباب بالمفتاح، ومهما طرقوا لن تفتح لهم، ولو كسروا الباب على رأسها!

قفزت بخطواتها، رفعت طرفي قميصها الأزرق الطويل، ظهر بنطالها الأسود، كانت تتصنع الخفة وكأنها سارق ماهر ولكنها على العكس تماماً. هربت ناحية باب غرفتها، موزعة ابتسامات مصطنعة عليهم. وقبل أن تصل إلى الباب وتلمس مقبضهُ. وفي لحظة مباغتة، قفز إبراهيم عليها، جر طرف حجابها من الخلف ما جعلها تفقد توازنها وتسقط إلى الوراء بحركة بهلوانية. وانفجرت ضحكاتهم العالية، طوق إبراهيم عنقها بذراعه وضحكته ترن في أذنها وهو يقول:

- أمل، إنكِ مكشوفة ولن تتغيري أبداً!

تضع كفيها على ذراعه، ووجهها محمر من الغضب، وبحركة لم يتوقعها تكشف عن أسنانها، تعض ذراعه، يمسك رأسها يجره، يحاول نزعها عنه ويصرخ:

- ابتعدي يا مجنونة، لقد كنت أمزح معكِ!

تزيد من قوة عضها، ترتفع يدها إلى يده الممسكة بحجابها، تقول بصوت غير واضح:

- ابتعد عني أولاً، أو أكلت من لحمك.

بعد مرور ربع ساعة، تقف في المطبخ بعد أن انتهت من صنع طبق من الأرز مع صلصلة طماطم حارة، وطبق كبير من السلطة بعد أن أخذت منهم وعداً بغسل الأطباق في النهاية.

إخوتها وأعمامها وأبناؤهم من عائلة الأطباء، فمعظم عائلتهم من الأطباء، بالإضافة إلى امتلاكهم مستشفى خاصاً ومراكز مرموقة في المستشفيات الحكومية، وهذه العمارة السكنية التي تسكنها ملك لعائلتها ويسكنها أكثرهم لأنهم ليسوا من سكان المدينة، إنما سكان قرية تبعد عن المدينة مئة كيلومتر.

بعد الكثير من المشاجرات والضحك على الأمور التافهة وهو الأمر الذي أبعد النوم عنها وجعلها شخصاً نشيطاً، هكذا هم مع كل ما يفعلونه بها من أمور بغيضة ومحاولة إغضابها وإزعاج هدوئها، اجتماعهم معها على طاولة الطعام في بعض الأيام يجعلها تشعر بالراحة والسكينة والحنين إلى عائلتها واجتماعاتهم التي تحضرها في الإجازات التي لا ترى فيها جميع أفراد أسرتها بسبب مشاغل الحياة، فكم تشتاق إلى تلك المائدة التي كانت تجمعهم في الماضي!

قبل أن يهموا بالذهاب، اقترب منها إبراهيم وعلى شفتيه ابتسامة حنون، أمسك رأسها يحتضنه ويقربه من صدره. طبع قبلة سريعة وكأنه يعتذر بها عما فعله لها.

وكأن شيئاً لم يحدث، أبعدت رأسه عنها ضاحكة، ومن ثم وضعت يديها خلف ظهره تحثه على الذهاب. أخوها إبراهيم هو الولد الثاني في العائلة مع أخيها هاني بين سبع فتيات، إبراهيم بعكس هاني، فهاني الولد الأول وهو شخص هادئ وحنون، أما إبراهيم فهو الولد المدلل مفتعل المشكلات والذي أتى بعد ثلاث فتيات.

بعد أن ودعتهم وذهبوا بالقوة، أغلقت الباب وهي تشعر أنها نشيطة. ولكن ما إن رأت وضع غرفة الجلوس من بعد ذهابهم حتى تبدل كل ذلك النشاط إلى كسل شديد.

تتناثر على الطاولة الزجاجية أكواب العصير وبقايا الطعام، والبقايا الأخرى متناثرة على الأرضية، أما الأرائك فكانت في حالة فوضوية وكل شيء فيها مقلوب. وللأسف كان وضع المطبخ أشد فوضوية، فالصحون لم تغسل جيداً والأرضية والأسطح موسخة ولم تنظف، فهذه عاقبة من يعتمد عليهم دون مراقبة!

تركت كل شيء كما هو، لأنها قررت الاتصال غداً بخدمة خادمات الساعات من أجل التنظيف، لأنها تحتاج الآن لأخذ قسط من الراحة فقط.

همت بالاستلقاء على سريرها والهاتف بيدها، قررت مشاهدة أحد الأفلام، ولكن ارتفع صوت دق الجرس ثانية!

كان الرنين متواصلاً ومزعجاً ويشبه تصرفات إبراهيم، ولكنه تغير ليصبح دقاً عنيفاً على الباب جعلها تقفز مصعوقة. تسرع ناحيته، تنقل بصرها إلى كل ركن لعلها تجد شيئاً قد نسوه قبل ذهابهم، ولأن مزاجها الذي تعكر لا يسمح لها بإدخالهم بعد هذا التصرف.

فتحت الباب بقوة، كادت تتكلم بصوتٍ عالٍ، ولكن الكلمات توقفت قبل أن تخرج، وبقي فمها مفتوحاً على اتساعه، قبل أن يغلق من تلقاء نفسه!

رسمت ابتسامة مصدومة وعيناها مفتوحتان من الارتباك، التقت نظراتها بنظرات أمها التي تقف أمامها بقامتها التي تقصرها كثيراً، وجسمها الممتلئ، ووجهها الفاتح الذي برزت عليه خدودها المتوردة لتخفي ملامحها الحادة التي لا تشبه أمل إطلاقاً. كانت عيناها البنيتان الصغيرتان جادتين كعادتهما، أما فمها فكان كالخط معبراً عن صرامة صاحبته.

اقتربت منها سريعاً متداركة الأمر، قبلتها على خديها بينما احتضنت كتفيها، قالت بصوت مضطرب:

- مرحباً أمي، ما الذي أتى بكِ في هذا الوقت المتأخر!

وكما توقعت فسرعان ما إن أبعدتها عن طريقها داخلة بخطوات سريعة تاركةً أمل ورائها:

- جئت من أجل من يا حسرة؟ طبعاً من أجل أبنائي الذين آخر ما يفكرون به هو الاتصال بي، جئت في هذا الوقت لكي أرى الأوضاع على حقيقتها. وأين أخوكِ؟ أليس هنا معكِ؟ لقد أخبرني أنه هنا منذ ربع ساعة! يا حسرتي على تلك التربية التي ذهبت في مهب الريح، لقد نسي أن لديه أماً يحترق قلبها عليه شوقاً.

لان قلبها مع كلمات أمها التي أخرجتها شاكية، فحاولت الحديث مخففة من إحساسها بالذنب تجاه غفلتها في بعض المرات عن السؤال عنها:

- آسفة يا أمي، لقد انشغلت...

وقبل أن تكمل بقية كلماتها قاطعتها أمها بحدة:

- كفي عن الحديث الآن، واحملي الأكياس التي عند الباب إلى الداخل.

أحست للحظات أن كلمات أمها جرحتها جرحاً غائراً، ولكن عقلها توقف عن التفكير للحظة، وهي تشعر أن مصيبة سوف تحل على رأسها الآن!

تصلبت عند الباب، يداها تحملان الأكياس البيضاء الثقيلة، تسمع سباب أمها وصياحها وكلماتها الغاضبة والصريحة:

- يا إلهي ما هذه المزبلة، هل يعيش البشر في مكان كهذا! كيف لكِ أن تكوني بهذا الكسل والقذارة!

هي تفضل في مثل هذه الظروف الهرب من المشكلة، ولو أنها تستطيع لفعلت ذلك دون تردد!

لأن مبرراتها لن تفيدها في موقفها هذا، ولا حتى توسلاتها، فما إن ترى أمها الأشياء بعينيها حتى تكذب ما تسمعه أذناها!

لم تكن تشعر بذلك الكم الهائل من التعب قبل أن تحضر أمها، لأنها كانت مستعدة لمشاهدة أحد الأفلام أو قراءة رواية طوال الليل.

ولكنها الآن تشعر بالتعب، والحاجة الملحة للنوم، ووالدتها التي تشاركها في التنظيف، لم تكن لتجعل الأمور تمر بهدوء، فهي لا تريد رؤية ذرة غبار واحدة في المكان، فكيف بهذه التراكمات التي مرت عليها أسابيع!

فرغتا من العمل الشاق بعد فترة طويلة كانت فيها أمل تتذمر في كل حين بصوت مسموع لعل أمها ترأف بحالها!

ولكنها لم تكن لترأف بحالها، إنما رمتها بإحدى الملاعق، وتحمد الله أنها لم تصبها.

استرخت أخيراً على الأريكة، أسبلت أهدابها، تنصت إلى صوت تحركات أمها في المطبخ، تفتح الأدراج تضع بعض الأغراض فيها وتغلقها، تصلها خطوات حذائها المتحركة على البلاط.

تفتح باب الثلاجة، تقول مستنكرة:

- يا إلهي! لا أعلم كيف تعيشين يومكِ؟ إنني لا أرى زجاجة حليب واحدة هنا!

تنقلب على طرفها، تحرك رأسها بالإيجاب مجيبة عليها وكأنها تراها:

- على الماء بالتأكيد، في الحقيقة كنت أريد التبضع منذ أيام، ولكنني أجلت الأمر بسبب انشغالي بالعمل!

وما يزيد من انشغالها ويوترها في هذه الأيام غير عامر، من بعد أن أضمر لها الشر، وهو يحاول دهسها في كل فرصة سانحة.

إنها تشعر بأنه يحاول التقليل من شأنها وتجاهلها بشكل علني، لأن ما اقترفتهُ في ذلك اليوم، كان من أوقح الأفعال التي قامت بها!

لم ترد أمها عليها، وكأنها لم تسمعها من الأساس!

بعد مدة قصيرة وصلها صوت أمها الذي اقترب منها:

- منشغلة!!

ضحكت ضحكة قصيرة مستهزئة، مضيفة بلهجة ساخرة:

- لا أرى أيّ أطفال يخربون المكان أو يحتاجون إلى التبديل أو الإطعام، أو زوجا متذمرا يعود في المساء طالباً للراحة ومعدداً قائمة طلباته. إنما أرى فتاة مدللة تطالب بالراحة، وتظن أنها أكثر الناس انشغالاً.

اعتدلت جالسة، أمسكت شعرها، جمعته في ربطة سريعة، بعد أن شعرت باقترابها منها.

حسناً.. يجب عليها الحذر عند قول أي كلمة، لأنها ترجع عليها بصواريخ غازية لا تعلم متى سوف تصيبها!

جلست والدتها أمامها على الأريكة البيضاء، ربتت بيديها على ثوبها البني، عدلت حجابها الأسود على رأسها مخفية خصلات شعرها الناعمة السوداء الهاربة من تحته. لم تبتسم وإنما قالت

وملامحها ما زالت تحمل الصرامة نفسها التي جاءت بها:

- لا أعلم متى سوف تتحملين المسؤولية بشكل جاد، أو توافقين على الزواج قبل أن تتخطي سن العنوسة، لأن حالكِ لا يعجبني!

عقدت حاجبيها في ضيق واستنكار لتعيد جملتها:

- قبل أن أتخطى سن العنوسة!

والدتها لا تكف عن قولها لها مراراً، لتذكرها بعدد المتقدمين إليها الذين ترفضهم لعدة أسباب لا تراها والدتها عذراً يحتاج للرفض!

فكلهم لا يناسبونها، فبعضهم في مؤهلاتهم والبعض الآخر في دينهم وأخلاقهم.

* * *

بعد الخوض في أحاديث كثيرة منها الإيجابي ومنها السلبي، وبعد نصائح والدتها غير المنتهية. وقفتا أمام سيارتها المركونة أمام العمارة السكنية، احتضنتها أمام الباب المفتوح وأضواء الشارع الصفراء. مسحت والدتها على وجهها في محاولة لحبس دموعها، قالت مودعة:

- أستودعك الله يا ابنتي، كلي جيداً واهتمي بصحتك، فالعمل لن يهرب، لا تهدري صحتك على حسابه.

أحاطت أمل كتفيها تشد عليها مجيبة:

- إن شاء الله، لا تقلقي عليّ، فأنتِ تعلمين أنني آكل الأخضر واليابس، وأهم الأشياء عندي هي الطعام والنوم.

ابتعدت عنها سريعاً، صغرت عيناها، زينت شفتيها ابتسامة خفيفة، ضربت كتفها قبل أن تهم بركوب سيارتها:

- إذاً لا خوف عليكِ، لقد تأخرت يا ابنتي ووالدكِ ينتظرني، ولا تنسي أخاكِ أطعميه جيداً.

ابتسمت أمل بحب، رفعت يدها مودعة أمها التي انطلقت سيارتها الحمراء بعيداً.

تثاءبت بكسل، سحبت خطواتها متجهة نحو البوابة، فكرت بهذا اليوم الطويل وبزيارة والدتها المفاجئة التي هي من صفاتها المعتادة. زيارة والدتها لها أعطت لنفسها شعوراً بالطمأنينة والحب. صحيح أن والدتها تبدو صارمة ولكنها حنون وتملك قلباً طيباً، أما هي فتشتاق إلى عائلتها بشدة، وتنتظر اللحظة التي تنهي بها دراستها لكي تعود إلى قريتها.

توقفت خطوات حذائها الأبيض للحظة، عقدت حاجبيها في استغراب. إنها تسمع صوت أنين قريب منها!.. استدارت إلى الخلف فتوقف الأنين، نظرت إلى الشارع الخالي الذي أمامها، وإلى الحديقة شبه المظلمة وراءه، والتي لم يكن فيها أحد!

توهمت الأمر!

فلا يمكن أن يحصل ذلك!

لا يمكن أن يكون هناك صوت شخص.

من الممكن أن يكون مواء قطة ضالة!

وقبل أن تحرك خطواتها ثانية، عاد الصوت ولكن كان أقوى عن ذي قبل!

اقشعر جسمها، تلفتت يمنة ويسرة برعب، تحاول تحديد مكان الصوت!

في اليمين كان الشارع يمتد بين مساحة زراعية شبه مضيئة. بينما في الجهة اليسرى التي هي الأقرب إليها، كانت تصطف المباني والمحلات بعضها وراء بعض، والأضواء شبه ما تكون مطفأة في بعضها.

تدفع خطواتها إلى الأمام، تمشي بهدوء على الرصيف، لعلها تلتقط ذلك الصوت الذي يأتي ويختفي، كان أنيناً رقيقاً معذباً، ترتفع وتيرته كلما تقدمت إلى الأمام!

تمسك طرف ملابسها، تشد عليها بسبب خفقان قلبها السريع.

كانت تتمنى أن تكون قطة، أو مجرد تخيلات لا حقيقة لها!

ولكن تلاشى كل شيء، انكمش قلبها تحت أضلعها من الهلع، عندما وقعت عيناها على تلك الزاوية شبه المظلمة القريبة منها.

في البداية وعند حد الجدار الذي وقعت عليه بقعة ضوء خفيفة، ظهرت قدمان صغيرتان مغبرتان، ومع كل خطوة تتقدم فيها بحذر وجنون ينكشف ذلك الجسد، تنكشف الرجلان إلى الركب، اللون الرمادي يغطي معظمهما ويظهر الثوب الذي طُمست ألوانه والممزق معهما، وهناك لون أشد ظلمة منه، ينتشر بكثرة على الجلد.

لم تفكر للحظة بالتراجع أو الهرب، إنما ركضت إلى ذلك الاتجاه، بينما أضلعها ما زالت تعتصر قلبها، وأنفاسها تلهث من هول المفاجأة!

ووصلت عند تلك الزاوية، توقفت مع انكشاف كل أجزاء ذلك الجسد، وهالها ما رأتهُ!

جسم فتاة صغيرة وكأنه تلقى أشنع أنواع العنف. شعر مغبر وممزق، ووجه اختفت ملامحه وراء اللون الرمادي والدماء، يدان عاريتان تحويان الكثير من الخدوش، وثياب رثة ممزقة تكشف الكثير.

جلست عندها مرتعشة، وبسرعة قاست نبضها، فتحت عينيها المغمضتين، حدثتها بصوت مرتجف:

- هيا! يا فتاة، استيقظي!

عندما لم تجد ما يشير إلى إصابة في أعضائها من بعد فحصها بشكل كامل إلا ارتفاع درجة حرارتها، عاد أنينها، تجعدت خطوط عينيها المغمضتين، تحركت شفتاها المتشققتان مخرجة بعض الأنفاس المخنوقة.

وضعت رأسها في حجرها، وشعور بالخوف يغزوها، مسحت عليه، حدثتها ثانية:

- استيقظي، هل تستطيعين الوقوف سآخذكِ معي!

لم تجبها!

إنما انتفضت قليلاً بعد أن فتحت عينيها المحمرتين وشاهدتها.

حاولت إبعاد رأسها عن الغريبة التي تراها، فأمسكتها أمل من كتفيها قائلة:

- لا تقلقي أنا طبيبة، ولن أؤذيكِ.. سآخذكِ معي وأعالجكِ، فحرارتكِ مرتفعة، وجروحكِ كثيرة.

* * *

قضوا يومين طويلين من البحث دون جدوى، يومين شاقين لم يذق فيهما طعماً للراحة أو النوم، وانقطع تواصله مع علي منذ تلك المكالمة.

عاد إلى المنزل بعد محاولات عديدة من زملائه بأخذ قسط من الراحة، ولكنهم لم يعلموا أنه فقد الأمل ووصل إلى مرحلة اليأس، وأنه بدأ يؤمن أنه لن يجدها نهائياً.

جلس لمدة طويلة في السيارة قبل أن يخرج منها، كان الليل قد أسدل ستاره على المنطقة ليخفي ملامحها، والأضواء الصفراء تنتشر بشكل متفرق فوق المنازل عندما خرج من السيارة، والظلام ينتشر بينها، ويتسرب إلى داخله.

مشى بخطوات بطيئة متصلبة إلى أن دخل إلى أسوار المنزل.. حلقه جاف، وعيناه حارقتان يحاول فتحهما بصعوبة بسبب الصداع والتعب الذي يشعر به، يضع يديه على رأسه العاري، يمسده، يكمل خطواته في فناء المنزل بين الأنوار الخافتة والأشجار التي انتشرت رائحة أوراقها وأزهارها لتزكم أنفه. يدخل إلى داخل المنزل المظلم، يمشي في الصالة، يتوجه نحو الممر، يمر بين الغرف، يقف عند نهايته ينظر إلى غرفة ترفة التي أغلق بابها، يفتحها.. يدخل إلى الظلام الذي هي فيه، يجلس على سريرها، يلمس لحافها المرتب، يستلقي عليه لمدة طويلة يحاول فيها أخذ أكبر قدر من رائحتها، يتنفس ببطء، تهرب دمعة حزينة من عينه، ترثي حاله، تجعله يرى نفسه ضعيفاً جداً لأنه لم يقدر على حمايتها، يختنق بالغصة، ينقبض قلبه كلما تذكر صورتها. تطوف به كل ذكرياته معها، تدللها عليه، اهتمامها به، وابتسامتها الجميلة التي توجهها إليه كلما رأته.

يلعن نفسه، لأنه لم يقدر تلك السعادة حق قدرها وهي معه، ولم يعلم أنه سيفقدها بهذه سهولة!

كان يتهرب دائماً منها، يصدها ويحاول اختصار اللحظات معها بسبب عقدة الذنب، ولم يعتذر منها بصدق عما فعله، ولم يعوضها عن شيء!

وعندما فقدها، أصبح يريد فعل كل شيءٍ لم يقدر على فعله سابقاً.. يريد إيجادها، لا يريد فقدان الأمل، لا يستطيع تحمل ذلك، لأنه لا يحتمل، التفكير فيه قاتل!

بعد فترة طويلة من الاستلقاء المليء بالمرارة والندم، خرج من غرفتها بخطى بطيئة في الظلام، توقف في الصالة المضاءة بإضاءة خفيفة وعيناه تتوجهان نحو غرفة أمه التي تقابل غرفته. خطرت على باله، فهو لم يحدثها منذ العصر، بجانب أن مكالمتهما الأخيرة المختصرة اختصرت الكلمات والزمن، بكلمات اعتادها منذ اختطاف ترفة.

تألم داخله، بل إنه زجر نفسه، لأنه أهملها، ونسي سؤالها عن احتياجاتها منذ أيام!

تقدمت خطواته المرهقة تجاه غرفتها، حاول طرد كل المشاعر السلبية واستبدالها بالإيجابية وخلق وجه مبتهج لها.

طرق على الباب عدة طرقات قبل أن يدخل إلى غرفتها شبه المظلمة إلا من مصباح صغير ذي إنارة خافتة، سقط بصره أولاً على سريرها الفارغ قبل أن ينتقل إلى أمه الجالسة في الأسفل ونور المصباح يرسم ظلها بجانبها.

كانت أمه ترتدي جلباب صلاتها الأبيض، وتصلي في خشوع فوق سجادتها الحمراء.

حثّ خطاهُ ناحيتها، جلس بجوارها، طوى ساقيه ووضع كفيه على ركبتيه، ينتظرها أن تفرغ.

تسرب النوم إلى جفنيه في هذه الأجواء الهادئة. قاوم بصعوبة السقوط فيه، مسح على وجهه وعقدة حاجبيه تزداد ضيقاً. الحزن يكتم على صدره كلما تذكرها، يفتح أزرار قميصه من الأعلى، يشعر بثقل الهم يزداد على صدره. يخرج نفساً مخنوقاً وهو يشعر بيد أمه الحانية على كتفه.

ببطء ينخفض رأسه، يعتدل جسمه، يضع رأسه في حجرها، ليقابل وجهه المهموم وجه أمه الحنون. نظرت إليه وعيناها تخبئان مشاعر الحزن. ارتفعت زاويتا شفتيها مظهرة خطوط وجهها.. تمسح على رأسه، تدخل أصابعها في شعره كعادتها القديمة التي افتقدها ويحتاجها في هذه اللحظة. أغمض عينيه، ظهر الألم على وجهه المرهق، وضعت يديها على عينيه، قلبها يتألم على حاله ويتقطع على مصير ترفة، همست بصوت مخنوق:

- نم يا بُني، لعل نومك يكون خيراً، فالغد أفضل بإذن الله.

المعانقة الخامسة

بعد مرور شهرين

في علبتي طعام وزعت كلاًّ من الكعك والبسكويت اللذين صنعتهما بالأمس، فصنع هذين الطبقين يعد إنجازاً بالنسبة إليها، بل هو قمة الإنجاز بسبب طعمهما اللذيذ الذي أتقنتهُ هذه المرة. وضعت على الطاولة إبريق الشاي بالحليب الذي أصبح صنعه عادة اكتسبتها مؤخراً.

عادت إلى المطبخ بعد أن بدلت ملابسها، أصدرت شهقة وهي تسمع صوت انسكاب الماء وزج الصحون. أسرعت إليها وقالت محرجة:

- ترفة، أرجوكِ لا تجعليني أشعر بالإحراج، ما هكذا تكون الأمور! أنا أوسخ وأنتِ تغسلين!

تضع أمل كفها على منتصف صدرها، تلتفت ترفة إليه بوجهها الطفولي وشعرها القصير يطوق جانبيه:

- إنكِ تشعرينني بالذنب وكأنني مجرمة أقوم باستغلالكِ، أعرف أنني مهملة قليلاً..

أضافت مبتسمة وهي ترى شبح ابتسامة نادراً ما تظهر من ترفة:

- وأعترف أنني كسولة بسبب انشغالي، وأعلم أيضاً أنني أحب الجلوس والأكل أكثر.. ولكن يجب عليكِ أن لا تقومي بعملي لأنني سأحاول فعله مهما كلف الأمر من تعب!

رددت كلمتها الأخيرة بنزق... الأعمال المنزلية هي عدوتها اللدود وبوجود ترفة حاولت بذل جهدها فيها.

ازدادت ابتسامة ترفة اتساعاً، احمر أنفها الصغير مجيبة وقد برق لون عينيها العسليتين:

- هذا أقل شيء أفعله من أجلكِ على كل ما قدمته لي، والذي ما زلتِ تقدمينه لي.

شعرت بالخجل، بادلتها الابتسامة، ربتت على ظهرها قائلة لها بصدق حاولت إخراجه من أعماقها:

- منذ ذلك اليوم وأنا اعتبركِ أختي، فلا داعي للمجاملات فيما بيننا.

* * *

ينفتح باب المصعد، تمشي مسرعة، تحمل حقيبتين ثقيلتين على كتفيها.

تركب سيارتها البيضاء بعد وضع الحقائب فيها وتشغلها.

تمضي دقائق قليلة قبل أن تنطلق إلى الشارع العام، تبتسم، تختفي ابتسامتها في اللحظة التالية. تتذكر تلك الليلة التي وجدت ترفة فيها. كانت ليلة عصيبة لأنها باتت معها طوال الليل، حاولت أخذها إلى المستشفى بسبب الحمى وجروحها الكثيرة، ولكن ترفة ترجتها بأن لا تأخذها وأن تبقيها لديها، بكت كثيراً ليلتها، واستفرغت كل ما شربته وقتها، ولكنها استعادت نصف صحتها واختفت الحمى في اليوم التالي.

كانت حذرة مع أمل عندما أفصحت لها عن يُتمها، وعن أنها كانت تسكن مع عائلة تبنتها وهي صغيرة، أخبرتها بأنها لا تريد العودة عند من رباها، لأنها تعذبت كثيراً، والآن هي حائرة لا تعرف إلى أين تذهب، لا تعرف لها مستقراً!

وفي الحال عرضت أمل عليها البقاء لديها إلى أن تُحل مشكلاتها.. فلا مانع لديها من استضافتها. ترددت ترفة قليلاً ولكنها وافقت في النهاية.. لم تطرح عليها أية أسئلة أخرى، مع أنها تحترق لمعرفة كل ما لديها، ولكنها فضلت أن تعطيها الراحة لعلها تخبرها في النهاية، وما زالت إلى الآن بعيدة عنها ومنغلقة بعض الشيء.

إلى جانب أن وجود ترفة معها أعطى لحياتها جانباً مشرقاً آخر، تشعر بالحيوية والسعادة، لأنها كانت تتمنى لو تكون لها رفيقة سكن تشاركها خلوتها وغربتها، وهذا أحد الأسباب البسيطة

لجعلها تسكن معها بالإضافة إلى ظروفها التي أحزنتها.

وصلت بعد فترة قصيرة إلى المستشفى، فالمسافة الفاصلة بينه وبين مكان إقامتها كانت خمسة كيلومترات. ترجلت من سيارتها وشمس الصباح الدافئة تسطع على البلاط الأبيض أمام المستشفى، وعلى مسطحات المياه التي خلّفها مطر البارحة.

مشت إلى الساحة المؤدية إلى المستشفى الحكومي الذي تتدرب فيه بالإضافة إلى أن المدير هو عمها خالد، وبعض أقربائها يعملون فيه بمن فيهم عمها راشد.

بعد أخذها في جولة على بعض الحجرات في المستشفى وزيارة بعض المرضى، ومعاينة آخرين. جلست في وقت الاستراحة تتجاذب أطراف الحديث مع صديقتها سلوى في الغرفة المخصصة للطبيبات. همت بالوقوف حاملة حقيبة الطعام معها مقاطعة حديثهما الذي يدور حول الطعام:

- هيا.. دعينا نذهب الآن!

انعقد ما بين حاجبي سلوى الرفيعين، وضيّقت عينيها البنيتين. رفعت أمل حاجبيها في ابتسامة مقصودة. رفعت الأخرى ذراعها، أشارت بسبابتها إلى وجه أمل قائلة:

- دعينا نتشاركه اليوم مع الفتيات فقط!

أعطتها أمل ظهرها ملوحة بيدها رفضاً.

كانتا تمشيان بخطوات سريعة بين ممرات المستشفى والجدران البيضاء والملونة الممتدة والأبواب الرمادية الكثيرة. تغلق سلوى أزرار قميصها الأبيض متحدثة بحدة:

- أعرف أن مقصدكِ ليس شريفاً، لأنكِ لم تفعلي مثل هذه الأمور من قبل!

تلتقي عينا أمل بعينيها الناعستين في التفاتة قصيرة وخطوات بطيئة، تبتسم في مكر فيحمر وجهها الأبيض، تهمس بعد ذلك الصراخ:

- أنتِ لم تتبرعي في حياتكِ لي بكوب شاي إضافي، بجانب أنكِ تصارعينني على آخر حبة من الحلويات لتظفري بها في النهاية!

حركت يديها بشكل مسرحي مضيفة في خبث، وهما تقفان أمام أحد الأبواب الخشبية الضخمة:

- هناك فريسة، فريسة تريدين الانقضاض عليها.

عبست.. حدقت إليها بنظرة خانقة، لاصقت ذراعها ذراع أمل أمام الباب المغلق، علا صوتها:

- لا أعلم كيف تفكرين بالضبط!... أقسم إنني لم أرَ شخصاً مجنوناً مثلكِ!.. لمَ اخترتِ شخصاً كهذا؟.. لمَ اختياراتكِ معوجة دائماً؟ بجانب أنه شخص لا يحتمل فإنه لا يهتم لأمركِ أيضاً!

بقوة وكزتها على خاصرتها، لتصمت ولا تفضحها بصوتها الذي يلعلع عالياً، همست وهي تقوم بفتح الباب:

- اصمتي الآن ودعينا ندخل، سنصفي الحساب فيما بيننا لاحقاً.

دخلتا إلى صالة الطعام، تصدر اللون الأبيض المساحة الشاسعة أمامهما، توزعت الطاولات والكراسي البيضاء أمامهما وانتشر القليل من الناس عليها. ظهر مطعمٌ خشبي في الزاوية بلونه البني المختلف. اتسعت ابتسامتها ونظراتها تسقط على طاولة صديقتيها وعلى الطاولة التي بجانبها، ترى بعض العيون تتوجه ناحيتها، بعضهم يبادلها الابتسامة، والبعض الآخر لا يهتم.

تتقدم بخطواتها ناحية بعض التجمعات التي تعرفها، تلقي السلام عليهم مكملة طريقها نحو هند وآمنة اللتين تجلسان في أول القاعة.

تسترق عيناها النظر إلى الطاولة الكبيرة المقابلة لهن التي تجمع عليها بعض الأطباء الرجال ومنهم عمها راشد.

رحبن بهما، فواحدة أمسكت يد أمل والأخرى اختطفت الحقيبة. جلسن حول الطاولة في حلقة دائرية كل واحدة تقابل الأخرى. سحبت أمل من هند التي تقابلها الحقيبة، قامت بفتحها وإخراج الأكواب والإبريق منها، اختطفت هند الإبريق من بين يديها، ووجهها المليء بمساحيق التجميل

يبتسم بمكر.. أشارت أمل بالرفض معيدة الإبريق إلى يديها.. تمسك بالأكواب الورقية، تسكب الشاي إلى المنتصف على أصوات التآمر وفرض الشروط.. توزع عليهن، تأتيها صيحات الاستنكار والتذمر.. آمنة التي تضع قدماً على الأخرى وأكثر فتيات المجموعة إزعاجاً بعد سلوى تضع كوبها أمام أمل.. تقول بعبوس:

- هيا اسكبي المزيد!

تومئ بالرفض وبشكل متكرر، تهمس:

- لا، لن يكون هناك المزيد.

تعيد آمنة كوبها إليها متذمرة:

- إن الإبريق ممتلئ، أفٍّ منكِ.. يا لك من بخيلة!

تزيد من حدة صوتها، ترفع حاجبيها ملمحة:

- نعم.. أعلم لمن تتركينه، تقصرين علينا لتعطيه وغيره الحصة الأكبر!

يتقرب وجهها القمحي منها، تهمس وعيناها اللوزيتان الواسعتان تلمعان:

- صدقيني لن يثني عليكِ، أو يهتم لأمركِ.. يا صديقتي، انظري إليه، إنه لا ينظر إليك حتى في كل مرة تقفين فيها أو يُعطيك الأوامر.. إنه الرجل الحديدي الخالي من المشاعر، إنه لا يشعر ولا يحس، يقولون إنه فاقد لجزء الإحساس في دماغه لسبب مجهول، حتى في أصعب الأوقات في العمل وأشد الحالات التي تأتيه هو لا يتزحزح ولا ترمش عيناه من أيّ منظر!

تصدر ضحكة مستهزئة من سلوى:

- إنها أمل يا أحبتي... انظرن يا فتيات، وهل تصدقن أنها قد تحب، لا يمكن أن يحصل هذا، إنه إعجاب من طرف واحد ككل مرة ترى فيها شخصاً وسيماً، أو غريب الأطوار!

تراهن آمنة وتقول بضحكة عالية:

- امنحيها أسبوعاً واحداً فقط، وستأتي بعد ذلك وشعرها ممشط..

لكزتها أمل ووجهها محمر وغاضب:

- أنتِ تغارين من شعري، لأنهُ لا يحتاج إلى تسريحة عصرية!

إنها تعلم بكل ما تقوله صديقاتها قبل أن يهمسن به، ولكنها لا تستطيع ردع نفسها عن لفت انتباهه، هناك قوة إصرار عظيمة تقبع في داخلها، تجرها إلى إثبات نفسها له بأي طريقة. ولا يمكنها تجاهل تلك المرات التي كانت فيها توزع ما تحضره عليه وعلى من حوله، كان الكل يشكرها ويطربها بكلمات الثناء إلا هو، إذ إنه في أول مرة قامت بها، وكان ذلك بعد حفلة صغيرة بين زميلاتها أحبت توزيع بعض الطعام في ذلك اليوم على الأطباء، وكان من بينهم عامر، الذي ترددت في البداية في تقديم شيء له. ولكنها وضعت الكوب مع صحن البسكويت على طاولة مكتبه المليء بالكتب، وكان هو منكباً على أوراقه وبيده قلم حبر. لم ينتبه لها إلا عندما قالت بصوت عالٍ خرج من دون قصد منها:

- تفضل..

فجأة سقط القلم من يده، ظهر وجهه من تحت شعره الأسود الكثيف، نظر إليها بوجه مصدوم، انتقل بصره إلى الكوب وإليها في توتر. توترت هي بفعل توتره، ولكنه مد يده ليأخذ الكوب في تردد هامساً لها بكلمة لم تسمعها جيداً.. ولكنها ظنتها كلمة شكر!.. بعد هذا الموقف تغير شيء ما في داخلها، مشاعرها ناحيته أصبحت مختلفة. كانت لا تراهُ إلا شخصاً معقداً متعالياً، وكريهاً بسبب تصرفاته معها وتجاهله لكل ما تقوم به.

تعلم أنها تتوهم الأمر، تزرع في نفسها أفكاراً قد تهوي بها أسفل سافلين، وتعلم أنها مجنونة لتخلق بذرة حب وتنميها على الأوهام! فهي لا تميل إلى شخص عامر، ولا تفضله أبداً!

حاولت إخفاء ذلك الإعجاب في داخلها ولكنها لم تستطع. كانت وبطريقة غير مقصودة تحاول لفت انتباهه بشكل واضح تراهُ بنفسها!

وجعلها ذلك ساخطة على ذاتها، تقسم أن تقتلع ذلك الإعجاب الحقير من قلبها وترميه في أقرب سلة قمامة!

وبعد كل تلك المحاولات التي حاولت فيها لفت انتباهه لم تحصل على ابتسامة واحدة منه، ولم يعطِ اهتمامها به أيّ اعتبار!

ولكن كان هناك اختلاف طفيف في تصرفاته الغاضبة والعابسة دوماً، لقد تغير كما تغير الكثيرون مثله بسبب تصرفاتها الودودة مع الجميع. لقد تغير ولكن إلى الأسوأ، وبدأ يعاملها بجفاف أكبر، من قبل كان يعتبرها جماداً، أما الآن فأصبحت شخصاً لا يرى، بات يعطيها التعليمات والمهام دون النظر إلى وجهها.

* * *

بعد أن خف التجمع حول طاولة الأطباء، وبقي راشد وبعض الرجال الذين يعرفونها، ومن تقدم لهم الشاي في كل مرة، ويطلبونه منها في بعض المرات، وعامر الجالس على مسافة أبعد منهم لوحده يُطالع حاسوبه المحمول.

حملت ما بيديها واتجهت ناحيتهم، وآمنة تلتصق بها.. أعطتها الحقيبة وحملت هي الإبريق مع الأكواب ووقفت قرب الطاولة الخشبية المصبوغة باللون الأبيض.

قالت بصوت مسموع قبل أن يشعروا بها:

- السلام عليكم!

التفتوا إليها جميعاً، أطلقوا صيحات الترحيب، فمعظمهم رجال في العقد الرابع من العمر أو أكبر، رفع عمها راشد رأسه نحوها، ابتسم مُرحباً، مد يده متلقفاً يدها الحرة.

قال أحدهم بابتسامة واسعة:

- مرحباً بأمل ابنة محمد، كيف حال أبيكِ؟ لقد كان رجلاً عبقرياً في عمله قبل أن يتقاعد ويترك مهنته.. ولكن أبناءه مثله ولا يقلون عنه كفاءة فأنتِ وإبراهيم خير مثال.

ابتسمت له شاكرة، شعرت بالإحراج بينما قدمت الأكواب إلى عمها الذي وزعها بالتساوي على الجالسين.

وصلتها أصواتهم الشاكرة والمادحة، قدمت طبق الحلويات معه.

قال الرجل نفسه الذي تحدث سابقاً:

- شكراً يا أمل على مبادرتكِ هذه، لقد أدمنا الشاي ونعتذر على تطفلنا الدائم عليكم.

حركت يدها في إحراج مجيبة:

- لا عليك، فأنا من أقدمه لكم وبطيب خاطر مني.

وقال آخر يجاوره وأصغر منه سناً وهو يأخذ رشفة صغيرة من كوبه:

- سلمت يداكِ يا أمل.

ابتسمت ممسكة بآخر كوب في يدها:

- عفواً.

تركتهم واتجهت خطواتها تجاههُ، كان جالساً على بعد خطوتين منها لوحده وأمامه جهاز حاسوبه. بكل هدوء وضعت الكوب الممتلئ بحرص كبير لكيلا ينسكب على الطاولة، ووضعت بجانبه صحن البسكويت والكعك.. وهمست:

- تفضل..

أحست بأن همسها كان غبياً ومحرجاً، ولكنها تفاجأت بصوته الهامس الذي سمعته جيداً، يقول دون أن يتحرك شيء من وجهه الجامد:

- شكراً.

كانت مفاجأة سارة بالنسبة إليها، لأن الصخرة قد تزحزحت أخيراً بعد طول انتظار، فهي لم تتوقع منه إلا تمتمة غير مسموعة ككل مرة أو صمت يدل على تجاهله لها.

أصدرت ضحكة مكتومة، وهي تظن أنه أخيراً خجل من نفسه، وأنه من غير الذوق أن يتجاهلها طويلاً!

* * *

كانت أصابعهُ تسير ببطء على لوحة الحاسوب، يضع الفاصلة، يحرك يده إلى الكوب الأبيض الذي بجانبه، يأخذ منه رشفة طويلة مستمتعاً، طعم الهيل والزعفران عميق وخفيف بالوقت نفسه.. أخذ رشفة أخيرة لتنتهي بعدها الرشفات.

بنظرة جانبية نقلها من الصحن الذي أخذ منه قطعة كعك، إلى أمل الجالسة على الطاولة المقابلة له، بوجهها المبتسم على الدوام كالبلهاء.

كلما رآها واختطف نظرة جانبية إليها، تنتابه حيرة كبيرة وكذلك كلما فعلت هي شيئاً جديداً أو غريباً عن عادة البشر الطبيعيين، إلى جانب التناقض الكبير في تصرفاتها. وها هي في الفترة الأخيرة تغير من تصرفاتها البغيضة وتتحول إلى شخص كريم ولطيف، وكأنها ابتلعت لسانها اللاذع المتهور لتخرج واحداً جديداً، وكأنها تحتاج للشهرة أكثر بسبب تصرفاتها هذه، فالكل يعرف من هي أمل ومن هم أهلها وأقرباؤها!

عند آخر قطعة من البسكويت وضع نقطة النهاية للبحث الذي يتكلم عن «علم الأورام وكيفية علاجها بطرق حديثة»، والذي أجرى فيه تجارب وأبحاثا كثيرة، وسافر إلى عدة دول لحضور مؤتمرات عديدة وللبحث في المكتبات بين الكتب والملفات، إلى أن شعر أنه ألمَّ بكل الجوانب وتوصل إلى عدة نتائج واستنتاجات لم يتوصل إليها أحد من قبل، أرضته وجعلته يثق بأنهُ الأفضل، ولن يأتي أحد بمثل ما أتى به في هذا المستشفى، بل في الدولة كلها.

وقف أمام باب خشبي منحوت، يده اليمنى تحمل ملفا أسود ممتلئا بالأوراق أما الأخرى فارتفعت لتدق الباب. دقة واحدة كانت كافية ليفتح الباب ويظهر أمامه جسد ضخم ووجه أسمر مألوف لا يطيقهُ!

توقف راشد الذي اتسعت عيناه لرؤيته وكأنه تفاجأ به لسبب مجهول، حاول رسم ابتسامة مصطنعة وهو يقول:

- أهلاً دكتور عامر... تفضل، واعذرني فأنا ذاهب.

سمح لهُ بالمرور من جانبه دون أن يضيف شيئاً على كلماته أو يضيف الآخر شيئا، فعلاقتهما ليست جيدة بشكل كافٍ لتبادل الأحاديث أو الابتسام، فالكره هو ما يتبادلانه، والندية دائمة

بينهما.

دخل إلى غرفة ترابية اللون، تحوي مكتبة سوداء واسعة مليئة بمختلف الكتب الملونة، يقع في آخر الغرفة مكتب بنفس اللون، يجلس عليه البروفيسور خالد الذي وضع نظارة طبية على عينيه، ينظر إلى شاشة الحاسوب أمامه وإلى صفحات أوراق تقلبها يداه.

أغلق الباب وراءه، تقدمت خطواته بثقة عالية، ألقى السلام عليه بوقار.

وقف خالد، ظهر رأسه الذي غلب عليه الشيب، وملامح وجهه الحنطية تحاول تركيز انتباهها على الداخل. مد يده ليتصافحا، يعود الآخر إلى مقعده، تظهر عقدة بين حاجبيه الكثيفين، تنظر عيناه إلى الحاسوب وإلى عامر وهو يدعوه للجلوس:

- مرحباً بك.. تفضل، لقد جئت في وقتك.

أبعد نظارته عن عينيه السوداوين وجُل اهتمامه منصب على الذي جلس مقابله.

حياه عامر، سأل عن حاله، ابتسم في وجهه تودداً واحتراماً، مد يده بالملف ووضعه أمامه.

اتسعت ابتسامة خالد، وانفرجت أساريره، هتف بفرحة:

- جيد جداً، بل ممتاز لقد أنهيتهُ في وقت قياسي!

رفع عامر حاجبيه، وأجاب بزهو:

- لم يكن شيئاً صعباً ولكنني بذلت جهداً مضاعفاً عليه، استكمالاً للذي ألقيت نظرة عليه سابقاً.

بينما هو يتحدث، كان خالد يتصفح الملف بشكل سريع، يهز رأسه، يتخطف نظرة إليه.. أغلقه بعد فترة قصيرة من التصفح، استقرت يده على لون غلافه الأسود بينما هو يردد كلمات الثناء بشكل مثير للريبة!

إنه لا يفوته الشعور بالمبالغة والمراوغة حتى لو كان البروفيسور خالد من أشد الأشخاص الذين قابلهم ذكاءً وحنكةً، فهو يعرف أحياناً ما يدور في عقله بسبب مبالغته في ردود أفعاله.

ما زالت يده على الملف، يدق بظفر سبابته عليه، يرفع يده الأخرى، يحك لحيته الخفيفة التي تخللتها الشعيرات البيضاء، يثبت نظراته التي حاول إلانة حدتها على الحاسوب قبل أن ينقلها إلى عامر بحركة بطيئة متحدثاً:

- دكتور عامر، لديّ موضوع أريد مناقشته معك، وهو يخص بحثك!

أضاف بابتسامة متصنعة:

- للأسف، تشابهت بحوثكما أنت والدكتور راشد، وأنا رأيت أن بحث راشد أفضل مضموناً وأوسع وهو المرشح الأول لهذه السنة، وأنت تعرف أن الترشيح واقع لراشد هذه السنة ليصبح بروفيسور، وإن شاء الله فسأرشحك أنا بنفسي للسنة القادمة وسأقدمك قبل الكل لأنك تستحق ذلك!

تجمد وجهه مع كلماته التي نطقتها شفتاه بسرعة غير مبالية، اشتعل وجهه من الغضب، وبسرعة استعاد توازنه ومسح كل التعابير عن وجهه. ببطء أمسك الملف الأسود بجانب يد خالد، بعد أن رأى تجاهله الكامل لمحتوى بحثه وتفوقه الواضح على راشد الذي يشهد به الجميع!

نعم، إنها الواسطة التي تأتي قبل المستحق أو الموهوب أو حتى المجتهد!

وضع قناع اللامبالاة على وجهه، عقد حاجبيه إلى أقصى درجة ممكنة تعبيراً عن مزاجه المتعكر، الذي لا يسع لكلمة وداع!

بسرعة وقوة سحب الملف من تحت يد البروفيسور خالد، هم بالوقوف، للحظة تفاجأ خالد، عقد حاجبيه باضطراب، تحدث وعيناه ترتفعان إلى عامر:

- دع بحثك لديّ في هذه الفترة!

أشار بالرفض بوجه جامد، قال ويده تخبئ الملف تحت ذراعه:

- أظن أنني أحتاجه في هذه الفترة!

ولاهُ ظهره من دون أن يلقي عليه نظرة أخيرة أو يودعهُ، مشى ببطء نحو الباب، أغلقه بهدوء. أطبق أسنانه من القهر، لأول مرة يكون سلوكه فظاً مع البروفيسور خالد، لأنه يكن لهُ فائق

الاحترام. ولأول مرة يظهر له خالد وجهه الآخر، أكان يود تزويد راشد شيئاً من أفكاره، أو نقل بعضها من بحثه!

هل يظن أنه سيسمح له بذلك! يبدو أنه لم يعرفهُ حق المعرفة بسبب سطحية العلاقة بينهما، إنه شخص لا يُستغل، إنما يَسْتغل!

لا يهم... لأنه قادر على إثبات نفسه بعدة وسائل أخرى، وسيُرى لاحقاً من هو الأفضل!

* * *

يسير عبر الصالة الكبيرة المؤدية إلى بوابة المستشفى بين العديد من الناس المختلفة أشكالهم وأعمالهم. يحمل حقيبته الجلدية السوداء على كتفه، ينفتح الباب الأتوماتيكي، يدخل الهواء البارد منه، يضرب بشرة وجهه الفاتحة. يدس يديه في جيبي معطفه الأسود الطويل، وقدماه تعبران البوابة متجهاً إلى ممر حجري طويل أنارته المصابيح وطوقته الحشائش من الجانبين، يقوده إلى خارج المستشفى.

يقف عند الرصيف خلف ممر المشاة، ترحل عيناه إلى الشارع الذي تمر عليه السيارات بسرعة متوسطة، وتعودان إلى مكانه الذي اكتظ بالسائرين. يتأخر خطوة إلى الوراء متضايقاً من الحشد. يتقدم مرة أخرى سائراً مع تحول إشارة المرور إلى اللون الأخضر. يتجه إلى السوبرماركت لشراء بعض الحاجيات الأساسية.

يدخل إلى شقته المظلمة، ينير أضواءها، تنكشف حجرة واحدة في الزاوية، يظهر المطبخ الخشبي الملتصق بالصالة الواسعة. يحث خطاه نحوه ويداه تحملان الأكياس القماشية، يضع نصف ما اشتراه في الثلاجة والباقي في الخزانة. يأخذ معه علبة عصير وفطيرة جبن. يجلس أمام الأريكة الخضراء على الأرض، تشاهد عيناه التلفاز المعلق على الحائط، يديره، ينتشر ضجيجه، تسطع ألوانه.

تسترخي اليد التي تحمل العصير على ركبته المثنية، تنعكس صورة ما يعرض على الشاشة على عدستيه. حاجباه معقودان في التفكير بعد أن فشل التلفاز في تشتيت انتباهه!

لا يريد التفكير في الأمر، والإحساس بالظلم!

وأن الفرصة قد ضاعت منه من محاولة واحدة فقط.

لأنه دائماً ما تكون كل محاولاتهُ ناجحة، ولأنه لم يفشل ولو لمرة واحدة في حياته. فهو لديه الكثير من الشهادات العلمية العالية، والزمالات المختلفة. ودائماً ما يتم الإشادة به، ويتم استدعاؤه متى استعصى الأمر في المستشفى، أو كان هناك عملية جراحية يحتاجها شخص مهم.

* * *

تستلقي على أريكة باللون الأبيض، تغمض عينيها على ضجيج التلفاز بينما تمتد يدها إلى الطاولة الزجاجية الشفافة، تلتقط جهاز الإرسال وتغلقه، يحل الهدوء ووجهها يقابل السقف. تغرق في أفكارها التي لم تهدأ منذ ذهاب أمل عنها، إنما لم تسكن منذ ذلك اليوم!

فجلوسها وحيدة يضرم نار الوجع في صدرها. يجعلها مضطربة لا تجد راحة في السكون.

الوضع يعجبها ولا يعجبها، تشعر بالراحة والأمان، ولكن داخلها مشوش!

تحس أنها عالة على أمل التي لا تقصر عليها بشيء.

ومن طيبة أمل وسخائها اشترت لها مجموعة من الملابس الجديدة وأشياء كثيرة، ومن فترة إلى آخرى تدس في يدها بعض النقود لكيلا يقصر عليها شيء، وعندما ترفضها كانت تخبئها في حقيبتها أو جيوب ملابسها.

وتجعلها تشعر بالامتنان والخجل منها، وعدم الراحة لأنها تتكئ عليها دون ثمن!

تفتح عينيها، تحدق إلى السقف الأبيض ثانية، تتقوس شفتاها حزناً.

في بعض المرات تحن إلى العودة، فالشوق يئن في داخلها إلى أمها ومنزلها، وإلى مدرستها وصديقاتها، إلى حياتها التي تركتها قسراً!

فكيف تعود وقد أخذت عهداً على نفسها، بأنها سوف تنساهم جميعاً بعد الذي حدث!

تمتد يدها للمرة الثانية إلى الطاولة الزجاجية، تلتقط الهاتف النقال. تجلس فتتساقط خصلات شعرها على جانبي وجهها الشاحب. تحبس دموعها، تنظر إلى الهاتف الأسود الذي احتضنته

أصابعها، تشغل شاشته، تضغط على رقم تحفظه عن ظهر قلب.

تتصل وقبل أن يرن، تلغي الاتصال..

ترتفع يدها إلى منتصف صدرها، تقبض على قماش ثوبها الأخضر فينكمش.

تشعر بالاضطراب والخوف من خوض هذه الخطوة. بيد مرتجفة عاودت الاتصال مرتين وثلاثاً وقبل أن يرن كانت تلغيه، وفي المرة الأخيرة تركته يرن وهي تمد يدها إلى علبة المناديل وتلتقط منديلاً منها.

تضع المنديل على أنفها وفمها، تكتم شهقة مخنوقة فرت منها.

بعد رنين طويل، أخذ منها جهداً كبيراً للصمود أمامه، فقلبها يتوق ويشتاق لذلك المكان الذي تركته وترك هو فيها فراغاً عميقاً!

رُفعت السماعة على صوت جعل المنديل يتجعد بين أصابعها.

- مرحباً!

أتاها الصوت ليضعفها، ويبعثر تلك القوة التي تمسكت بها طويلاً.

صوت تفتقده، تحن إلى أحضان صاحبته، تشتاق إلى رؤيتها والارتواء من بحر حنانها.

أنزلت الهاتف من أذنها، أغلقته... رمته بعيداً عنها.

وأمسكت بعلبة المناديل، أخرجت كمية كبيرة منها، غطت وجهها بها، مُجهشه في بكاء غزير.

لا تستطيع تحمل ذلك الألم الذي يعتصر صدرها، ويخنق أنفاسها.

تشتاق وبعنف إلى عائلتها التي افترقت عنها بطريقة مأساوية وغير عادلة.

فبعد معرفتها لحقيقة ذياب، وأنه قاتل والدها، وما فعله علي معها، جعلها تفقد ثقتها بمن حولها، فأعز الأشخاص على قلبها كذابون ومخادعون، ولا يهتمون بمشاعرها، فكيف لها أن تثق

بأحد بعد الآن!

تحتضن قدميها، رأسها يستريح على ركبتيها، وعقلها يتخبط بين أفكاره السوداوية، يرتفع بصرها إلى النافذة الكبيرة والمفتوحة التي تسللت منها أشعة الشمس، واهتزت ستائرها الذهبية الحريرية بفعل الهواء.

تركت قدميها، تقدمت على الأرضية الباردة، استندت إلى حافة النافذة والهواء يعبث بوشاحها الذي وضعته على شعرها بإهمال. عيناها تتجولان في المنطقة من الحديقة التي تقابلها إلى الأطفال الذين ترى أجسادهم الراكضة وتسمع أصواتهم العالية، تضع كفها على خدها محاولة طرد مشاعرها السلبية واستبدالها بالإيجابية.

في كل صباح، تفتح أمل النافذة قبل ذهابها إلى العمل، وتتركها من أول النهار إلى آخره مفتوحة تدخلها نسائم الهواء.

ولقد أخبرتها في أول مرة رأتها فيها تفتحها:

- لقد افتعلت الكثير من المشكلات بسبب إصراري على أخذ هذه الشقة من أحد أبناء عمومتي البغيضين، بسبب إطلالتها المميزة، حتى حقد عليّ الآخر وطالب بمبلغ مالي كتعويض!

رفعت أمل يديها مقبوضتين، وقالت ضاحكة:

- ولكن هيهات أن يحصل مني على ربع درهم، فلقد كان جزاؤه مقلباً مني ومن أخي.

منذ شهر وهي على هذه الحالة لا تغادر الشقة إلا بعد إصرار من أمل للخروج لتتمشيا في الحديقة أو إلى المقهى المجاور لأكل الكعك وشرب القهوة.

فهي ما زالت تعاني من حالتي الاكتئاب والخوف اللتين تقضّان مضجعها. ولكن تواجدها مع أمل، كان عزاءها الوحيد.

فلقد خفف عيشها معها من حدة حزنها وغربتها. فلولا أمل وطيبتها لكانت الآن في العراء لا تعرف إلى ما سيؤول إليه مصيرها الشائك!

فكيف لا تتغير نفسيتها وتقارب حياتها الاستقرار، وأمل تلونها بشخصيتها المرحة والسعيدة.

تترك النافذة، وقدماها تأخذانها إلى غرفة أمل أو الغرفة التي أصبحت غرفتهما المشتركة.

تبتسم ملتقطة قطعة من ملابس أمل المرمية على الأرض، تضعها في السلة. في كل يوم يكون حال الغرفة أسوأ من الأمس بسبب عشوائية أمل العجيبة.

تحث خطاها في غرفة عشبية اللون كبيرة تحوي سريرا خشبيا حديث الطراز، وطاولة زينة، ودولاب ملابس يسع أكثر من نصف الحائط، ولكنها فارغة تقريباً من الزينة، وإنما الأغراض مرمية في كل مكان!

وضعت على جسمها الذي استعاد القليل من وزنه في الآونة الأخيرة معطفها الرمادي، أغلقت أزراره الكثيرة فوق ثوبها الأخضر الطويل.

خبأت يديها في جيب معطفها وهي تعبر بوابة المبنى الزجاجية. تخرج إلى الشارع وأشعة الشمس تسقط عليها، تضع يدها فوق عينيها اللتين صغرتا كردة فعل طبيعية.

تمشي بخُطى بطيئة على الرصيف، وفي بعض المرات ترفع قدماً لتعبر درجة أو درجتين أو تنزلها.

قرب المقهى الذي تترددُ عليه مع أمل، ألقت نظرة جانبية سريعة إلى الرواق الضيق بين المبنيين وإلى حاوية القمامة التي تبعثرت حولها بعض النفايات، تلك الزاوية التي وجدتها أمل ملقاة فيها!

كتمت أنفاسها، رفعت إحدى يديها محدقة إلى أثر جرح طفيف عليها خلفته تلك الأيام.

غصة خنقتها للحظات قبل أن تتنفس بهدوء.

تسرع بخطواتها، تعبرها، تتخطى المقهى. تشد على المعطف تناشده الإغاثة.

تغمض عينيها، تضغط على أسنانها لكيلا تستسلم للخوف.

تشعر بالرعب عندما تتذكر كل ما حدث لها. كان هربها معجزة، تحمد الله عليها بشدة، تخيلت للحظات لو أن علي ما زال يبحث عنها! ويحاول إيجادها لكي ينتقم منها هو وأتباعه! لا.. لا يمكنها أن تتخيل أن يحدث لها مثل المرة السابقة، حتى لو وجدها فهي ستهرب وتهرب منه، ولن يجدها ذياب أو هو، لأنها قررت أنها سوف تنساهما إلى الأبد، وستبدأ حياة جديدة من دونهما!

خففت من سرعة مشيها، عدلت حجابها الكحلي على رأسها، وقفت عند المنطقة التي وصلت إليها من دون أن تحسب المسافة التي قطعتها.

كان الوقت عصراً والشارع الذي وصلت إليه يزدحم بالمارة، الذين جعلوها تمشي قرب أعمدة إنارة الشارع من التوتر وتبعد نظراتها إلى الأسفل كلما حدق إليها أحدهم.

تكمل سيرها على ضجيج السيارات السائرة على الشارع بجانبها، وعلى أصوات الناس وصراخ أطفالهم ونداء البائعين. تحدق إلى المتاجر تقرأ لوحاتها في الأعلى، تتأمل المعروضات التي في الواجهة، يقع بصرها على كل ورقة عُلّقت على واجهتها.

تسير أمامها امرأة بدينة الجسم، ترتدي ملابس رمادية فضفاضة، وبيدها الضخمة تمسك يد طفلتها الصغيرة ذات الضفيرتين اللوزيتين. تدخل المرأة إلى محل كبير ذي واجهة زجاجية شفافة، يعلق وراء زجاجها بعض الأزياء الخريفية والأحذية.

تدخل خلفها في تردد وجرأة، تعبر باب المتجر، تنقل بصرها حولها وكأنها تلقي نظرة على الملابس المعلقة والأحذية المصفوفة، تمسك قماش أحد الفساتين قبل أن تتحرك قدماها باتجاه صاحبة المتجر الجالسة على كرسيها الخشبي.

تقف أمام البائعة متوترة مترددة، ولكنها عزمت على المضي في الطريق الذي خططته لنفسها، فقالت بجرأة دون أن يطرف رمشها:

- مرحباً..

واختصرت كلماتها في جملة قصيرة:

- إذا سمحتِ، هل توجد لديكم وظيفة شاغرة؟

تتأملها البائعة باستصغار، تجيب بعد أن رمقتها بنظرة حادقة:

- لا...

لم تنتظر منها أيّ إجابة أخرى، إنما أولتها ظهرها، مشت ضاربة الأرض بحنق.

تشعر بوجهها يشتعل من الحرارة، وصدرها يضيق من الخيبة.

تخجل من نفسها وتغضب، لأنها طلبت العمل بهذه الطريقة، وكأنها تتسوّل!

من الجيد أنها رُفضت من البداية، لأنها تظن أن هذا العمل لا يناسبها ولا يروق لها!

تكمل سيرها على الرصيف بين العديد من الناس، تسترق النظر إليهم وإلى المحلات المجاورة ببعض الحيطة، وقد بلغ منها التوتر مبلغه.

متاجر للأطعمة وللوازم المنزلية والملابس، مطاعم وجبات سريعة، ومقاهٍ!

كلها تجعلها حائرة من الوقوف، وإعادة ذلك السؤال المخجل!

في لحظة تشعر أنها لا تريد القيام بهذه المهمة، إنما تريد العودة والتفكير في خطة جديدة للعمل وليس للجلوس، ولكن ما الذي ستقوم به وهي لا تمتلك شهادة، أو بالأصح هي لم تتخرج من المدرسة بعد!

تملّكها الإحباط، ضاق صدرها، ليس هذا ما تريده!

لا تريد فقدان ثقتها بنفسها، والتراجع من الخطوة الأولى.

وصلت إلى نهاية الرصيف، توقفت، استدارت إلى اليمين، توجهت إلى المحلات التي في الزاوية.

مشت قليلاً، تحدق إلى حذائها الرياضي الأبيض، وكأنها تركل شيئاً على الأرض.

أعادت يديها إلى جيب معطفها، وقد استبد بها الإحباط وفقدت أيّ رغبة في البحث أو السؤال.

جلست أمام بقالة على كرسي خشبي طويل تحت مظلة سوداء كبيرة يحركها الهواء الخفيف. يأتيها العامل، تطلب منه قنينة ماء.

تقوم من جلستها، تنظر إلى المحل المجاور، ترى منشوراً ورقياً عُلّق على نافذته المغطاة بستائر بيضاء تحجب ما بداخلها، تقرأ ما كتب على الورقة بتمهل «خياط بيت الأحلام يحتاج إلى أيادٍ عاملة نسائية، خبيرة وغير خبيرة، متعلمة، تستطيع قضاء وقت أقصاه ست ساعات يومياً»، وكُتب تحت الفقرة رقم هاتف المحل.

أخذها الحماس، لم تصدق ما تقرؤه لتعيد قراءته مرات ومرات.

كانت الخياطة أحد أحلامها التي لم تحققها بعد. ولأنها من هواة الرسم والفن وجدت أن هذا العمل أفضل من كل شيء آخر.

دب النشاط بحماس مضاعف في نفسها، لم تستطع الانتظار ولا التراجع، إنما أخرجت هاتفها الخلوي وبأصابع مرتجفة اتصلت بالرقم.

رن الهاتف عدة رنات متواصلة قبل أن يغلق، أعادت المحاولة وهي تشعر بانحسار حماسها واشتداد توترها!

أغلق مرة أخرى على صوت الرد الآلي!

أعادت النظر إلى الورقة لعلها تجد رقماً آخر غيره، ولكنها لم تجد!

اقتربت من المحل، حاولت النظر عبر النوافذ الزجاجية، ولكن كانت ستائرها تحجب كل ما وراءها، تخطو بخطوات بطيئة، تضع يدها على الزجاج البارد. كان عبارة عن ثلاث نوافذ مقسمة إلى قسمين طويلين. أخيراً وصلت إلى آخرها، ووجدت باباً زجاجياً. أمسكت المقبض الضخم وفتحته، تحرك الباب، رن جرسٌ فوق رأسها بصوت ناعم خفيف.

وقفت عند المدخل للحظات تحدق إلى الداخل، كانت غرفة كبيرة غطّيت جُدُرها بورق جدار مورد.

وقع بصرها على مكتبة خشبية صغيرة مزينة بأدوات الخياطة، انتقل نظرها إلى طاولة بنفس التصميم العتيق.

خطت خطوة واحدة إلى الداخل، تبحث بعينيها عن أيّ شخص.

ولكن الغرفة كانت خالية، قالت متمنية أن يجيبها أحدٌ ولا ترد خائبة الأمل:

- مرحباً، هل يوجد أحد ما هنا؟

انفتح باب أبيض في الزاوية، خرجت منه امرأة عشرينية العمر، بيضاء البشرة، ينسدل شعرها الأسود الطويل على كتفيها. ابتسم وجهها الذي اصطبغ بمساحيق التجميل الخفيفة، وهي ترحب بها:

- أهلاً وسهلاً بكِ تفضلي..

تمر من أمامها، ترفع جزءاً قليلاً من ثوبها الأحمر الضيق إلى الأعلى، وصوت كعبها العالي يصدر صوتاً خفيفاً.

تدعوها إلى الأرائك الرمادية التي في الزاوية.

تتحرك ترفة بخطوات مترددة، تجلس مقابل المرأة التي وضعت ساقاً على الأخرى.

يستقيم جسد المرأة الرشيق، وخصلة ناعمة من شعرها تسقط على جانب وجهها وهي تقول:

- هل من خدمة تحتاجينها؟

تضع يديها في حجرها متوترة، ترفع نظراتها إلى المرأة المقابلة لها والمنتظرة لجوابها، وتقول مشيرة بسبابتها ناحية الباب المغلق:

- لقد قرأت الإعلان الذي علق على الباب، وأريد أن أعمل هنا إذا أمكنني ذلك!

ارتفع حاجبا المرأة الرفيعان إلى الأعلى بتعجب، تأملتها لثانية قبل أن تفرج عن شفتيها وتقول:

- كم عمرك؟ تبدين فتاة صغيرة في الخامسة أو الرابعة عشرة من العمر!

امتعاض خفي انتابها، تهز رأسها مصححة:

- لا، إنني في السابعة عشرة من العمر.

قالت المرأة مصطنعة الدهشة:

- أوه، تبدين أصغر من ذلك!

أكملت وهي تقف:

- حسناً في الحقيقة نحن نحتاج للعاملات بشكل ضروري وفي هذه الفترة بسبب ظروف بعض العاملات، سأناقش الأمر مع المالكة.

وأشارت بالإيجاب، قبل أن ترحل ناحية المكتب:

- لا تقلقي، ستحصلين على الوظيفة، أما الآن...

التقطت بعض الأوراق من المكتب، تصفحتها قليلاً، أخرجت منها ورقتين مع قلم حبر، وعادت إلى ترفة.

مدت يدها بالأوراق مشيرة إلى بعض البنود ومكان التوقيع إلى ترفة التي التقطت الورقتين بحماس وابتسامة راضية متشوقة، وقد انشرح صدرها واختفى توجسها من المرأة، أضافت المرأة بالابتسامة نفسها:

- عليكِ ملء هذه الاستمارة، وخلال يوم أو يومين سنتصل بكِ.

* * *

تحرر المقبض من يدها وباب المحل ينغلق وراءها، ترتفع زاويتا شفتيها عن ابتسامة ناعمة سعيدة.

تشعر بالاسترخاء والراحة والحماس في آن.

صحيح أنها قضت ساعات طويلة مرهقة في هذا البحث، ولكنه أثمر في النهاية عن نتيجة مرضية جعلتها تنسى حزنها وتتحلى بالكثير من الثقة والإصرار على بذل أقصى جهدها فيه.

وأخيراً سوف تتحرر من عقدة ذنبها تجاه أمل، ستشاركها بعض المسؤولية، وستحاول إرجاع ما أخذته منها وهي راضية تمام الرضا عن نفسها.

تتدثر بالمعطف حامية نفسها من لسعة البرودة التي أحست بها، وهي تعود من حيث أتت.

فلقد غربت الشمس، وتسرب الظلام بين أضواء الشارع والمحلات.

في الحقيقة هي لا تعرف الطريق حق المعرفة، ولكنها حاولت حفظه وهي قادمة.

لم تشغل نفسها بفكرة ضياعها إن حصلت، فأفكارها كانت كلها مشغولة بذلك المكان الذي تركته وأحبته قبل أن تبدأ العمل فيه. كانت تخطط بسرور حول ما ستفعله، وكم كانت شغوفة بمزاولة العمل من الآن، والحصول على أول راتب لها.

وقفت قرب مقهى صغير في الزاوية، حركت خطواتها إليه وفي نفسها حاجة ملحة لشرب كوب من القهوة كالذي تشربه مع أمل في بعض المرات.

إنها تحتاجه الآن لتخمد ثورة مشاعرها المشتعلة من الحماس.

تدخل يدها في جيب ثوبها، تخرج النقود التي تحملها.

تعقد حاجبيها بإحباط، ترى مبلغاً وقدره خمسة وعشرون درهماً. إنه لا يكفي إلا لكوب قهوة فقط، والمتبقي لا يأتي بشيء آخر!

فلقد اشتهت أن تأكل في تلك اللحظة، لأنها تشعر بالجوع.

ولكن لا يهم، فشيء واحد أفضل من لا شيء.

تفتح باب المقهى الثقيل، تدخل إلى غرفة كبيرة أرضيتها من الخشب الصلد، وطاولاتها وكراسيها الخشبية متوزعة على اتساع الغرفة الرمادية، وفي زاويتها توجد طاولة استقبال أنيقة بسطحها الرخامي الأسود.

تتجه ناحيتها باستحياء لتواجد بعض المرتادين، تقف أمام الطاولة تبحث عن الموظف، عيناها تتجولان على الرفوف الحديدية المعلقة على الحائط وعليها كل أنواع القهوة وأكوابها وأباريقها، تستقر أخيراً على شكل الرجل الذي خرج من الباب الذي خلف الطاولة.

قابلها الرجل بابتسامة مرحبة وهو يقدم لها قائمة الطعام التي لديهم:

- أهلاً وسهلاً بكِ، تفضلي!

اختارت قهوة بالكراميل، دقائق قليلة وانتهى من صنعها، وقدمها لها مع قطعة صغيرة من البسكويت.

شكرته بسرور، فيبدو أن الحظ قد حالفها اليوم بقطعة حلوة كهذه وبطعم الشوكولاته.

خرجت من المقهى بيد تمسك الكوب والأخرى ترفع البسكويت إلى فمها، تقضم منه قطعة صغيرة مستمتعة.

يبدو أن حظها اليوم في القمة.

وكأنها خرجت من سباتها الشتوي الذي أجبرت عليه، لترميه مرة واحدة وراء ظهرها وتحاول نسيان كل المشاعر السلبية التي خلفها بروده في روحها.

فكيف لا تفعل ذلك وتعاسته أجبرتها على الوقوف مرة أخرى بسبب الخيبات المتوالية.

فهي تشعر بالسعادة لذلك، ولأنها أخيراً تقدمت خطوة واحدة في حياتها التي تدمرت لتبدأ في تركيب أجزائها مرة أخرى.

تقدمت خطواتها البطيئة نحو الرصيف المليء بالمارة، نظراتها في هذه المرة تحدق أمامها وحولها وإلى كل الأشياء، فهي ليست خجلة أو خائفة الآن، فلقد امتلكت في تلك اللحظة حلماً وعزيمة لن يردهما شيء.

تتجه ناحية حاوية القمامة. تتوقف عند إنارة الشارع، والهواء البارد يضرب خديها المحمرين. علقت يدها في الهواء وهي تهم برمي الكوب في الحاوية.

وقع بصرها على اللوحة المعدنية أمامها التي علقت عليها ورقة. عكست الورقة صورة وجهها كالمرآة.

يسقط الكوب من يدها إلى الأرض مصدراً ارتطاماً لم تسمعه!

المعانقة السادسة

عادت أمل إلى الشقة ووجدتها خالية، استغربت خلوها، فترفة لم تخرج مطلقاً إلا معها، هل يمكن أنها اقتنعت أخيراً بضرورة خروجها وتعرفها إلى العالم الخارجي بعد إصرارها الدائم عليها!

استحمت، حضّرت الطعام، أدارت التلفاز تقلب قنواته في ضجر، اتصلت بهاتف ترفة، ووجدته مغلقاً!

قلبت الغرفة رأساً على عقب، تبحث عنه لعل ترفة نسيته، ولكي يطمئن قلبها عليها.

تنظر إلى ساعة هاتفها، لقد مرت ساعة على عودتها ولم تعد ترفة، هل يمكن أن تكون قد خرجت قبلها بفترة قصيرة، ولهذا ترى أنها تأخرت؟

أم أن مكروهاً قد حدث لها؟

طردت أفكارها السيئة عنها، لم تستطع الانتظار أكثر، إنما جهزت نفسها للخروج وخرجت للبحث عنها.

مرت على المقهى أولاً، نظرت عبر نوافذه الزجاجية اللامعة تبحث عن طيف رفيقتها بتوتر، دخلت عبر الباب الزجاجي، تقدمت إلى طاولة الاستقبال تحدق إلى المكان المكتظ وبين المتواجدين ترجو أن تكون ترفة بينهم!

ولكنها لم تجدها، تضع مرفقها على طاولة الاستقبال البيضاء، تحدث إحدى العاملات اللاتي تعرفهن هناك، التي وضعت أمامها قائمة الطعام الطويلة:

- فاطمة هل جاءت ترفة إلى هنا؟

عقدت الأخرى حاجبيها المرسومين بحيرة:

- تقصدين الفتاة التي كنتِ تأتين معها في الآونة الأخيرة؟

أومأت لها، فأجابت فاطمة:

- لا أظن أنني رأيتها، ولكن ما بها؟ ولماذا تسألين عنها؟

أشارت أمل مجيبة على فضول فاطمة التي تعشق معرفة كل التفاصيل:

- الفتاة لم ترجع إلى الشقة، ولا تجيب على اتصالاتي!.. إنني خائفة عليها فهي لا تعرف المنطقة حق المعرفة، وأخاف أن تكون ضائعة!

شهقت فاطمة، مرجعة خصلة من شعرها الأشقر المصبوغ إلى الوراء:

- المسكينة.. انتظري قليلاً، سأسأل العاملين لعلهم شاهدوها وآتِيكِ بالأخبار!

ذهبت فاطمة إلى باب في الزاوية ودخلته، وأمل في مكانها تبحث بنظراتها حولها، تنظر إلى الباب حين يفتح ويغلق. تدعو الله في سرها بأن تكون ترفة بخير وألا تكون قد ضلت طريقها.

تقع عينا أمل على فاطمة التي ظهر طرف قميصها الأبيض من الباب وبقي جسمها مختبئاً خلفه. رنت فاطمة إليها محركة رأسها علامة على أنها لم تجد أيّ إجابة منهم. انقبض قلب أمل في خوف وقلق، ظلت تراقب فاطمة التي مشت بين الطاولات إلى بعض النُدُل، وفي كل مرة كانت تشير بالنفي إليها، إلى أن فاض صبرها وخرجت من المقهى حائرة متوترة، لا تعرف إلى أين تذهب للبحث عنها!

عادت إلى الشقة متأملة عودتها، وما إن دخلت حتى نادتها لعلها تجد جواباً، بحثت في الغرفة والمطبخ ولكنها لم تجدها. عادت أدراجها إلى الخارج الذي اشتد ظلام ليله، احتضنت يدها الهاتف الذي اتصلت منه للمرة العاشرة ولكنه ما زال مغلقاً!

سارت تحت إنارة الشارع، بين المارة والمتاجر، تبحث بينها، تسأل عنها وتصفها لمن تصادفه.

تعبت من المشي بعد بحث طويل، فجلست على الرصيف أمام بقالة تقابلها بناية غير مكتملة البناء، رفعت قدماً واحدة، نزعت عنها حذاءها الأسود ذا الكعب العالي متأففة. كانت أول غلطة اقترفتها هي الخروج بهذا الحذاء الذي لا يناسب المشي الطويل، نزعت الآخر واضعة قدميها عليه، لفت حولها سترتها الزرقاء الشتوية، أخفضت رأسها، غطى وشاحها الملفوف حول عنقها نصف وجهها. ظهرت عيناها اللامعتان.. تقاذفها موج الأفكار، لأنها تموت قلقا عليها، وتخشى حدوث مكروه لها.. فكرت للحظة بأنها ربما تركتها ورحلت، ولكن لماذا قد تفعل ذلك؟ وتغلق هاتفها إن كانت سترحل وتتركها دون وداع!

طاردتها الهواجس، وأتعبها التفكير.. فوقفت لتعود، انتعلت حذاءها، شعرت بالألم بسببه، مشت ببطء، خطواتها غير متزنة، ويدها ما زالت تحتفظ بالهاتف الذي ترفعه إلى وجهها لتنير إضاءته ملامحها المتعبة، تتصل على رقمها بإحباط، تسمع الرد نفسه وتخبئهُ مرة أخرى في جيبها.

بعد خطوتين تخرجه ثانية من القلق، تنظر إليه وتتمنى لو أن ترفة تتصل بها، لتسكن مشاعرها المضطربة، ولا تشعرها بالهجران.. ولكنه يسقط من بين أصابعها على الأرض، تنخفض لتلتقطه ولكن يدها تتوقف في الهواء، لأن يداً امتدت إليه وحملته، عقدت حاجبيها، تصاعد بصرها من اليد السمراء إلى وجه الشاب الوسيم الباسم، اعتدلت واقفة، مدت يدها قائلة:

- شكراً..

وضع الهاتف في يدها، وعيناه اللوزيتان تتأملانها بجرأة:

- لا شكر على واجب، لم أفعل شيئاً، هذا أقل ما يمكنني فعله من أجلكِ!

استغربت جملته الطويلة التي لم تفقه معناها، ولم يكن يهمها أن تفهمها من الأساس!

أكملت مشيها، ولكن اقشعر جسمها من إحساس أن أحداً ما يتبعها!

توقفت للحظات، التفتت إلى الوراء، رأت نفس الشاب الطويل الذي يبدو أصغر منها سناً، وعندما رآها انفرجت شفتاه عن ابتسامة استنكرتها!

رفعت يدها إلى رأسها، رسمت دائرة وهمست:

- مجنون!!

وأولته ظهرها دون أن تلقي نظرة على ملامحه التي عبست لإشارتها تلك، تحركت خطواته السريعة خلفها وأزعجتها، وجعلتها تشعر بالتوتر، اقترب منها حتى لم تبق بينهما إلا خطوة واحدة، ارتعشت وهي تسمع همسه من وراء حجابها:

- بصراحة لقد أعجبت بكِ من النظرة الأولى، هل يمكننا التعارف؟

قطبت ما بين حاجبيها استياءً، التفتت إليه متعكرة المزاج، رفعت يدها وكأنها توقفه:

- وهل هذا وقت الإعجاب والتعارف، وإن كنت جاداً فسأعطيك رقم أخي لتتعرف إليه جيداً، لا.. بل عائلتي بكاملها لتكون فكرة عامة عني!

ضحك الشاب لأسلوبها المهاجم والساخر، رفع يده، لمس فكه ذا الشعر القليل، وتكلم:

- وما حاجتي لأخيكِ لأتعرف إليه، فأنا أرغب في التعرف إلى ذات الحسن والجمال التي تقف أمامي، أما التعرف إلى العائلة فيأتي لاحقاً.

صفقت بيديها، اقتربت منه فتأخر هو، وملامحه السمراء تتسع مبتسمة من ردود أفعالها:

- رائع... هناك تطور في كلماتك المفخّخة، هيا أتحفني بالمزيد، لنتعارف جيداً!

تجهم وجهها فجأة، قالت بحدة:

- عذراً ولكنني لست في مزاج يؤهلني لتبادل النكات معك، انظر...

أشارت حولها:

- نحن في الشارع، وأنا هنا من المارة ولديّ من الأشغال ما يكفيني، فلا تزد أنت عليها واحداً إضافياً، وانظر إلى نفسك.

رفعت إصبعها إليه مضيفة باستهزاء:

- إنني أكبرك بسنوات كثيرة، ألا تخجل من نفسك لتتبعني بهذه الطريقة المخزية وغير المحترمة، أرجوك كف أذاك عني واتركني.

تعكرت ملامح الشاب للحظة، ولكنها عادت إلى صفائها مرة أخرى. أصيبت بالإحباط لأنه يبدو أبله، ومن الأشخاص الذين لا فائدة من الحديث معهم!

تحركت دون أن تستمع إلى كلماته التي تلفظ بها، فأغاظه ذلك، أسرع خلفها ليريها أنه أكثر جرأةً مما تتوقع ومن هي لكي ترفضه. بعنف جر يدها التي كانت تخرج الهاتف من جيبها، سقط الهاتف من يدها بقوة عنيفة، التفتت إليه مصدومة من جرأته ووقاحته، بشدة انتزعت يدها منه، ودفعته من كتفه صارخة:

- اللعنة عليك، يا لك من مختل، ومعتوه، وفاسق، وقليل أدب واحترام...

انخفضت.. التقطت هاتفها الذي صدمت عند رؤية شاشته المحطمة، أمسكته بين أناملها وضغطت عليه، وقفت دون أن تنطق بكلمة، ومضت في طريقها.

جاءها صوته من الخلف وهو ما زال يلاحقها:

- آسف لم أكن أقصد ذلك، سأشتري لكِ واحداً جديداً.

مشت تضرب كعب حذائها على الأرض بعصبية، قدماها تؤلمانها، ومزاجها متعكر، تشعر أنها بركان سينفجر في الحال إن تلقى ضغطاً أكبر.

همس بنبرة خبيثة وهو يتأملها، ويحاول جذب انتباهها:

- مظهركِ الناعم لا يدل على شراستكِ، في الحقيقة طولكِ ملفت جداً، أهو 173 أو أكثر يا ترى!

توقفت عن المشي، رصت قبضتيها في غضب، دون تفكير انخفضت إلى الأسفل وكأنها ستجلس ولكنها انتزعت فردة حذائها من قدمها، رفعتها بسرعة كبيرة إلى الأعلى رامية إياها عليه.

انطلقت الفردة إلى وجهه، ضربت أعلى جبهته العريضة، سقط الحذاء، تشكلت علامة حمراء عليها، كادت عيناه تخرجان من محجريهما من قوة الضربة، ووجهه الأسمر صار أكثر اسمراراً من قبل، تساقطت الدموع من عينيه كالسيل، فرك جبهته بجنون، تحرك بعشوائية، صاح من قسوة الألم.

اقتربت منه، انحنت ملتقطة الفردة، انتعلتها ببرود ظاهر، تحركت ملتفتة عنه وهي تسمعه يهمس:

- توقفي!

لم تعره اهتمامها، إنما أسرعت وهي تكاد تركض من سرعة مشيها، تباً للحذاء، وتباً لذلك الذي يسب من ورائها، وتباً لهذه المصيبة التي أوقعت نفسها فيها، والآن من سوف يخلصها منه. سمعته يشتم بغضبٍ صارخاً عليها:

- أيتها المجنونة، أقسم إنكِ ستموتين على يدي الليلة.

تنزع كلا حذاءيها من قدميها، تركض بأقصى سرعتها بين المارة، تبطئ سرعتها قبل أن تصطدم برجل وعربته في طريقها. تعتذر منه قبل أن تميل مختطفة نظرة إلى الذي خلفها. رأتهُ يركض خلفها وهو ما يزال يفرك جبهته.

وعندها التفتت إليه بكامل جسمها وأعطت الطريق ظهرها، اقترب منها مشيراً إليها بأصابع الاتهام، رص حاجبيه حتى انكمش وجهه الأحمر بألم وهو يقف أمامها، هددته رافعة يدها الحاملة للحذاء في الهواء كإشارة له بالتوقف:

- سأشكوك للشرطة بتهمة التحرش!

توقف الشاب وقد بهت وجهه وسكنت يداه بجوار معطفه الأسود الطويل، ازدردت ريقها، وقعت عيناها في صدمة على اللون الأحمر الذي بدأ يتسرب من الجرح عند أعلى رأسه.

أبعدت بصرها عنه محاولة إخفاء خوفها عنه ورغبتها العنيفة في الضحك. يدها ما زالت متوقفة في الهواء، تكلمت ثانية بلكنة حادة:

- أقسم لك إنك ستتعفن في السجن..

مرت الدماء على أنفه الحاد، انفصلت عند نهايته إلى الجانبين، رفع يده باستغراب، لمس أنفه، نظر إلى كفه في فزع.

شهق، رفع عينيه المصدومتين إليها، احتقن وجهه ويده تمسح الدماء على بنطاله الأزرق، قال وحذاؤه الرياضي يُسحب على الأرض:

- اللعنة... إنما أنا من لديه دليل إدانتك!

* * *

انسكب سائل القهوة على الرصيف بقرب حذائها الأبيض، انخفضت إلى الكوب ويداها تجعدان الورقة لتتكمش صورتها تحت اللون الأبيض.

تصلب جذعها، تضع الورقة المكورة في الكوب، ترميه في سلة المهملات، تمضي عنها وغطاؤها المعدني يتأرجح موقظاً ذكرياتٍ حاولت محوها جاهدة.

تمشي في ليل حجبت فيه أضواء المدنية الصاخبة نجوم السماء، تغرق في أفكارها وهي تمر بين الماضين والآتين، تلاحقها صورتها القديمة، وابتسامتها التي ذهبت مع الأيام، قلبها يعتصر الألم ويولد الذكريات.

تحزن لذكرى الخيبات، وتريد نسيانها!

تقف مرة أخرى قرب الرصيف مخفية نصف وجهها بقماش حجابها، وبصرها يسقط على الجدار الأبيض الذي أمامها، ووجهها المحمر يخنق الحزن، تضغط على شفتيها، تمتد يدها إلى صورتها الملصقة على الحائط والتي مضى عليها قرابة سنتين منذ التقاطها.

تنتزعها أصابعها، تمزقها يداها، تتبعثر القصاصات الملونة تحتها، ويهتز معطفها الذي تبلل بدموعها.

أيمكن أن يكون ذياب وأمه هما من يبحثان عنها؟ أتشتاق أمها إليها كما تشتاق هي؟

أو أن علي هو من يبحث عنها.. أرعبتها الفكرة، فباغتتها ذكرياتها البشعة معه وأتعستها!

تكمل خطاها البطيئة، تمسح بكمها دموعها الغزيرة. أفكارها تحاصرها، والخوف يرعشها من شدة اضطرابها عندما تمر قرب المحلات وتسير بين الناس وحيدة تائهة، وكلما نظر إليها أحدهم أخفت وجهها عنه بالتفاتة أو اختبأت تحت قماش حجابها لكيلا يعرفها ويخبر عنها من نشر الإعلان.

أسرعت بعيداً، إلى مكان يعزلها عن العالم، هرولت طويلاً تحت ضوء مصابيح الشارع، وسكنت نفسها عندما نقر المطر سطح الأرضية الرمادية. واصلت المشي حتى وصلت قرب الحديقة التي تجاور المبنى الذي تعيش فيه، وقد تبلل رأسها وأطرافها.

وقفت طويلاً تحت مظلة معدنية مخصصة لانتظار الحافلات، وقطرات الأمطار تدق سطحها في نغمة بطيئة موسيقية.

تحدق إلى قطرات المطر التي تسللت من بين فتحات المظلة وأضواء الشارع، تنقل بصرها ببطء إلى نوافذ الشقق الفندقية المضيئة ويداها تختبئان في جيبي معطفها متدفئة. فتقرر الذهاب إلى هناك والانطواء تحت لحافها الدافئ والغرق في النوم لكي تنسى كل شيء، وتستيقظ في الغد بهمة جديدة.

ولكنها توقفت، واتسعت عيناها لرؤية شبح شخص مبلل يدخل تحت المظلة بصورة مفاجئة. كانت امرأة طويلة القامة، معتدلة الجسد، مبللة الملابس، يلتصق حجابها الرمادي على رأسها، رفعت وجهها إلى ترفة ولسان حالها ينطق معبراً عنها. انعقد حاجبا الداخلة الكثيفان، تلألأ وجهها المبلل من الفرح، أزاحت خصلات شعرها السوداء المبللة عن وجهها، فظهرت وجنتاها المتوردتان، قفزت بقدمين ملطختين بالطين على رفيقتها، طوقتها، سقطت فردتا حذائها من يديها إلى الأرض وهي تصرخ:

- ترفة، أين كنتِ يا فتاة؟ لقد شغلتِ بالِي، وبحثت عنكِ طويلاً حتى تعبت!

أبعدت ذراعيها عنها، أرختهما بتعب لتسقطا بجوارها، تأوهت جالسة على المقعد الخشبي خلفها. استرخت عليه حتى ذابت، أصدرت ضحكة عالية، ورأسها يستند على الحافة الخشبية. حدقت

ترفة بها مستغربة، كشّرت قليلاً لشكل أمل المزري وملابسها الملتصقة بها من البلل. ترفع أمل قدمها المتسخة، تسدنها على وركها منحنية إليها، تعبس بعد ضحكها:

- يا إلهي... يا لتعاسة حظي، أظن أنه يجب عليّ الذهاب إلى صالون التجميل لإعادة شكل قدمي الطبيعي!

جلست ترفة بجانبها، أسندت أمل رأسها على كتفها، سردت عليها ما حدث لها بانفعال مبالغ. قامت من مكانها بفكاهة، قلدت حركات الشاب لترفة التي انفجرت في الضحك عليها.

في النهاية صاحت ويداها ترتفعان إلى السماء:

- كان المطر نعمة من الله، بفضله استطعت الاندساس عنه وإضاعة طريقه.

تقدمت بضع خطوات، التقطت حذاءها، انتعلته بصعوبة. مدت يدها إلى خارج المظلة لتتأكد من توقف الأمطار. انبسط وجهها، اتسعت ابتسامتها فهتفت محدثة ترفة التي ما زالت جالسة على المقعد:

- أظن أنه يجب علينا الذهاب الآن، فعصافير بطني تشتكي من الجوع، وحالي لا يسعد صديقاً ولا عدواً!

حاولت عصر ملابسها الثقيلة قليلاً قبل أن تمد يديها إلى ترفة الجالسة وتدعوها للوقوف. وقفت ترفة بابتسامة حاولت رسمها بامتنان لأمل التي انتشلت روحها المغمورة في أحزانها، لتنعشها في لحظات قصيرة.

مشتا متجاورتين، تخطتا الإسفلت، صعدتا الدرجات القصيرة متجهتين نحو العمارة السكنية. تثرثر أمل وتشتكي كعجوز في الستين.

توقفتا قرب البوابة الزجاجية، وقبل أن تتقدما خطوة أخيرة. استدارت ترفة إلى أمل، همست بعد صمتها الطويل وهي تأخذ نفساً قصيراً معبراً عن توترها:

- آسفة لإقلاقك اليوم، والتسبب في إزعاجكِ.

رفعت الأخرى يديها في الهواء كعلامة نفي مطمئنة رفيقتها:

- لا عليكِ، لا تعتذري فأنت لم تفعلي شيئاً، إنما أنا من أفرط في القلق..

انعقد حاجبا أمل للحظات قبل أن تضيف مستفهمة:

- ولكن لم تخبرينِي إلى أين ذهبتِ؟

كانت قد قررت إخبارها منذ لحظة، ولكنها ترددت خجلاً لأنها لم تفاتحها بالأمر بعد اتخاذ قرارها وتخاف من أن فهمها للموضوع من وجهة نظر مختلفة يحدث شرخا في علاقتهما.

قالت بنبرة هامسة، ووجهها ينخفض إلى يديها اللتين ضمتهما إلى بعض هرباً من نظرات أمل التي استغربت تصرفها:

- في الحقيقة لقد وجدت عملاً..

تفاجأت أمل للحظة، اتسعت عيناها محاولة استيعاب ما تقوله، فأكملت ترفة معللة الأمر:

- في الحقيقة إنني أشعر بالملل، ولا يعجبني جلوسي في الشقة دون عمل، ولا أريد إزعاجكِ بمصاريفي أكثر من هذا.

أشرق وجهها، ظهرت ابتسامة صغيرة متحمسة على شفتيها، ونظراتها تعود إلى أمل التي تقلص قلبها بداخل صدرها:

- كانت صدفة، لقد عثرت على محل للخياطة قريب من هنا يريد عاملات، وأظن أنهم سيقبلونني فيه من كلام السيدة هناك.

لمعت عينا أمل، ظهرت مشاعر الحزن واضحة في وجهها، تحدثت بصوت مخنوق:

- آسفة إن كنت ضايقتكِ أو أثقلت عليكِ دون أن أشعر!

أومأت ترفة لها شاعرة بالخجل منها، وقالت نافية:

- أرجوكِ، أنا من كان يجب عليه أن يعتذر منكِ لا أنتِ!

رفعت أمل راحتها إلى ترفة، وضعتها على كتفها، سقطت قطرة مطر باردة عليها، حرك الهواء العليل أوراق شجرة النيم بجانبهما. انفرجت شفتاها عن ابتسامة ناعمة:

- يجب علينا أن لا نعقد الأمور فنحن صديقتان، المهم أنني سأقف معكِ وأدعمكِ في كل شيء.

رفعت كفها عنها، لمست صدرها مضيفة بمرح:

- ولو أردتِ مساعدتي فاطلبي مني ولا تترددي أبداً.

رفعت حاجبيها، هزت منكبها مداعبة:

- وسأكون مسرورة جداً لو أهديتني فستاناً من صنع يديكِ.

* * *

في أحد ممرات المستشفى البيضاء، قرب باب معدني، ولوحة بنية ألصقت عليها بعض المنشورات المكتوبة والصور الخاصة ببعض الأمراض، وقفت أمل تستند إلى الحائط ويداها وراء ظهرها، تحدث صديقة التقت بها صدفة في قسم الباطنية في زيارة مريض لها، أخذتها جانباً لتحدثها بعيداً عن الأسماع.

قالت في تردد وعيناها تبتعدان عن الأخيرة التي كانت تلح عليها:

- في الحقيقة أنا أستطيع، ولكن الموضوع صعب قليلاً!

سردت لها القصة ثانية بنظرة قهر:

- أمل إن الموضوع محير جداً، أنا على يقين أن هناك خطباً ما حدث خلال العملية، فجأة يتجمّع ماء في الرئة بعد عملية زائدة دودية، أشك أن هناك خطأً طبياً قد حدث!

أمسكت كف أمل برجاء:

- ليس صعباً ولا أظنه كذلك، فأنتِ لديكِ حقوق أكثر من غيركِ في هذا المستشفى، ولو كشف الأمر سيكون التستر عليكِ بمنتهى البساطة.

أزعجتها وقاحة أسلوبها المتقصد، أبعدت يدها في ضيق منها، ولكن الأخيرة أمسكتها مرة أخرى معتذرة ومصرة:

- عذراً يا أمل... أرجوكِ ساعديني، ولا أظن أنه يرضيكِ أن تتدهور صحة أخي بسبب خطأ طبي يرتكبه أحد الأطباء ويخرج منه بسهولة؟

تنفست بعمق، أشارت لها بالإيجاب قائلة:

- سأحاول من أجل صداقتنا القديمة، وتعرفين جيداً أنني أتضايق من ذكر عائلتي بهذه الطريقة، فرجاءً لا تعيديها!

ابتسمت الأخيرة بامتنان وشكر:

- شكراً يا أمل، كنت واثقة من أنكِ لن ترديني.

ودعتها ورحلت، حدقت أمل بطيفها الذي توارى خلف أحد الأبواب الرمادية.

أخرجت نفساً مخنوقاً، شعرت أنها قد وضعت تحت الضغط بسببها إلى جانب تدخلها في أمور لا تخصها. أغضبتها كلماتها، فهي لم تحتج يوماً لوساطة عائلتها. كانت دراستها ووظيفتها بجهدها واعتمادها على نفسها، ولكن يضايقها أن يستغل البعض سمعة عائلتها للتقرب منها واستغلالها في بعض المرات، وهي تستحي من الرفض في معظم الأوقات.

تدخل إلى إحدى الغرف، تشعل ضوءها المغلق، تسير ناحية المكتب المعدني، تجلس على كرسيه الجلدي بهدوء بعد أن شغلت جهاز الحاسوب. تدخل بعد تردد بسيط إلى سجل المرضى، تبحث عن الاسم وتجده، تسجل دخولها إلى ملفه. تضبط الطابعة وتطبع الملف، تلتقط الأوراق، وقبل أن تلقي نظرة أخيرة عليها. تسمع صوت أحد ما يتحدث عند الباب وبالمقبض يتحرك. تقف مضطربة، يصدر مقعدها صوتاً مزعجاً. تحتضن يداها الأوراق، وإحساس بالخوف يجتاحها. دون تفكير تهرع نحو الخزانة المعدنية التي أمامها، تفتحها بارتجاف، تندس فيها، تغلقها وأصابعها تمسك طرفها الحديدي بصعوبة. ترى الداخل من الفتحة الضيقة التي صنعتها مسكتها. يقع بصرها على حذائه الأسود الذي تقدمت خطواته. يقف أخيراً قرب المقعد الذي تركته، يجلس عليه، يظهر بنطاله

الرمادي وقميصه الطبي الذي غطى نصف جسده. يسقط بصرها أخيراً على نصف وجهه، تصدر منها شهقة مرعوبة خنقتها بيدها الأخرى قبل أن تخرج.

لماذا يكون حظها عاثراً بهذا الشكل ويكون عامر هو الشخص الداخل؟ لماذا وضعت نفسها في هذه المصيبة؟ لماذا اختبأت؟ وما حاجتها للاختباء؟! كانت من الممكن أن تقابله وتخرج وكأن شيئاً لم يحدث. فهي لم تفعل شيئاً خاطئاً، لأنه مسموح لهم بالدخول إلى ملف أيّ مريض كان!

تباً لتصرفها الطائش، تصلبت في مكانها، حبست أنفاسها خوفاً من إصدار صوت يكشفها، مطمئنة نفسها بأنها سوف تخرج حالما يخرج هو دون مشكلات!

ولكنه تأخر، جلس طويلاً يتصفح الأوراق التي طبعها، والملف الذي أخرجه من أحد الأدراج.

أسند رأسه إلى المقعد الأسود، حدق إلى الحائط لفترة من الزمن، خرجت من فمه نفخة تتلوها آه، همس وحاجباه ينكمشان:

- لقد كان يوماً صعباً..

يعتدل، يضع يديه العريضتين على وجهه، يسند مرفقيه على الطاولة، يتحدث بهمس لم تسمعه!.. حاولت الإنصات إليه وهي مدهوشة، فهي لم تظن يوماً أنه من الممكن أن يكون شخصاً طبيعياً، أو أن يمتلك صفة من صفاتها العجيبة. فجأة وفي حين غفلة منها ضرب على سطح الطاولة بقبضته فأفزعها. تحرك الباب من يدها قليلاً، فأحكمت مسكه قبل أن يفتضح أمرها. تنفست بتوتر، أزاحته قليلاً ليظهر مرة أخرى أمام مرآها. ترى يده التي وضعها على نصف وجهه السفلي، تسمعهُ يقول بصوته المليء بالمرارة:

- عليَّ تحمل ذلك... تحمل رؤيتهم، وتحمل رؤيتها من جديد!

أغمض عينيه المتعبتين اللتين سرقت الهموم راحتهما، تنزل يده من وجهه إلى الطاولة، يدق عليها، يكرر همسه بنفسٍ مخنوق:

- لماذا عادت بعد كل هذه المدة، لماذا يكون اليوم بالتحديد؟

أضاء الهاتف في جيبها، صدح صوت رنينه العالي وجمدها، تركت يدها الباب، انفتحت زواياه، ظهر جسمها المتكور على بعضه بين الأغراض الطبية وقميص أبيض معلق، كانت تريد الوصول إلى جيبها لتخرجه وتسكته، ولكن سقطت نظراتها المرعوبة على الذي وقف فزعاً وألجمته المفاجأة بانفتاح أبواب الخزانة.

تلاقت أعينهما المصدومة للحظات، قبل أن تظلم عيناه الواسعتان وتتوحشان، شدت على شفتيها، حاولت التحرك، تعثرت ووقعت على الأرضية البلاستيكية، تناثرت الأوراق حولها. اعتدلت بسرعة، لمت الأوراق، وقفت في استحياء وإحراج، ربتت ملابسها لتعيد ترتيبها في خجل. همست معتذرة ونظرها على الأرض:

- آسفة.

مسح بيديه على قميصه الطبي قبل أن يرفع واحدة إلى صدغيه المتورمتين من الغضب والخزي ويفركهما. وقفا طويلاً، هي لم يتزحزح نظرها عن الأرض من إحساسها بالذنب، وهو وكأنه من علو شاهق ينظر إليها، يهدئ غضب نفسه ويفكر بالكلمات التي خرجت منه سهواً، أكانت مسموعة أم لم تسمع! أتكلم كثيراً أم اختصر، أفضح مشاعره أم ستر!

فضل الابتعاد، والعودة إلى المكتب وإلى الملف الذي أخذ يتفحصه في عصبية، يصدم الورق ببعضه في خشونة، يجز على أسنانه غضباً من وقوفها الغبي وراءه حتى تلك اللحظة!

رفعت بصرها إليه، تنظر إلى ظهره الذي يقابلها في توتر، ترددت في الكلام، تريد التبرير له لكيلا يفهمها بشكل خاطئ، ولكن كيف لها أن تبرر ووجودها بداخل الخزانة لا مبرر له، حسناً.. ستتكلم وتخبره الحقيقة فهي منقذتها الوحيدة!

تراجعت خطوة إلى الخلف مخرجة صوتاً هامساً:

- في الحقيقة كنت هنا من أجل أحد المرضى، لأن قريباً له يشك في حدوث خطأ طبي في عمليته، وأردت التأكد من هذا لأنها توسلتني كثيراً.

رفعت يدها بالأوراق أمامها لكي تريه، ولكن لم يكن يواجهها إلا ظهره المشدود.

بعد مدة قصيرة من محاولة السيطرة على أعصابه التفت إليها. نظر وجهه العبوس إليها، تكلم باستحقار وحاجباه يلتصقان بجبينه:

- حقاً!

حاولت مواراة الخوف الذي غمر نفسها، حدقت إليه في اضطراب، أخيراً تكلمت بعد صمت طويل شحن بالتوتر:

- أعرف أنه من غير المعقول أن تصدقني.

أشارت نحو الخزانة في انفعال مكملة وصوتها يعلو:

- ولكنني من الارتباك اختبأت هناك، وليس لأغراض أُخرى فلقد أفزعني صوتك العالي عند الباب، إلى جانب أنك مرعب عندما تغضب وكنت أخاف أن تغضب إن خرجت من الخزانة بعد أن اختبأت.

رفعت راحتها، ضربت شفتيها في استدراك، وقالت في خجل:

- آسفة مرة أخرى ولم أقصد قول ذلك حقاً... وأعرف أنه ليس لديّ العذر الكافي لتبرير فِعْلي، فأعذاري قلتها كلها، وأرجو أن تتفهمها!

فتح عينيه في صدمة، استهجن كلماتها المترددة على مسامعه، كيف لها أن تبرر لنفسها بهذه الطريقة الغبية، وكأنها تضع كل اللوم عليه وكأنه هو السبب!

تتنصت له، تختبئ وكأنها لص، تضع أعذاراً وهمية وخرقاء، تتكلم معه بكل حرية دون أن تثمن كلماتها!

بحدة وبرودة أمرها وعيناه تبتعدان عن وجهها الذي اشتعل حرارة من الارتباك الذي هي فيه بسبب الموقف وبسببه:

- إذا سمحتِ أيمكنكِ الانصراف؟

أحست بأنها أسهبت في الحديث، فبدا وجهه لها متضايقاً أكثر منه غاضباً. تحركت متراجعة إلى أن وصلت إلى الباب وخرجت، أنبت نفسها كثيراً، تضايقت من تصرفاتها التي توقعها في المشكلات دائماً. تحاول ضبط نفسها في بعض المرات ولكنها تنفعل وتتصرف من تلقاء نفسها وتندم لاحقاً. مشت من ممر إلى آخر تلقي التحية على ممرضة تعرفها وتبتسم في وجه عامل نظافة مار، وذراعاها تمسكان بالأوراق في سرحان. تفكر في فكرة تصحح بها ما فعلته!

تستعيد كلماته التي همسها في خلوته، فيبدو أنه يعاني من بعض المشكلات! تسرب الحزن إلى قلبها، تتذكر ملامحه المجهدة التي لم تعرفها قط على وجهه الصلب، تتذكر ألمه الذي لم يخفيه. تبحر في أفكارها، تلج إلى الغرفة المشتركة بين الطبيبات، ترتب أغراضها، تحمل حقيبتها راحلة إلى ترفة التي تنتظرها في الشقة. شفتاها تتسعان بابتسامة واسعة عكست أفكارها الداخلية. مشت بثبات عازمة على جعل الأمور أفضل وتصحيح أخطائها وجعلها في طي النسيان.

في الصباح وفي وقت استراحته دخل إلى غرفة الأطباء عامل نظافة، حاملاً معه علبة مغلفة باللون الأصفر. بعد أن القى التحية تقدم إلى عامر الجالس لوحده على مكتبه يشرب من كوب قهوته، ويطالع جهاز حاسوبه، وضع العامل العلبة على الطاولة أمامه، فاندهش الآخر، عقد حاجبيه استفهاماً فرد العامل موضحاً:

- قالت لي إنها هدية، ويجب عليّ توصيلها إلى الدكتور عامر عبد الله.

أشار بالإيجاب والعامل يرحل، مد يده إلى العلبة في استغراب وقربها إليه، رأى ورقة وردية أنثوية علقت على طرفها، فتحها ليرى خطّاً قبيح المنظر، قرأ الكلمات بشيء من التأني «إلى الدكتور عامر المبجل، رسالتي هذه وكعكاتي التي صنعتها بكل حرفية وإتقان أقدمها لك كاعتذار، وأرجو أن تكون مقبولة وتستمتع بها.. أمل محمد».

وجهه المندهش مع كل كلمة تمر عليها عيناه، فقد تصلبه المعتاد وأصبح مرناً، تحركت زوايا شفتيه لترسما شبح ابتسامة.

المعانقة السابعة

بعد مرور عام

في قاعة واسعة تحوي طاولات حاسوبية ومقاعد كثيرة، جلس عدد من طلاب الطب من أجل الامتحان، بدأ الاختبار النظري، لينتهي بعد ساعات طويلة، وبالتدريج بدأ الطلاب بالانسحاب إلى أن بقي عدد قليل فيها، ومنهم أمل وصديقتها سلوى التي دفعت المقعد عنها، ووقفت حاملة معها حقيبتها. همست لأمل:

- أنتظركِ في قاعة الطعام.

افترت شفتاها عن ابتسامة صغيرة وهي تنظر إلى الصفحتين المتبقيتين. تمضي سلوى في طريقها. بعد مرور خمس دقائق تضغط على آخر إجابة، تغلق الصفحة والبرنامج بأسره. تترك أصابعها فارة الحاسوب، يقتحم ظل زاويتها، ترفع نظرها إليه، تنزع النظارة الطبية عن عينيها، تبتلع ريقها عند رؤيته، تتجمد يدها في مكانها، تسمعه يقول وبصره ينتقل منها وإلى الحاسوب:

- دكتورة أمل، لقد أرسلت بحثكِ للتو بعد الاطلاع عليه إلى بريدكِ الإلكتروني، أتمنى أن تقومي بالتعديل عليه، وقد أرفقت معه بعض الملاحظات.

همست بارتباك وعيناها ما زالتا معلقتين به:

- الآن!

هز عامر رأسه دون أن يطرف رمشه:

- نعم.. لأنكِ متأخرة!

انخفضت نظراتها عنه، بدأت بالعمل على ما قاله، وهي تعلم جيداً أنه يحاول معاقبتها. لأنها تأخرت لمدة بسيطة فيه وهذه هي المرة الثانية التي يأمرها بتعديله.

بعد دقائق قليلة تسللت يدها إلى حقيبتها، أخرجت منها حبة شوكولاته، التهمتها وعادت ثانية ملتقطة حلوى توت مصاصة ووضعتها في فمها. بعد ثانية أحست باقتراب خطوات منها، فتوقف فمها عن إصدار أيّ حركة وعندما وقف قريباً منها، ابتلعتها!

توقفت عند بداية حلقها، استوعبت بعد ذلك فادحة ما قامت به. صعدت عيناها من قدميه اللتين التحفتا ببنطال أسود إلى صدره العريض الذي اختفى تحت قميصه الطبي. ابتلعت ريقها متألمة. دعت الله في سرها أن تسقط إلى معدتها ولا تفضحها. كانت لديه عدة أمور يريدها أن تقوم بها فأخبرها بها، هزت رأسها مجيبة ووجهها يتلون بالحمرة. وضعت قبضتها على صدرها، ضربته قليلاً شاعرة بالاختناق. سار عنها ولكنه توقف قليلاً ومن ثم عاود السير، توقف ثانية وهو يفكر وحاجباه معقودان، يشعر أن ملامح وجهها تبدو غريبةً، والآن صوت أنفاسها المسموع، أتبكي! أذهله ما يفكر به... لا يمكن، وما الذي يجعلها تبكي! فهذا ليس من طباعها!

أعاد بصره إليها، رآها تترك مقعدها وتقف. تضرب صدرها عدة ضربات قبل أن تحاول الكح، تميل بجسمها إلى الطاولة وتشهق بصورة متكررة!

تحدث إليها، والدهشة تلف ملامحه:

- ما بكِ؟

اقترب منها بعد أن رآها تحيط عنقها بكفها وقد أبعدت الحجاب عنه، استنكر حالتها، فهمس بقلق:

- هل أنتِ بخير؟ هل تعانين من خطب ما؟

التفتت إليه، ظهرت على وجهها تعابير الألم. أصدرت أنيناً خافتا. إشارتها إلى فمها جعلتهُ يدرك ما ترمي إليه، فهتف بحدة:

- هل ابتلعتِ شيئاً؟

أومأت مصدرة شهقة عالية. اقترب منها مسرعاً وهو يرى وجهها الذي تغير لونه إلى القاني، تردد للحظة ولكنه ترك تردده جانباً، ووقف أمامها مطمئناً:

- لا تتحركي ولا تقلقي مفهوم، والآن أعطيني ظهركِ.

ودون تردد أعطته ظهرها، ربت عليه براحته وجعلها تنحني، ضربها خمس ضربات متتالية، وعندما لم يجد استجابة.. أحاط ذراعه على شكل دائرة حول خصرها، شكل بيده قبضة ووضعها عند الحاجب الحاجز، ووضع يده الأخرى عليها، ضغط بحركات سريعة وقوية هناك، خرجت الحلوى المصاصة من فمها، تدحرجت على البلاط الأبيض أمامهما.

ابتعد عنها سريعاً، وهي ظلت مُنحنية كما هي، مصدومة من الأحداث التي حصلت لها، أخيراً خرجت الحروف من بين شفتيها وعيناها ترقبان الحلوى المتشقلبة:

- يا إلهي!

تشهق بصوت عالٍ، تعتدل.. تمسح عن وجهها أثر تلك اللحظات:

- كدت أموت! اللعنة على من يأكلها مرة أخرى!

ينكمش ما بين حاجبيه، تحدق عيناه إلى الحلوى وتعودان إلى تلك التي تحدث نفسها، فيسمعها تقول وهي تضع يديها على وجهها المحمر:

- وتباً لي!

ترفع يديها عن وجهها المضطرب من الحياء، تهمس لنفسها وكأنها توجه الكلام إليه:

- لِمَ لم تتركنِي أموت ببساطة... لمَ أنقذتني بهذه الطريقة المخزية؟

صدم من كلماتها، واتسعت عيناه حيرة، ما الذي تهذي به هذه المجنونة؟! أفقدت عقلها؟

فجأة أصدرت ضحكة خفيفة، صمتت بعدها، والإحراج يلون وجهها. تسقط نظراتها المتفاجئة عليه، وكأنها لتوها استوعبت وجوده!

اضطربت وعيناها تنظران إلى كل مكان عداهُ، ترددت في الوقوف أم الذهاب، ولكنها تحركت بضع خطوات متعثرة قبل أن تعود أدراجها ثانية منكمشة على نفسها ونظراتها لم تنزع عن الأرض، تلتقط حقيبتها، تمر من أمامه وكأنها لا تراه.

رفع منكبيه استغراباً ودهشة، هز رأسه استنكاراً، تقدم إلى طاولته، عاود الجلوس على مقعده، غرق في العمل في قاعة صامتة لا يسمع فيها إلا صوت تقليب أوراقه وضغط أصابعه على أزرار لوحة الحاسوب.

خطواتها تتسارع عبر الممرات، تشد على أسنانها بعصبية، إنها غاضبة من نفسها لتعريضها لمثل هذه المواقف.. وقفت أمام باب الغرفة وقبل أن تلج إليها أرسلت رسالة إلى سلوى «تعالي.. إنني في الغرفة».

دخلت إليها، ضربت الباب خلفها، رمت الحقيبة أرضاً، ذرعت الغرفة في صمت تسير إلى آخرها نحو الأسرة الحديدية ومن ثم تعود إلى الخزائن في أولها. تحاول تهدئة نفسها المضطربة والتفكير بأن الحادثة كانت مجرد خطأ ويجب عليها أن تنساها. وأيضاً إسعافه لها كان شيئاً طبيعياً فهو طبيب، ولكنها في الحقيقة تفضل لو أنه قام بجراحة في عنقها واستخرج تلك القطعة اللعينة، فسيكون شق حنجرتها أهون من ملامسته لها!

تنخفض إلى الحقيبة، تقلب محتوياتها، تتساقط على البلاط، تنتشر قطع الحلوى الملونة والكتب والأقلام عند قدميها مع دخول سلوى إلى الغرفة التي تشهق تعجباً:

- ما الذي يحدث هنا، هل جننتِ؟

تعبس أمل، تلتقط أقلامها وكتبها وترجعها إلى الحقيبة، تشير بعينيها نحو الباقي:

- لا أريد رؤية هذه القطع اللعينة بعد الآن لأنها قد تسبب الموت لإنسان أو تنقذه!

يحمر وجهها إحراجاً:

- وتباً لذلك الإنقاذ!

تضع يديها على جانبي وجهها، تجلس على الأريكة السوداء خلفها، تجلس سلوى بجانبها بعد أن التقطت قطعة مصاصة ووضعتها في فمها ببرود، همست أمل بانهيار:

- أظن أنني لن أستطيع الخروج من هذه الغرفة بعد أن دخلت إليها، وليس لدي القدرة على مواجهته، وأشعر بالخزي والعار! لا.. إنما سأحفر حفرة هنا، بل سرداب وأختبئ فيه إلى أجل غير مسمى!

تصدر سلوى بعض الأصوات من فمها، تتكلم بصوت غير واضح:

- وهل أنتِ حيوان؟ الشتاء سينتهي قريباً وأنتِ سيكون لديك بيات صيفي وستتعفنين تحت الأرض!

انفجرت أمل مزهزقة، صفعت ظهر سلوى التي قفزت صارخة من الألم، وقالت:

- أخرجي من فمكِ تلك التي تخرجين منها أصواتاً مقرفة قبل أن تتكلمي! وبدل أن تواسيني وتطبطبي على ظهري، تطلقين تلك النكات التافهة.

تعاود سلوى الجلوس، تتأفف ماسحة بيدها على ظهرها:

- لقد كسرتِ ظهري.. ويبدو أن مزاجكِ متعفن! دعيني من عفونتكِ تلك وأخبريني.

تخفض رأسها، تضع خدها على راحتها، مضيفة بفضول نبع من عينيها المحدقتين إلى رفيقتها:

- ما الذي حدث؟ يبدو أن حدثاً لا يُستهان به حصل!

تسرد لها ما حدث بكل تفاصيله، تتفاعل معها، تشهق مرة وتتأوه مرة أخرى، وتغرقان بالضحك في النهاية.

توقفتا عن الضحك، قالت سلوى غامزة لرفيقتها:

- الموقف محرج ومضحك بالوقت نفسه، ولا تفكري به، انسيه كما تفعلين دائماً.

تنفست بعمق محاولة تصفية ذهنها.. تسير مع سلوى وابتسامة خفيفة تزين شفتيها لأحاديثهما المتبادلة، خرجتا معاً، وافترقتا عند النزول من المصعد، تمشي أمل وحقيبتها الثقيلة على كتفها، تمر بين العديد من الناس، تلقي تحية الوداع على موظفات الاستقبال قبل أن تشد رحالها إلى البوابة، ولكن يقع بصرها على شخص يسير تجاهها على بعد خطوات.. أطلقت شهقة صغيرة لرؤية الدكتور عامر الذي انتبه لها لتصطدم نظراتهما للحظة.. تغير أمل طريقها هرباً قبل أن يفتح فمه بالكلمات.. تنحرف قليلاً وخطواتها تسرع إلى اتجاه غير معلوم، تغمض عينيها، تضغط على شفتيها، تخاطب نفسها همساً بأنها لا تريد رؤيته الآن، تريد وقتاً لنفسها لكي تسيطر على ذلك الاضطراب الذي تخلفه رؤيته في روحها جراء تذكرها لموقفهما!

فجأة وقبل أن تنتبه لطريقها، تسرع نحو جدارٍ زجاجي، ترتطم به بقوة، تتكوم على البلاط، وحقيبتها فوقها، تحس بالدوار بعد الضربة التي تلقاها رأسها، تميل على جانبها مستلقية.

تفتح عينيها مستوعبة حالها، يصعد بصرها إلى الأعلى ببطء، يقع على جسده البعيد الذي ما زال يقف في مكانه.

حاجباه المرفوعان علامة على الدهشة انخفضا سريعاً وهو يرص على شفتيه كاتماً ضحكة كادت تفر منه بعفوية.

* * *

مضى عام على انفصالها عن عائلتها، ومضت أشهر على آخر مكالمة صامتة بينهم، ففي الأشهر الأخيرة أصبحت اتصالاتها غير مجابة، ما جعلها تعيد الاتصال مراراً وتكراراً، وفي كل مرة يأتيها الرد الآلي أو ينفصل دون رد ينقبض قلبها وجعاً.

وخلال هذه السنة، أحست أنها تمرست بالخياطة، وأصبحت شغلها الشاغل.

فحصولها على هذه الوظيفة كان كالمتنفس لها من رتابة حياتها وكآبتها، وتغير كبير لمجريات حياتها وأفكارها.

ذهابها في كل صباح تحت أشعة الشمس، أو تحت قطرات المطر أو عبر الضباب يجعلها تشعر بمذاق الحياة، ومزاولتها للعمل إلى ساعات متأخرة يجعلها أكثر راحة وانشغالاً، وممارستها

للرسم والتصميم جعلها تشعر بالإنجاز، وكم أحبت التخطيط والقص، وكم عشقت صوت إبرة آلة الخياطة تحت يدها.

في يوم غائم وقبل المغيب مشت في الطريق عائدة إلى الشقة بعد ساعات عمل إضافية، فكرت في المرور على السوبر ماركت لتشتري بعض الأغراض المنزلية ولكنها أجلت الأمر بسبب تأخرها، فاليوم يوم قبض مرتبها، وفي كل مرة تستلمه كانت تصرف نصفه على حاجات المنزل وتحتفظ بالنصف الآخر لوقت الحاجة.

تقترب من مكان إقامتها فتهطل عليها زخات المطر، تجعلها تهرول ويداها فوق رأسها، تصل إلى البوابة الزجاجية وقد تبللت قليلاً.. تصعد السلالم كرياضة يومية بعد ساعات الجلوس الطويلة، تصل الشقة وتدخلها، تنزع حجابها المورد عن رأسها، فيطوق شعرها الناعم طرفي وجهها، خطواتها تتجه ناحية أمل التي انطوت على الأريكة في لحافها، وعندما ألقت التحية عليها أتاها صوتها من تحت اللحاف، بعد لحظات نزعته عنها، اعتدلت جالسة ويدها تلف بعض الخصلات الهاربة من ربطة شعرها، تحدثت بإعياء ممسدة رقبتها:

- لقد كان يوماً سيئاً!

خلعت ترفة معطفها الأسود، جلست بجانبها، وحاجباها يرتفعان فهماً لصديقتها التي باتت تعرف كل تفاصيلها، وتطورت علاقتهما لتصبح أقرب وأعمق، تحدثت طاوية المعطف على وركيها:

- ما الذي حدث هذه المرة؟.. أطردكِ أم حدّق إليك بنظراته القاتلة كما تسمينها؟

شهقت أمل تعظيماً لمشكلتها، قائلة بكل أسى:

- إنما أكبر مما تتصورين!

* * *

في الممر الذي يفصل غرف الأطباء المشتركة بعضها عن بعض، توقفت عن السير بعد أن لمحته يمشي متجهاً إلى خارج القسم، أبعدت التوتر الذي تشعر به بعيداً عنها وهي تخاطب نفسها بأن عليها إلقاء السلام عليه والمرور من دون اضطراب أمامه، ولا يجب عليها أن تدخل مشاعرها

الشخصية نحوه في العمل. مشت محاولة رسم ابتسامة متوترة على شفتيها. مر من جانبها دون أن ينتبه لها، ضغطت على أسنانها من الإحراج مكملة طريقها، ولكن وبعد بضع خطوات خطاها توقف ومن طرف عينيه رمقها، تحدث ملتفتاً إليها مبعداً بصره عن هاتفه النقال:

- مريض القلب.. هل ألقيتِ نظرة على حالته قبل أن تخرجي؟

أومأت لهُ متبرمة، لا تعلم لمَ يظنها مهملة دائماً، وهي عكس ذلك!

شدت على حقيبتها الممتلئة بتوتر وعزيمة ولكي تقلب الأمور إلى صالحها وتنظر إلى ردة فعله، أنزلتها من ذراعها إلى الأرض، فتحتها بسرعة وهي تهتف به:

- دكتور عامر، انتظر قليلاً!

لم يتحرك إنما سكن في مكانه، تشكلت العقدة بين حاجبيه ومن ثم اختفت، انبسطت تقاسيمه في هدوء، حدق إلى يديها اللتين قامتا بإخراج إبريقها المعتاد وأكوابها، وكيس شفاف صغير مربوط بشريطة حمراء، جعلت قلبه ينتفض في صدره، ومشاعره تتخبط في داخله.

استقامت وأعطته الكوب ووجهها متوهج، مد يده إليها في صمت ملتقطاً الكوب دون أن تتلامس أصابعهما.

رسمت ابتسامة صغيرة ووجهها يزداد حمرة وعيناها الواسعتان تلمعان، تحدثت بصوت هامس وهي تمد إليه بالكيس الصغير:

- إنها غريبة العيد، صنعتها بالأمس احتفالاً باليوم الوطني، وهذه تكون من نصيبك وأتمنى أن تعجبك.

بتردد بسط راحته إليها، تنتقل عيناه منها وإلى الكيس، كاد يرسم ابتسامة ولكنه قتلها قبل أن تستسلم شفتاه لها، قال بدماثة:

- شكراً.

وضعته في يده وعيناها لم تفارقاه.. كانت تحاول قراءة تعابيره الغامضة، وصوته الذي خرج أكثر هدوءاً وغرابة عن جلافة طباعه المعتادة. عيناه اللتان تنظران إليها بالنظرات نفسها

جعلتها تنتزع عينيها منهما.

ترحل بخطواتها السريعة نحو الباب الحديدي تخرج منه باحثة عن مكان تختبئ فيه من لسعة نظراته التي أشعرتها بشفافية مشاعرها التي حاولت إخفاءها عنه!

أما هو فوقف في مكانه طويلاً، بعد أن غرق في أفكاره، يحدق إلى يديه مرة ومرة أخرى إلى البلاط الذي كانت قدماها تسيران عليه، ضم الكيس، تقلص في قبضته، انكتم صوت خشخشته، دسه في حقيبته بعشوائية، انكمش الشعور الذي استعمره منذ للحظات، بهت بعد ذهابها، عاوده ضيقهُ الذي محاهُ وجودها الغريب في حياته منذ فترة لا يعرف بدايته الأزلية!

تحتضن أصابعه حرارة الكوب الورقي، يحتسي القليل منه، يتحرك بخطوات ثابتة إلى الأمام، يفكر جدياً بمشكلته التي تُؤرق مضجعه، والتي تخص أمه وعائلتها، الذين ظهروا فجأة في حياته بعد أن تركوها عن سابق إصرار، ظن أن كل العلاقات انقطعت ولا يمكن رتقها بعد كل هذه السنين المنصرمة، ولكنها عادت ليستحضر ماضيه وينبش ذكرياته.

* * *

جلستا تحت أضواء المقهى الصفراء، على طاولة خشبية تضم كرسيين قرب نافذة زجاجية، يُطل منها الشارع بأضوائه الصاخبة والمارة بحركتهم العشوائية، تستند أمل إلى راحتها، تلتهم لقمة كبيرة من كعك الشوكولاته، تحدق إلى ترفة التي تشرب من كوب قهوتها الحارة.. يتصاعد البخار من كوبها وعيناها اللامعتان تراقبان الشارع في سرحان.. قلبها يرجف بين أضلاعها، اليوم كان يوم إجازتها وأغرقها جلوسها وحيدة في الصباح في الحنين والتفكير واستحضار ذكراهم الغائبة، فوسوست لها نفسها بأن تتصل بمنزلها بعد ذلك الانقطاع الطويل، رن طويلاً دون مجيب، أعادت المحاولة على أمل سماع صوتها الذي لج الشوق إليه.

فُتح الخط أخيراً، لتشهق بخفوت، تكتم أنفاسها السريعة، يأتيها الصوت من الجانب الآخر:

- مرحباً...!

تتسع عيناها، تنهار قواها، تفقد دقات قلبها وتيرتها المعتادة، يُعاد الصوت بنفس النبرة:

- مرحباً...!

ويزيد عليها:

- من المتصل؟

تُنزل الهاتف عن أذنها، تغلقه بانفعال، تضغط عليه، تخنق موجة من البكاء والحنين، أخيراً سمعت صوته بعد كل هذه المدة.. ودت لو أنها ترد عليه لتعيد قلبها إلى الحياة، ولكن لحظة اللهفة تلك اغتالتها حقيقته المرة.

تنخفض نظراتها عن الشارع إلى الصحن الذي أمامها، تضع الكوب عليه، ترفع بصرها إلى أمل التي وضع النادل أمامها طبق الكعك الرابع، التقمت رفيقتها اللقمة لتزيد عليها أخرى وتنهي حصتها في وقت قياسي، وضعت ترفة يدها على جبينها من الاستياء، تحدثت موجهة كلماتها إلى تلك التي تشير بيدها إلى النادل:

- لا يمكنك الاستمرار على هذا الحال؟

تكمل في انفعال:

- إنه الطبق الرابع، أشعر أنكِ ستتقيئين في النهاية أو تفتعلين مصيبة!

هزت أمل رأسها بالرفض، تفوهت بمبالغة:

- الطعم لا يقاوم ولا يمكنني إيقاف نفسي عنه، إلى جانب أن حالتي النفسية سيئة جداً وتحتاج إلى مثل هذا الترفيه!

حركت ترفة كرسيها إلى الخلف، وقاطعتها برجاء:

- دعينا نرحل، لأن حالتكِ النفسية ستزداد سوءاً، وأخاف أن تصيبكِ الهستيرية المعتادة هنا!

رفعت الأخرى كفها أمام وجهها، أصدرت ضحكة خافتة:

- لا أستطيع التوقف الآن، حتى هذه اللحظة لا أشعر أنني امتلأت وأود أكل المزيد!

شهقت ترفة، وضعت راحتها على فمها، همست وعيناها تتجولان حولها خائفة من انتباه أحد لهما:

- ها قد بدأت الآن!

وضعت أمل يديها على جانبي وجهها، أصدرت صوتاً نمّ عن التهكم:

- لا أعلم لِمَ يعاملني بهذه القسوة، وأنا أحاول منذ زمن طويل تنقية صورتي أمامه! واليوم بالتحديد يضع كل الأعمال على رأسي، ويكلفني فوق طاقتي!

ترفع يديها تضرب على الطاولة، يتحرك المفرش، تغرق في الضحك المسموع، تحاول خنقه بكفها، ظهرها ينزلق على الكرسي، تعتدل محاولة ضبط مشاعرها المختلطة، تضع مرفقيها على الطاولة فتأتيها موجة الضحك ثانية، تتحرك الشوكة تسقط إلى تحت الطاولة، يتحرك الطبق من مكانه، تضع ترفة يدها عليه، وباليد الأخرى تمسك ذراع أمل معاتبة:

- أرجوكِ دعينا نرحل، فالناس ترمقنا، وفاطمة تشير إلى عنقها مهددة..

- فقط كوب قهوة واحد ونذهب!

تخرجان من الباب الزجاجي، يصفعهما النسيم البارد وهما تنزلان الدرجات القليلة إلى الشارع، تتحرك أمل مترنحة وضاحكة، تمسك ترفة بكوب القهوة المثلجة قبل أن ينسكب عليهما ويلوث ملابسهما. تنخفض الأخرى تضع رأسها على كتف ترفة مداعبة، فتحركها ممازحة:

- ستنكسر رقبتكِ!

يرتفع وجه أمل المتورد إلى السماء السوداء، تخفضه معيدة انتباهها إلى ترفة، تقابلها وخطواتها تتحرك عكس اتجاه الطريق، تقترح بمرح:

- ما رأيكِ في الذهاب بنزهة في السيارة؟... لديّ مكان جميل أريد أخذكِ إليه، وأكل بعض البوظة فيه.

تأوهت ترفة متذمرة، وخطواتها تتوقف:

- عدنا ثانية إلى الموضوع نفسه، أرجوكِ يا صديقتي فمعدتي ستنفجر من رؤيتكِ وأنتِ تأكلين فقط!

جرتها من ذراعها ضاحكة ومهددة:

- رغبتِ أم لا، ستأتين معي ولا نقاش في ذلك، لأنني سأقوم بفضحك الآن إن رفضتِ!

* * *

راقبت عيناها الغارقتان في الظلام الإشارة التي تبدلت إلى اللون الأخضر، تضغط الأخرى على الفرامل، تنطلق السيارة إلى الطريق المؤدي إلى البحر، ترتفع فوق الجسر، تظهر المباني الشاهقة وأضواؤها المتوهجة تنعكس على البحيرة المظلمة تحتهما، تخفض السرعة بينما تفتح النوافذ، يعبث الهواء بوشاح ترفة المورد، ويضرب خدي أمل، تصيح ويدها تخرج ملامسة الهواء:

- أقدم لكِ هذا المنظر هدية، فالجو رائع الليلة!

تتشكل ابتسامة ناعمة على شفتي ترفة، تخرج رأسها هي الأخرى من النافذة:

- أقبل هديتكِ، لأنها مدهشة!

وعلى هذا الحال ظلتا للحظات تتأملان المدينة من وراء الأبواب في صمت. تتجاوزهما سيارة «نيسان باترول» سوداء قديمة الطراز، تسير أمامهما بمسافة بسيطة، تخفض من سرعتها تدريجياً إلى أن تجاورهما، تفتح النوافذ، يعلو صوت المذياع على أغنية صاخبة الإيقاع، يطل منها شابان يحاولان جذب الانتباه برقصهما، حدقت إليهما أمل بنظرة جانبية، تجعد أسفل شفتيها تعبيراً عن الاشمئزاز، رفعت النافذة متمتمة:

- تباً لقد تعكر مزاجي...

أمسكت أمل بالمقود بجدية، راقبت عيناها السيارة الأخرى التي تسير وراءها وتكاد تلتصق بسيارتها، زمت شفتيها رافعة حاجباً واحداً:

- يبدو أنه يريد اللعب معي قليلاً!

تضغط على الفرامل، تبتعد عنه مسافة كيلو متر، تزيد السيارة الأخرى من سرعتها، يدخلان بين صفوف السيارات وعند الدوار يتوقفان، واحدة في الصف الثاني والأخرى في الثالث.

تصفق أمل ضاحكة:

- لقد وقع في الفخ!

تحرك سيارتها، تجاوزت السيارات التي تقف في الصف الأول، وخرجت من أول مسار، أسرعت في الطريق، غمزت لترفة التي التصقت بالمقعد متوترة من قيادة أمل المتهورة:

- لقد ضيّعته...

ترفع حاجبيها مفتخرة موجهة فخرها إلى الأخيرة التي وضعت يدها على صدرها متمنية في نفسها أن تنتهي الليلة على خير!

ولكن سرعان ما تغير الوضع في طريق فرعي شبه خالٍ من السيارات، سلكته رجوعاً إلى طريقها.. عادت تلك السيارة لملاحقتهما، شهقت ترفة متفاجئة، خفّضت أمل سرعتها مستنكرة:

- المجانين كيف لهما أن يتبعانا بعد كل هذا الطريق؟!

كادت سيارته تلتصق بسيارتها بينما هو يفتح نافذته، يطل وجهه الأسمر وشعره الأسود الطويل المربوط كذيل حصان، أشار بيده بوقاحة يهزأ بهما، صرخ بالشتائم ليصلهما صوته من وراء الزجاج المغلق.

تضع ترفة يديها على وجهها من الإحراج، تقبض كفا أمل على المقود بشدة ووجهها يفقد ألوانه من الدهشة، يقع بصرها على كوب قهوتها الشفاف الذي لم تشرب منه إلا قليلاً.

فتحت النافذة بشكل مفاجئ، رمته.. طار إلى داخل السيارة الأخرى، تناثرت قطراته على وجهي الاثنين ليبللهما بالكامل، وتصبح ملابسهما البيضاء بلون القهوة.

صدرت صرخة مذعورة من جانب ترفة، قهقهت الأخرى بشدة، أغلقت النافذة، زادت من سرعتها بينما تضرب يداها المقود بهستيرية.

صاحت ترفة جزعاً، أمسكت كتف أمل قائلة:

- ما الذي فعلته؟ هل جننتِ؟

تنظر إلى طريقها في محاولة للتركيز، تهتف من بين ضحكاتها:

- قطعاً... إنهما يستحقان ذلك، لعلهما يتأدبان!

غاص قلبها في جوفها لجرأة صديقتها، واستعمرها إحساس بالخوف، انتكست حالتها النفسية، قالت بانفعال وحدة:

- أمل دعكِ منهما ودعينا نعد... إنهما مجرد شابين طائشين!

اختطفت نظرة سريعة إلى وجه رفيقتها الذي بان عليه الانزعاج، شعرت بالذنب من فعلتها المتهورة التي لم تضع حساباً لعواقبها!

وكالصاروخ تجاوزتهما السيارة دون أن تشعرا إلا بصوتها العالي. تسير سيارتها بين الشجيرات العملاقة، يتسرب ظلام الليل شيئاً فشيئاً، تختفي إضاءة الشارع، تظهر الإضاءة بعد عدة أمتار، تسمع على قرب منهما صوت المكابح العالي، لوهلة لم تنتبه للأمر ولكنها تفاجأت عندما استوعبت أن السيارة التي تسير أمامها لم تكن كذلك، حاولت تخفيف سرعتها ولكن بعد فوات الأوان، لأنها كانت أقرب بكثير من أن تتفاداها.. لم تعِ بنفسها إلا وقوة الاصطدام تلصقها على المقود، أبعدت رأسها عنه، نظرت مبهوتة عبر فراغاته، بينما يدها تمسك «القير» لتغيره إلى وضعية الوقوف.

نبهتها شهقة ترفة إليها، التفتت مرعوبة، رأتها واقفة وكلا كفيها على الزجاج الأمامي، انهارت الأخيرة بعد روعة مباغتة على المقعد وعيناها تتسعان، أطلقت صيحة بينما يداها ترتفعان إلى وجهها:

- لقد خرجت عيناي!

انخرطت في البكاء، أضافت ووجهها غارق بين كفيها والدموع تبلل أصابعها:

- عيناي.... إنهما خارج محجريهما.. أقسم إنني شعرت بأنهما اقتلعتا.. يا إلهي ما الذي يجب عليّ فعله الآن!

انتفضتا على صوت ضربةٍ عنيفةٍ على الباب. ارتفعت نظراتهما المذهولة إلى الطارق.. تفتح النافذ بعد دقائق رعب.. يظهر جسد الشاب الطويل وبنطاله الأزرق الفضفاض، وقميصه الأبيض متسخ وملتصق بصدره. ينحني جسده يظهر وجهه الأسمر الذي تقاطر الماء منه وعلق بعضه على لحيته الخفيفة وشعره، تحدث بخشونة وهو يصيح بعصبية:

- اخرجي لنتفاهم... وإلا اتصلت بالشرطة لتعتقلكِ الآن!

غمرتهما مشاعر الصدمة والرهبة وعيناهما تتبعان جسد الشاب الذي توجّه إلى سيارته بعد أن رمى قنبلته عليهما.. بقيت النظرات الباهتة تحدق في الظلام عبر الزجاج الأمامي إلى الشابين اللذين كانا يتفحصان السيارتين. رصت ترفة على شفتيها حابسة أحاسيسها المتخبطة. ما الذي سيحصل لهما الآن؟ ففي حياتها كلها لم تواجه مثل هذا الموقف، وتعترف أن صديقتها أقحمتها دون قصد منها في مصيبة لا يعرفان نتيجتها! ولن تلومها الآن لأن اللوم لن يغير الأمور!

ربتت يد أمل على كف ترفة في هدوء، تبادلتا النظرات للحظات قبل أن تكسر أمل ذلك السكون... وعيناها تظهران مشاعر الاعتذار إلى الأخيرة، تحدثت فاضطرب صوتها:

- آسفة..

رفعت يدها عن ترفة، قالت وثورة من الغضب تجتاحها:

- نحن لم نرتكب أيّ خطأ... وسنخرج من هذه المشكلة بسهولة، ثقي بي.

وقبل أن تخمن ترفة خطوة أمل التالية، تفاجأت وهي تراها تترجل من السيارة. حرك الهواء البارد أطراف ثوبها السكري الطويل، ارتجفت تنشد من جاكيتها الأسود الإغاثة وتزويدها بالطاقة.. مشت طاوية الوشاح الأسود حول عنقها مستعدة للمواجهة التي يرتجف قلبها منها. شدت على قبضتيها ضاربة الأرض بحذائها لتعزز ثقة زائفة.. وقفت أمام سيارتها، يداها تعانقان صدرها أمام أعينهما التي ارتفعت ليرمقاها شزراً، اتسعت عيناها بقوة تتحصن بها منهما، تحدثت.. ارتجف شفتاها، وبهت صوتها:

- ماذا هناك؟

تفاجأ منها، تشكلت الدهشة على ملامحهما العابسة، قال الشاب الآخر الذي تعرفت على ملامحه للتو:

- هل هذا سؤال يُطرح؟

تقدم خطوة إلى الأمام، ظهر جسمه الهزيل والقصير تحت إضاءة الشارع، تنظر إليه من طرف عينيها، ومن ثم تحوله عنه في استخفاف وتتحدث:

- من المتكلم؟

يتصاعد الغضب إلى وجهه، يصيح عليها، يقترب منها، تتأخر هي خطوة عنه:

- تصطدمين بالسيارة، وتسألين سؤالاً تافهاً يمثل بلاهة عقلكِ!

صرخ الآخر بحدة وهو ينخفض ليطالع السيارتين:

- والآن يا آنسة، وبسبب تهوركِ أصيبت السيارة بإصابات بالغة، ويبدو أنكِ ستدفعين ثمناً باهظاً على فعلكِ المتعمد!

أقلقها وقوفها وحيدة في ذلك الطريق الخالي والبعيد عن المناطق السكنية، تراجعت بضع خطوات إلى الخلف، قالت بعصبية تستر خوفها بها، وسبابتها تشير إلى الأعلى:

- وعلى ما أظن يا ذكي إن الطرق مراقبة بآلات التصوير، وستظهر حقيقة توقفكما غير المصرح به في الطريق!

رفع الأسمر والأطول بينهما منكبيه تعبيراً عن عدم المبالاة:

- لن تظهر إلا حقيقة تعمدكِ ذلك، وأن السيارة كانت تسير أمامكِ!

وأضاف بوقاحة:

- هيا تفضلي معنا يا عزيزتي، دعينا نتفاهم معك بشكل أفضل في المخفر الذي سنذهب إليه معاً!

حدّق إلى وجهها المضطرب باستهزاء قبل أن يضيف بمكر:

- أو ما رأيكِ بدفع الأموال نقداً الآن، ونلغي الأمر برمته من دون إدخال الشرطة في الموضوع، سيكون ذلك أفضل لكِ!

كشرت عن أسنانها، صاحت بهما، إنها تشعر أنها وصلت إلى حافة الانهيار من الضغط النفسي الذي تشعر به:

- لا.... لن يحصل ذلك، فكل شيء مصور، وأنا من سيتصل بالشرطة وهي من ستأتي إلى هنا!

أولتهما ظهرها، مشت هاربة إلى السيارة، تعثرت خطواتها، استعادت توازنها قبل أن يلحقا بها، فتحت الباب، رمت بثقلها إلى الداخل، أغلقت الأبواب في انهيار، صرخت من الغضب:

- قمة الاستفزاز، لا أعلم ما الذي يريدانه، نعم... أنا المخطئة لأنني بالغت في تصرفاتي وأعطيتهما وجهاً لا يستحقانه!

تصمت.. صوتها يختنق.. تنظر إلى يديها المرتعشتين، ترفع عينيها المحمرتين إلى ترفة التي بهت لونها وقالت:

- ما الذي حدث، هل تفاهمتِ معهما؟ هل حل الأمر؟

يتسرب صوت حديث الاثنين من الخارج إليهما، تتشكل ظلالهما أمام النافذ، يعاد الطرق العنيف ثانية.. ينكمش قلب ترفة في جوفها، تضغط أمل على أسنانها غضباً، تضرب على زر النافذة، تُفتح ولكن سرعان ما تغلقها بعد أن وضع أحدهما أصابعه في الفتحة الصغيرة، ترفعها دون أن تشعر بالذنب، تغلق على يده، تنزلها، يحرر يده ومن ثم تغلقها نهائياً وشعور الانتصار يغلب على ضميرها. يأتيها الصراخ والسباب من وراء الزجاج، لا تهتم إنما تلتقط هاتفها بصمت وبرود لتتصل بالشرطة.

* * *

تجلسان أمام طاولة الشرطي وفي الطرف الآخر يجلس الاثنان، تتقاتل نظرات الآخرين مع أمل بين احتقار وغضب، وأما ترفة فكانت منطوية على نفسها، يتآكل داخلها من التفكير والخوف.. تتمنى لو ينتهي الأمر دون مشكلات، يتحدث الأسمر إلى الشرطي الذي أنار جهاز الحاسوب وجهه، يظهر صوته مزعجاً ومستفزاً للاثنتين:

- يجب أن تدفع هذه الغبية تكلفة التصليح كلها، بالإضافة إلى مبلغ آخر للأضرار النفسية والجسدية التي تسببت بها لنا!

عقد الشرطي الأسمر حاجبيه الكثيفين والمتلاصقين، ودون أن ينظر إليه أخرج صوتاً خشناً من بين شفتيه الغليظتين:

- اخرس!

نظرت إليه أمل نظرة مزدرية، وجهت نظرها إلى الشرطي وتحدثت:

- يا سيدي هما من حاولا التحرش بنا وإزعاجنا منذ البداية، ولم يتركانا خلال الطريق.

تحرك الأقصر، وقف من مقعده، تكلم بلهجة شديدة مشيراً بإصبعه إليها:

- كاذبة ومخادعة!

يكمل الآخر الذي وضع يديه على طرفي المقعد، وصوته يعلو مع كل كلمة تخرج من شفتيه الداكنتين:

- هي من صدمت سيارتي عن سابق إصرار، لقد كنا نسير على الطريق ولم نشعر إلا بوقع الاصطدام، وعليك التأكد من ذلك إن أردت!

أضاف باستهزاء وعيناه تنظران إليها بحقد:

- لديّ شعور ما أن هذه السيدة لديها سجل إجرامي، أو تتبع إحدى العصابات الموجودة في الدولة، لأن تصرفاتها لا تدل أبداً على الرقي وإنما تدل على أنها فتاة شارع!

أدهشها قوله، فانفجرت كالبركان، قامت من مكانها، أبعدت المقعد عنها بقوة، صاحت بعصبية لتتوجّه نظرات كل من في المخفر إليهم وتقفز عينا الشرطي ذهولاً:

- اللعنة عليكما... فلتذهبا إلى الجحيم، أيها المراهقان يا عديمي المروءة والأخلاق، ما هكذا تؤخذ الأمور!

تتقدم ناحيتهما، تنطق وإصبعها يكاد يدخل في عين الذي تجرأ عليها:

- آلات التصوير ستثبت كل ما حدث في الطريق.. ولو حاولت كسرها ومسحها سأخرجها من تحت الأرض وأحشرهن داخل فمك، لتتعلم بعدها كيف تتكلم بلباقة!

قفز الأسمر، اقترب منها، صر على أسنانه، قال بشراسة:

- تجرئي على ذلك إن كنتِ تستطيعين..

صمت للحظة وعيناه تتأملان ملامحها المتحدية، يعقد حاجبيه حيرة قبل أن يكمل:

- إن وجهك لوجه شؤم، لا أعلم لم يراودني شعور سيئ... ولا أدري لمَ أظن أنكِ لست بغريبة!

فجأة بدأ فمه يتسع إلى أن ظهر بلعومه أمام وجهها الذي اشمأزت منه، تراجعت خطواتها إلى الوراء، صرخت عليه:

- إنما أنت المشؤوم الذي ينعكس شؤمه على من حوله، ابتعد الآن عن وجهي وإلا جعلتك تتعفن في السجن!

صاح بهلع، أطلق الشتائم ولعن نفسه، تقدم منها حتى كاد يثب عليها من الجنون الذي حل به:

- إنها المرأة المجنونة، إنكِ هي!!

أُمسكت ذراعاه، كُبِّل من قبل شخصين من خلفه، حاول المقاومة وهو يهددها بيديه، تتراجع أمل بذهول إلى المقعد تقع عليه من هول الصدمة، يدوي صوت الشرطي الذي رمى ما بيده وضرب الطاولة بكفيه الضخمتين:

- اخرسوا... لا أريد سماع المزيد، اللعنة عليكم، لقد حولتم المخفر إلى ساحة معركة!

قاوم الشاب بيديه المكبلتين، حاول الفرار منهم والقفز عليها:

- إنكِ أنتِ... من رميتني بالحذاء.

أكمل جلجلته بالشتائم والصياح، قامت أمل من مقعدها بعد أن استعادت اتزانها واستوعبت أمره، أطلقت قهقهة مستهترة:

- أنت هو إذن... هذه هي المرة الثانية التي تفعل فيها الفعل نفسه، ها.. أتريد أن أفقأ عينيك هذه المرة، أم أكمل الحفرة السابقة!

التفتت إلى الشرطي الجالس بزيه غير الرسمي خلف الطاولة، وقد كتف ذراعيه ووجهه متجهم من الغضب، تحدثت ببرود آمرة:

- أيها الشرطي يجب عليك أن تزج بهذا الملاحق في السجن وتؤدبه.

هز الشرطي رأسه للصداع الذي سببوه له، فأمر الشرطيين اللذين يمسكان بالشاب وآخرين معهما بصوت جهوري:

- هيا خذوا الشابين إلى الزنزانة، ودعوني أحقق مع الفتاتين أولاً وأنتهي من هذا الازعاج السقيم.

هاجوا بالمقاومة، وماجوا بصيحات الاعتراض، وكف أمل تلوح، ولسانها يظهر، يهتز جسمها بضحكة مكتومة. أُخِذا إلى خلف حائط أبيض وباب معدني.

تجلس ترفة صامتة، رأسها منكس وحجابها يحيط بوجهها المنغمس بمشاعر القلق والتيه، يداها تشدان إحداهما على الأخرى في حجرها.. في داخلها زوبعة لا تستطيع السيطرة عليها... تكاد تموت من الرعب وأمل تأخذ الموضوع بسطحية، هي لا تعي بأنها أدخلتها في مشكلة كبيرة تخاف أن تسبب لها الكثير من الأضرار، ماذا لو طلبوا منهما أي إثبات؟

أو أدخلت السجن بسبب ما حصل؟

هي لم تفعل شيئاً وليس لها علاقة بما جرى، ولكنها أُقحمت في الأمر رغماً عنها!

تسقط الإضاءة الصفراء عليهما وعلى الشرطي الذي يقابلهما من وراء مكتبه الرمادي، تحاوطهما مجموعة من الطاولات والكراسي بنفس اللون، ويختلط أفراد الشرطة مع بعض الأشخاص المختلفة ملامحهم وثيابهم. يعقد الشرطي يديه أمام صدره وملامحه القاسية تحدق إليهما، ارتجفت ترفة متفاجئة حينما طرح سؤالاً مباشراً:

- بياناتكما من فضلكما، وبطاقة الهوية..

شحب وجهها حتى فقد بريق الحياة، خبأت كفيها في جيبيها باحثة عن قوة تتمسك بها، انخفض بصرها إلى حجرها، ليتيه وتتيه معه روحها.. أغمضت عينيها، فتحتهما، انتقلت نظراتها بخجل وفوضى إلى من يحيط بها.. هذا ما كانت تخاف منه.. ما الذي ستفعلهُ الآن؟ وكيف ستخرج من هذه الورطة؟

رفعت رأسها إلى أمل، على أمل مؤازرتها، ولكنها صعقت عندما وجدت الأخيرة تخرج بطاقتها لتعطيها إلى الرجل دون أن تعير وضعها أي انتباه!

صعدت نظرات الرجل إليها، بهتت، ضاعت أفكارها، التزمت الصمت أمام نظراته العابسة، تخفي توترها وخوفها تحت ضغطها الشديد على شفتها السفلية، تحدث إليها بقسوة أرجفتها:

- وأنتِ؟

شهقت أمل ووقع سؤاله أنهى لحظة غفلتها. هبطت نظراتها إلى ترفة التي تداعت مشاعرها الهشة، وتغير لون وجهها، حاولت مساندتها بكفها التي ربتت ظهرها، قالت للشرطي في توتر:

- إن بطاقتها مفقودة، ولم نقم باستخراج بدل فاقد حتى الآن!

تجعّدت تقاسيمه القاسية، ودون أن يعير كلمات أمل أي اهتمام وجه حديثه ثانية إلى ترفة:

- هيا أعطيني اسمكِ بالكامل، ورقم هاتف ولي أمركِ، فيبدو أنكِ فتاة مراهقة، وأتمنى ألا يكون وراءكِ مشكلات أكبر من هذه!

انتفضت كالملدوغ، رفعت رأسها تحدق إلى وجهه في دهشة لكلماته التي زعزعت أمانها.. تشوش ذهنها عند ذكر ولي أمرها، فهي لم تفكر في هذا الأمر مطلقاً، ولم تحسب له أي حساب!

غرقت في فوضى مشاعرها وتفكيرها الذي يرميها في بحر متلاطم الأمواج، استمرت في صمتها حتى بدا لهُ أبدياً.. لا تستطيع أن تخبره، ولا أن تعود إليهم من بعد أن قطعت حبل الوصال.. مد يده بعصبية إلى جهاز بجانبه، وضعه أمامها وقال:

- يبدو أنكِ لن تنطقي، وأرى أن أمركِ مشكوك فيه.. فقط ما عليكِ فعله الآن هو وضع بصمتك هنا، وترك باقي الأمر علينا!

قاطعته أمل التي اضطربت مشاعرها وندمت على جعل الأمور تصل إلى هذا الحد:

- ولكن..

قاطعها بجلافة:

- وأنتِ اصمتي، فهذه الأمور المتبعة لدينا ولا نقاش فيها، فتكفي المشكلات التي تسببتِ بها، والتي تستحقين عليها الحبس لعدم احترامكِ للمكان الذي أنتِ فيه.

أخرستها كلمات الشرطي ولكنها تكلمت مرة ثانية ملحة:

- أرجوك هذه المرة فقط، دعني أتصل بعمي مرة أخرى لأنه تأخر، وأعدك بعدها بأن ألتزم الصمت إلى أن تعرف الحقيقة.

تعترف أنها ارتكبت خطأ جسيماً، وتكره نفسها للتسبب في زج هذه البريئة معها، تتمنى ألا تكبر المشكلة ويكون إدخال أهلها في الأمر أمراً لا مفر منه، فحينها سيصبح موقفها بشعاً، ستعاقب على انجرارها وراء تهورها، فبعد وقع الحادثة اتصلت بعمها راشد لأنه أخف تعقيداً للأمور وأكثر تفهماً للمواقف ولكنه تأخر ولم يأتِ حتى تلك اللحظة!

تهز قدمها في ترقب وصول عمها، وقلق على الأخرى التي تشيعها بنظراتها في كل حين.. ترفة لا تزال تنكس رأسها في إحباط وقلبها يخفق في اضطرام، مخالفة أوامر الشرطي الذي بدأت شكوكه تحوم حولها بسبب تصرفها، أمرها ثانية وثالثة ولم تجبه، إنما استمرت في سكوتها المستفز.

ضرب الطاولة، رمى ملفه الذي بين يديه، قال في هيجان آمراً الشرطيتين اللتين حضرتا بعد اتصاله القصير:

- هيا تصرفا معها، وأنهيا هذه المهزلة!

جعلتها تبصم بالإجبار متجاهلتين مقاومتها واعتراض أمل... في النهاية جلست على المقعد وحاجباها الرفيعان معقودان مخبئةً وراء تجهمها حزناً لا مثيل له.

* * *

يقف راشد مع الشرطي في ممر أبيض، يُسمع فيه صدى بعض الأصوات البعيدة والخطوات الذاهبة، يتحدث بهدوء يقابله الشرطي وباب الغرفة الرمادي الذي خرجا منه:

- هل يمكنك حل الأمر بهدوء وجعل الفتاتين تخرجان دون مشكلات، ودون التحقيق في أمر كل منهما!

تنفس بعمق، عيناه تحدقان إلى راشد الذي بعد مجيئه اتصل به شخص برتبة لواء، ليحدثه بشأن هذه القضية لينهيها في الحال، دون النبش في التفاصيل.

قال وحاجباه يرتفعان:

- بالنسبة إلى حادثة التصادم، فالأمر محلول وواضح في آلات التصوير، وابنة أخيك بريئة، أما الأمر الثاني..

صمت قليلاً، هز رأسه نفياً:

- الفتاة الأخرى التي لا تمت لكما بصلة، فأمرها آخر!

تشكلت الصدمة على وجه راشد وهو يسمع الشرطي يضيف بعبوس:

- لقد تم الإبلاغ عن فقدانها منذ سنة تقريباً، وفي الحقيقة كانت قضية فقدانها متعلقة بقضية إحدى العصابات المعروفة، إلى جانب أن الرجل الذي يبحث عنها أعرفه شخصياً، لهذا لا يمكنني تجاهل الأمر والسماح لها بالذهاب!

* * *

يدخلان إلى إحدى غرف عمارة مهجورة، تخنقهما رائحة العفن، يضيء طريقهما المظلم المصباح المعلق على رأسيهما، يمشيان بين الملابس المرمية والمغبرة، وبين العديد من الأكياس البلاستكية. تزداد الرائحة نتانة، تظهر أمامهما جثة حيوان متعفنة ومتحللة، يصيح مروان مشمئزاً:

- اللعنة... ما هذا؟

أغلق مصباحه ومصباح رفيقه مصوب ناحيته، يعقد حاجبيه مضيفاً بضيق:

- اجعلنا نخرج الآن، في الحقيقة أخشى أن يحصل لنا مكروه بسبب هذه المغامرات الخطيرة.. لولاك والله ما قدمت إلى هنا، فأنا أفضل الجلوس وراء مكتبي ومعالجة الحيوانات على الذهاب في الليل إلى الأماكن المشبوهة!

يخطو إلى الأمام، ينبش في بعض الأكياس المهترئة، متجاهلاً تذمر ابن خالته الذي لم يكف عن نصحه، والذهاب معه إلى كل مكان يبحث فيه كمجنون دون خوف أو اهتمام بنفسه.

دأب طوال هذه السنة في البحث... قبض على مجموعة من المُهربين، وبعض مخالفي الإقامة، واللصوص، ومدمني الممنوعات. لعله بذلك يجد خيطاً يدله عليها. لكنه لم يجد شيئاً، وفي كل مرة يعود خائباً، يعود ثانية بعزيمة جديدة لأنها كل ما بقي له!

لم يحصلا اليوم على أيّ شيء يثير الشكوك... فعادا إلى المنزل بعد بحث طويل استنزف كل طاقتهما، أنزله مروان أمام باب المنزل المظلم، سأله في قلق:

- لِمَ لا تطيعني وتأتي لتعيش معنا... وكفاك تعذيباً لنفسك!

يرفع يده مودعاً، يجيب بهدوء:

- لم أشتكِ يوماً إليك، وتعجبني حياتي هذه، وتعلم أنني لا أستطيع ترك هذا المكان مهما حاولت معي.

يستدير تاركاً مروان ينظر إلى ظهره الهزيل، ترتفع يده إلى رأسه، ينزع قبعته السوداء عنه، يختفي وراء الباب. يضيق صدر مروان غماً لحال ذياب الذي يزداد سوءاً كلما مرت الأيام!

يحرك سيارته راحلاً، يغلق ذياب الباب خلفه، تقود، قدماه إلى المجلس، أما عيناه فترحلان إلى المنزل المعتم، الذي لم تضئ أنواره منذ زمن ظنهُ غابراً!

يمشي ووجهه الشاحب يخفي وراء إرهاقه جبلاً من الهموم. فهو يرهق نفسه عن عمد لكي يعود إإلى المنزل ويسقط في النوم دون نبش للأشجان، ومهما حاول فعل هذا، إلا أنه لم يفلح!

فعودته إلى هذا المنزل تجدد الذكريات، وتوقظ المواجع، وفي كل ليلة يعود فيها خائر القوى، يسقط في النوم لمدة ساعة أو ساعتين، يستيقظ بعدها وقد جافى النوم عينيه، فيخرج مرة أخرى باحثاً عن عمل يشغله.

يدخل المجلس، يشعل ضوءه فتأتيه رائحة البخور، يرى مرتبته في الزاوية بلحافها الأبيض الجديد، وقد اختفت الفوضى وملابسه الملقاة التي تركها في الصباح الباكر عندما رحل. يبدو أن خالته أرسلت الخادمة اليوم للتنظيف، تقدم بضع خطوات، سقطت نظراته على صينية الطعام المغطاة. لم يعرها أيّ اهتمام، إنما تقدم وجلس على المرتبة، ترتفع يداه إلى رأسه الذي اندس اللون الأبيض بين شعيراته السوداء، يحكه بإجهاد، ينزل يده إلى لحيته الكثيفة التي جعلت وجهه أكثر هزالاً وشحوباً.

تقلب طويلاً على فراشه في الظلام، قام بتشغيل التلفاز لعله يجد فيه شيئاً يلهيه عن شعور الاكتئاب، حاول النوم على ضوئه وضجيجه، فنام نوم الغريق.

استيقظ بعد ساعات على صوت رنين الهاتف وضجيج التلفاز، أطفأ التلفاز.. مسح على وجهه، التقط الهاتف، حاول فتح عينيه وعقله في حالة إغفاء، رأى اسم المتصل، عبس مستغرباً، فالساعة تشير إلى الواحدة صباحاً، ما الذي يريده أحمد في هذا الوقت المتأخر؟

ضغط مجيباً بصوته الأجش:

- مرحباً!

رد الآخر:

- الحمد لله وأخيراً أجبت، آسف إن كنت أزعجتك ولكن الأمر ضروري!

انقبض قلبه، استعاد جميع حواسه واستوعب المتحدث، أكمل الآخر، حبس ذياب أنفاسه صدمة:

- الفتاة التي تبحث عنها، لقد وجدناها، إنها الآن معنا، هيا أسرع إلى قسمنا وأحضر معك ولي أمرها حتى تخرج بسلام، فيبدو أنها متعبة جداً لأنها نامت على الأريكة.

أغلق الهاتف، قام إلى سيارته دون أن يبدل ملابسه أو يهتم بشيء آخر غيرها، هاتف مروان الذي أجابه سريعاً، خرج بسيارته متخطياً الرادارات غير آبه لسرعته.. لا يصدق! إنه في حلم عجيب!

هل استجاب الله دعاءه أخيراً؟

يقبض شعره في توتر، يمزقه بين أصابعه، ترتسم ابتسامة لم تعرف طريقها منذ زمن طويل إلى شفتيه، إنه لا يستطيع الانتظار، إنه يموت شوقاً إليها!

قفز من سيارته، ركض مسرعاً، يشعر أن قلبه يكاد يخرج من صدره من قوة خفقانه. ينفتح الباب الزجاجي أوتوماتيكيا، تتسابق خطواته إلى الداخل، يقف قليلاً تحت الضوء الساطع، وعيناه تنبشان المكان بحثاً عن ضالته، توقف بصره عند رجل يجلس بجانب امرأة محجبة على المقاعد الحديدية، ينقلها بسرعة إلى رجل الشرطة الواقف وراء الطاولة، يستبشر خيرا بملامح الرجل الذي رحب به. يتقدم في قلق، عيناه لا تكفان عن البحث عنها في كل زاوية وعند كل حركة تصدر، وصل إليه، سأله في انفعال وملامحه غارقة في الإحباط:

- أين هي؟ هل أنت متأكد من أنك وجدتها؟

في لحظة خاطفة، تباطأ فيها الزمن والصوت، وقع بصره على خيالها الذي خرج من غرفة بعيدة، كانت تمشي في ممر طويل باهت، من بعيد تبدو ضئيلة صغيرة، ولكن هيئتها التي لم ينسها يوماً ظلت كما هي في ذاكرته، إنه يعرفها من لمحة، ولأول مرة يشعر بحقيقة تواجدها، وأنها حقيقة لا يستطيع نكرانها!

ترك كل من حوله، توجه إلى هناك، إلى حيث ينبض قلبه، تتلاقى أعينهما للحظة، تفيض المشاعر من صدره تجري إلى كل جزء منه، تتوقف هي في مكانها، تختنق بالهواء، تحدق إليه ترى

شبح إنسان يتقدم ناحيتها، ثيابه فضفاضة، غير مرتبة، سوداء ورمادية.

يصل إليها، يحيطها بذراعيه في دفعة واحدة، يحتضنها بكل قوته، يشدها إليه، يمسح على رأسها مراراً وتكراراً، يخنق غصة من ألم ودموع.

تسترخي ذراعاها بجانبيها، تنحشر في صمت بين أحضانه.

تُحييها اللحظة، يدميها الشوق، تشعر أن روحها اطمأنت أخيراً بعد طول عذاب!

يرتعش جسمه وخده يلاصق قمة رأسها، يحدثها بأسى:

- أين كنتِ يا حبيبتي!

يبتعد عنها، يمسك وجهها الشاحب بين كفيه، وعيونه الدامعة تحاول قراءة تعابيرها الحزينة:

- هل آذاكِ ذلك الحقير؟ وكيف عشتِ طوال تلك السنة؟ آسف يا صغيرتي على كل ما حصل لكِ بسببي.

يمسح على خديها المحمرين، عيناه تسبران عينيها، ترسلان شوقه وحبه إليها، وفرحته الكبيرة لرؤيتها حية ترزق، إنه لا يصدق أنه يرى وجهها الذي غاب عن حياته، ويتمنى لو أن هذه اللحظة تستمر إلى الأبد!

تزحلقت يداه عن وجهها، ترقرقت الدموع في عينيها وخطواتها تتراجع إلى الخلف، وهي ترفض الانصياع إلى مشاعرها ناحيته.

لقد أقسمت من قبل إنها لن تعود إليه، بعد الذي قاسته، منذ زمن اختارت هي طريقها لتشقهُ لوحدها دون الاعتماد على أحد!

والآن أحقاً تريد العودة إليه؟ من أجل من؟ ولماذا؟ أبعد أن خُدعت وفعل علي بها ما فعل!

أتريد أن تعود إلى وكر قاتل والدها، ليعود علي ثانية ويهدم حياتها!

تركته واقفاً في محيطه الذي لم يخرج منه، ورحلت إلى من تريد الاستناد إليه.

بهت وجهه وبصره ما زال مصوباً إلى مكانها الذي تركته فارغاً، ببطء استدار، رأى ملابسها الزرقاء تختفي وراء أحد الجدران البيضاء.

اتكأت على الجدار، ارتفعت يداها المرتجفتان إلى فمها المقوس بينما كان جسدها ينزلق إلى الأرض، لتجهش في البكاء.

المعانقة الثامنة

وقف مع مروان مصافحاً راشد ليتعرفا إلى بعض، ويحققا في موضوع ترفة، تتقدم أمل ناحيتهما لتدلي بدلوها وتترك ترفة جالسة في زاوية بعيدة عن مرآهم، تحدق عيناها السارحتان بالحائط الأبيض في عزلة وصمت.

بعد أن قصت أمل عليهم كل ما حدث منذ بداية لقائها بترفة، شعرت بالذنب تجاه صديقتها لأنها أخبرتهم دون أخذ موافقتها. تحدثت وكأنها بهذه الكلمات تقف في صفها وتوافق اختياراتها، تتألم من معرفة باقي أجزاء حكايتها المعتمة:

- في الحقيقة لم أكن أنوي إخبار الشرطة وإجبارها على ما لا تريده، فلقد كانت حالتها النفسية مزرية ولم تخرج من حالة الاكتئاب إلا بعد فترة طويلة، ولم أكن أتصور أن تكون هناك عصابة وراء كل ما حدث لها، والحمد لله إن إصاباتها كانت سطحية ولم يحصل ما هو أسوأ!

بعد وقت قصير أنهوا فيه كل إجراءات الخروج، خرجوا جميعاً من المخفر، تقدمتها أمل تسير مع عمها منغمسة معه في حديث مضطرب. تتركها وراءها تمشي على مهل، تهبط الدرجات وكأنها تهبط من جبل، تصفعها البرودة، تسترق عيناها نظرة خاطفة إلى الخلف، تراه يمشي مع مروان ورجل الشرطة في أحاديث صاخبة... تجد نفسها وحيدة منبوذة، تجر خطواتها المكسورة، وهي لا تعلم إلى أين الطريق والمفر!

عند نهاية الدرج تتعثّر، تسقط على ركبتيها، ترفع رأسها، ترى كل النظرات تتجه ناحيتها، تقف بسرعة رافضة أي ضعف قد تظهره.. ينزل خطوتين سريعتين، يتوقف وتدهشه نظرات العداء

في عينيها، تبعد عينيها عنه لينعكس انكسار قلبها فيهما، ويتوقفا عند أمل في حزن، تتحرك شفتاها دون صوت «أرجوكِ... لا تتركيني».

تتسع حدقتا الأخيرة ونظراتها الحائرة تنتقل بين الرجلين وبين صديقتها التي توقفت تنتظر إجابة مساندة لها. تتقدم أمل إليها، تلتقي كفاهما في اتحاد، تقف بجوارها، يسقط الضوء على ملابسهما التي انكمشت بعد يومهما الشاق، يرتفع بصر أمل إلى الرجلين، تخرج شفتاها صوتاً ثابتاً:

- هل يمكنها العودة معي؟

استنكر حديثها، وعيناه تحدقان إلى ترفة التي لم تبدِ أيّ ردة فعل ظاهرة، يرد في خشونة، مقلصاً قلب ترفة في جوفها:

- لا... لا أظن ذلك ممكناً، لأنه يجب عليها العودة إلى منزلها، لا العودة إلى أناس أغراب عنها!

تبادلتا النظرات، ارتفع حاجبا أمل وهي تحاول حث ترفة على قول رغبتها الحقيقية.

حاولت بجهد النظر إليه دون أن تفقد تجلّدها، ولكنه تخلّى عنها ما إن غرقت في عمق عينيه المرهقتين، تحدثت، اختنق صوتها:

- أريد العودة معها..

انتابته حالة من الهستيرية، نزل خطوة أخرى، تعثر بها، تحدث فظهر صوته مرتبكاً وملحاً:

- لا يمكنكِ ذلك، ترفة يجب عليكِ العودة معي، أبعد ذلك البحث المضني أتركك؟ لن يحصل ذلك، ستذهبين معي حالاً!

ارتفعت كف مروان، أمسكت بكتفه توقفه عن تقدمه، التفت ذياب إليه بعصبية، أشار الآخر برأسه «أن يدعها» ولكنه أعاد نظره إليها ليراها تبتعد وفي وجهها نظرة ضيق. توقف وقد فرت قواه هاربة وهو يرى رفضها القاطع له، كاد ينطق إصراراً وإجباراً ولكن مروان قاطعه:

- اتركها اليوم فقط، سنتناقش في الأمر لاحقاً، يمكنكم الرحيل الآن، وسنتواصل معك غداً يا راشد.

ابتعدت عن ناظريه بهدوء، توارى طيفها في داخل السيارة السوداء الواقفة أمامه. وقف في صمت وذهول، تحرك خطوة، أوقف الأخرى من غير تفكير، يجب عليه أن يوقفها!

ماذا لو اختفت مثل المرة الأخيرة؟ هل يحلم أنه وجدها؟ ليتركها تختفي كالسراب من أمامه!

شد مروان على ذراعه، يمنعه من الركض ناحيتها، انطلقت عجلات السيارة، خبط الهواء البارد وجهه. أزاح يد مروان بعيداً عنه وصرخ بشراسة:

- كيف لك أن تتركها تذهب؟ وما أدراني إلى أين سوف تذهب معهما، ومن هما؟ وكيف هي حياتها؟

أعاد مروان يده إليه، يحاول التربيت على جروح قلبه قائلاً:

- أخبرني إلى أين ستأخذها، هل ستأخذها إلى ذلك المنزل الخالي، أم إلى حياتك الفوضوية؟ ومن أنت لكي تأخذها؟

أضاف بانفعال:

- حتى إنك لست ولي أمرها، إنما أنت رجل عازب يعيش لوحده.. ولا يعقل أن يكون هناك شخص بكامل قواه العقلية يمكن أن يتقبل جنونك هذا!.. ذياب عُدْ إلى رشدك وفكر ملياً في الموضوع، أنت رجل مسلم وفي مجتمع محافظ!

بهت للحظات، تاه بين أفكاره، رفع يده، مسح على شعره الأشعث، نقلها إلى فمه يرص عليه، مروان يرثي مظهر ذياب المزري، ينظر إلى قميصه الرمادي الذي انفتحت أزراره، وبنطاله الأسود الذي بات فضفاضاً عليه. حدثه بلين رأفة بحاله، يحثه على العودة معه:

- هيا دعنا نعد إلى المنزل ونناقش الأمر هناك، ونضع النقاط على الحروف.

* * *

جلسا متقابلين على الوسائد الأرضية، يهيم ذياب في تفكير، يتكئ مروان بكوعيه على ركبتيه، يعقد أصابعه أمامه، يتحدث مُعيداً الآخر إلى أرض الواقع:

- ما الذي تفكر فيه؟

لم يجبه.. إنما اتخذ صمته ذريعة ليعبر عن استيائه، عقد مروان حاجبيه متفكراً قبل أن يضيف:

- أجب... هل لديك فكرة تحل بها الأمر؟

كسر صمته بكلمات مختصرة خرجت مكلومة:

- إنه منزلها الذي عاشت فيه، ولا أريدها أن تفارقه، هل تقترح أن تعيش معكم؟

قال ذلك بغير اقتناع، فرفض الآخر فكرته مجيباً:

- لا أظنها فكرة صائبة..

لا يمكن أن تذهب إلى منزلهم لأن أمه وأخته تحملان لها كل أنواع الضغينة والبغض الفاضح، ويمكن أن تتحول حياتها إلى جحيم لا يطاق!

صغرت عينا مروان حذراً وتفكيراً، تأمل تعابير صاحبه المنكسرة، نطق بكلمة جعلت من ذياب ينتفض دهشةً:

- تزوجها!

صدرت منه شهقة، رفع يده إلى رأسه، مسده في اضطراب، نظر إلى مروان باستغراب:

- هل تمزح؟

ظهرت الجدية على وجه مروان، وهو يقول باسطاً أفكاره واقتراحه أمام ذياب:

- نعم تزوجها إن كنت تريد ذلك.. لكي ترتاح وتريحها معك، ألم تنظر إلى نفسك قبل ساعة من الآن عندما احتضنتها، وأردت منها العودة إليك دون أن تلقي نظرة إلى وضعك الذي لا يسمح بذلك؟.. هيا أجبني إن كان لديك اقتراح أفضل منه؟

وقع في حيرة، وهو يفكر فيها من ذلك المنظور الذي لم يتخيله يوماً، تردد للحظة قبل أن يقول والتيه يتجلى على وجهه:

- هل هو آخر الحلول؟

وأضاف:

- وعلياء؟

فكر مروان قليلاً، من البداية لا يمكن لترفة وعلياء أن تجتمعا تحت سقف واحد، وذياب من المستحيل أن يتخلى عن ترفة، وتكفي هذه المماطلة وضياع عمر أخته من أجل شخص لا يرغب فيها.

أجاب بهدوء:

- لقد جاءها خاطب.

استرخت ملامح ذياب قليلاً. اضطرب فجأة، نطق كلماته بتحفز:

- إن كان كذلك فهو «تم» لأنه سيعيدها لي، ويجعل أمر بقائها معي شرعياً!

صمت ومشاعر الحزن تسيطر على ملامحه، استحضر ذكرى أمه الراحلة، قائلاً بتوق:

- لو كانت موجودة، لكان الوضع مختلفا!

* * *

فضلت الصعود عبر السلم لوحدها، تصعد الدرجات في انهيار.. تتوقف للحظات قبل أن تكمل سيرها في ارتعاش. الحزن يحاصرها من كل اتجاه، الألم يعتصر صدرها، تصل قرب الطابق الثالث الذي تسكنه، تجلس على إحدى الدرجات، تضم ركبتيها إلى صدرها، لا يمكن أن تنهار حياتها بعودته بهذه البساطة!

لا يمكنها أن تستسلم لضعفها بهذه السهولة!

لماذا تشعر أن روحها تتمزق بمجرد رؤيته.. ويسيطر حضوره على نفسها، ويجعلها تشعر بهذا الكم من الألم في صدرها!

تريد البكاء ولكنها لا تستطيع، لأن ألمها أقوى من التعبير عنه.

تنهض.. تسير إلى الشقة، تدخلها حامدة ربها على غياب أمل، فهي لا تريد أن يراها أحد وهي في هذا الوضع المأساوي الذي تخشى انهيارها فيه بشكل مفاجئ.

تضطجع على سريرها، تتكور فيه، تغمض عينيها مطالبة عقلها بالتوقف عن التفكير وبث الأشجان إلى نفسها، تتمنى لو ينعدم شعورها، أو تمحي ذاكرتها!

* * *

تستيقظ في ساعة مبكرة، بعد ساعات نوم قصيرة، تنظر إلى وجهها المنتفخ في مرآة دورة المياه، تشطفه بالماء لكي تبعد الإرهاق عنه، تسرع إلى المطبخ، تُحضر طعام الفطور كالعادة. تريد تعويض ترفة قليلاً عما حصل وتعتذر منها. فعندما عادت في الصباح الباكر إلى الشقة وجدت ترفة مستغرقة في النوم، فلم تزعجها إنما خرجت من الغرفة لتنام على الأريكة في الصالة بعد أن حاولت قراءة أحد الكتب في محاولة لنسيان يومها العصيب الذي ندمت عليه ندماً لن تتخلص منه إلا بعد أيام طويلة، وأيضاً بسبب حصول مشادة كلامية بينها وبين عمها راشد الذي أنبها على هذا الفعل المستنكر الذي قد يمس بسمعة عائلتهم.

جلست على كرسيها وأمامها طاولة الطعام، تقلب بشوكتها محتويات صحنها في ترقب انفتاح باب الغرفة وخروج ترفة منها.. ولكنها انتظرتها طويلاً حتى قاربت الساعة على الثامنة صباحاً، لم تستطع وضع لقمة واحدة في فمها من القلق والإحباط، فتركته وجعلت الباقي من الطعام مغطى على أمل أن تستيقظ ترفة وتأكله.

وصلت إلى المستشفى، شعرت بمغص في بطنها، وبالإرهاق بسبب قلة النوم والتعب الذي قاسته في الليلة الماضية.

مرت على مرضاها في قسم الباطنية، وقفت بعد ساعاتٍ طويلةٍ عند آخر مريضين لديها، يعانيان من مرض «متلازمة وولف».

كان أحدهما سمينا والآخر نحيفا، تصفحت ملفاتهما، رأت تشابهاً في الأسماء الأولى فلم تهتم. قرأت التقارير على عجل، تحدثت إلى الممرضة المسؤولة:

- أعطي محمد جاسم غرامين من دواء "ميتوبرولول"، أما محمد حسن فأعطيه غرام ونصف من نفس الدواء.

خرجت من الغرفة، شعرت بالدوار، جلست على أول مقعد رأته أمامها، فهي لم تأكل شيئاً طوال هذا اليوم الكئيب.. وليس لديها الرغبة في ذلك لأنها تشعر بالامتلاء، أسندت رأسها على يديها مخفية وجهها داخل حجابها الأسود. تسمع بعد دقائق قليلة صوت صفير عالٍ، تعقد حاجبيها للحظة، تهب واقفة، تدخل إلى غرفة المرضى المشتركة، تمر بين الأسرة البيضاء، تصل إلى آخرها، تقف أمام مريضها النحيف في فزع، تراهُ يشهق، يهتز جسمه بنوبة تشنج، والممرضة تنظر في الأجهزة المتصلة به والأنابيب في حيرة وخوف، تحاول التعامل مع الموقف ومعرفة الخطب، تقدمت أمل مرتبكة، نظرت إلى جهاز نبضات القلب فرأت إشارته تفوق المئة بدرجات!

وضعت يديها على وجهها، وقفت مضطربة لا تعلم كيف تتصرف، تصيح على الممرضة:

- ما الذي يحدث؟

يهرب الدم من وجه الممرضة، تتراجع إلى الخلف، تضرب بيدها طاولة معدنية تطرحها أرضاً، تقول بتوتر:

- لا أعلم!

* * *

يخرج من مكتبه، يعدل قميصه الأبيض فوق بدلته الزرقاء، يسير وحذاؤه الأسود يضرب الأرض بعنف. منذ فترة طويلة وبعد ذلك اليوم قبل سنة بالتحديد بدأ بينهما ذلك الصراع، لتتصدع علاقتهما العادية وتتحول إلى كره وبغض، ويصبح التجاهل سمة علاقتهما. ولكن الأمر زاد عن حده الآن، فهو لا يمتلك تلك العلاقات العظيمة التي يمتلكها البروفيسور خالد لينافسه ويتربع على عرش الرئاسة كما يريد ويرغب، ولكنه يمتلك سمعته ومهارته التي تجعله في المقدمة دائماً. واليوم بالتحديد حدث ما لم يضعه في الحسبان، رفضت إحدى المنظمات الصحية نشر أحد أبحاثه والأخذ

به فجأة بعد أن أعطته موافقتها قبل أيام. وانكشفت أوراق المؤامرات منذ قليل بفضل أحد معارفه، اكتشف فيها أن البروفيسور خالد له اليد العليا وبواسطته ألغي الأمر.. ليكشف عن حقد دفين يكنه الآخر لهُ.

سار إلى قسم الباطنية، مر على بعض المرضى لمراقبة حالتهم الصحية بعد عملياتهم الجراحية. دخل عابراً إلى إحدى الغرف بعد سماع بعض الضوضاء الملفتة. تقدم ببطء في الغرفة الكبيرة المليئة بالأسرة والستائر البيضاء، أسرعت خطواته، وعقدة حاجبيه تزداد ضيقاً كلما تقدم، وصل أخيراً إلى المريض، وقف أمام الأجهزة المحيطة به التي تشير إلى وجود خطب ما فيه، مر من جوارها، وقف أمامها وعلى رأس المريض الذي ازدادت حالته سوءاً وأصبح تشنجه أقوى. ابتعدت خطوة مرتجفة إلى الوراء بعد أن حاولت فحصه بأيادٍ مرتعشة وعقل مشوش. اقترب منه، أمسك برأسه الأصلع ووجهه المتعرق، قام بفحص عينيه، وفحص باقي أجزاء جسمه والأجهزة، انتقل سريعاً إلى مؤخرة السرير، تصفح ملفه، اتسعت عيناه وهو يقرأ محتويات آخر الملاحظات.

صرخ على الممرضة بعصبية:

- أحضري أدوية مهدئة لحالته حالاً!

اختفت الممرضة وراء الستائر، وبعد لحظات أتت بالدواء إليه.. حقنه في الانبوب بنفسه، خفت النوبة تدريجياً إلى أن اختفت وعادت كل مؤشراته الحيوية إلى حالتها الطبيعية.

كانت تقف خلفه وعندما يتحرك تتحرك بعشوائية معه حتى تكاد تصطدم به من الانفعال، يلتفت إليها أخيراً بعد انتهاء المشكلة، يستوعب تواجدها، تكبر بؤرة السواد في عينيه، يشتعل وجهه بالغضب، يعقد ذراعاه أمام صدره، يقف بقرب السرير وهي أمامه مباشرة، يخفي رداءها الطبي الأبيض ارتعاش جسمها، تهتز شفتاها لتكشف عن لحظة ضعف، يرمي عليها قنبلة غضبه:

- كيف يمكنكِ أن ترتكبي مثل هذا الخطأ الفادح، كنتِ ستودين بحياة المريض بسبب تبديل الجرعات وتسببين له أزمة قلبية، أين ذهب عقلكِ؟ هل تريدين أن أكتب تقريراً عنكِ؟ فهذه المرة لم تكن الأولى ففي هذه السنة ارتبكتِ العديد من الأخطاء، وأظن أنه يجب أن تعاقبي عليها!

أحست بصاعقة كهربائية تسري في جسمها من بعد كلماته، أبعدت نظراتها المصدومة عنه، شعرت بالندم وكرهت ذاتها، حاولت التبرير لنفسها فقاطعها بفظاظة:

- لا أريد سماع أعذاركِ غير المقنعة، هيا تعالي معي!

أولاها ظهره وسار، وعقدة حاجبيه تنفك، يغمض عينيه لجنون أفكاره في تلك اللحظة، تظهر ابتسامة صغيرة على شفتيه قبل أن ينزعها ويعود تجهمه إليه.

مشت خلفه وفي كل خطوة كانت تجاهد للحفاظ على توازنها، تضغط على شفتيها مرتجفة، تغمض عينيها وأفكارها تصفعها بعنف.. فما الذي يجب أن تفعله الآن بعد أن وقعت في هذه المصيبة؟ وكيف سيكون تصرفه معها، فهو شخص مستبد لا يعرف الرأفة، ولكنه في الأخير إنسان وستحاول معه لعله يتركها لهذه المرة فقط!

دخلت وراءه إلى إحدى الغرف، أغلقت الباب بتوتّر، مشت إلى الأمام بضع خطوات. التفت إليها من المكتب الأبيض الذي ولج وراءه، تتسع عيناه لرؤية الباب المغلق. يستنكر فعلها، لأنه بالفعل اختار غرفة بعيدة عن الأسماع ليكمل خطته فيها، ولكنه أدرك لحظتها أنه لا ضير من ذلك، إنما يخدم مصلحته أكثر.

حدثها بصوت مباغت وهو يحدق إلى لون حجابها الأسود الذي أخفى وجهها الناظر إلى الأرض:

- ما الذي تقترحينه حلاً لعقابكِ؟

ابتلعت ريقها، رفعت عينيها إليه، قالت في ارتباك واضح:

- أرجوك... أيمكنك مسامحتي هذه المرة، وأعدك أن أحاول الانتباه من الآن وصاعداً أكثر، في الحقيقة لقد مررت...!

قاطعها رافعاً كفه إلى الأعلى، قاصداً التلاعب بمشاعرها وإضعافها:

- يمكنني أن أتغاضى عن الأمر لهذه المرة فقط، ولكن هناك شرط ويجب عليكِ تنفيذه دون اعتراض، إن رفضتِ فأنا مستعد لفعل المستحيل من أجل الإطاحة بكِ وإخراجكِ نهائياً من

مجال الطب.

استغربت تجاوبه السريع الذي لا يطمئن، قلقت من نظراته المستحقرة التي يرمقها بها، أذهلتها تهديداته الغريبة، فلم يكن تهديده من فراغ، إنما يحمل وراءه الكثير من الأسرار والخبث، لم تجبه لحظتها، ولكنها نطقت بالكلمات بعد تفكير لم يسبر حقيقة أفكاره:

- حسناً، سأفعل ما تريده!

تحدث ليحكم سيطرته على مشاعرها ويحاصرها، دون تردد طرح أفكاره:

- أريد بعض الملفات والأبحاث من عند كل من البروفيسور راشد وخالد!

بهتت وقد صدمتها كلماته، شهقت وعيناها تسقطان على وجهه المتجمد الذي بشق النفس حافظ على تصلبه مخفياً توتره خلف قناع الغضب، لأنه قرر البدء به وسيتمهُ دون فشل!

نعم... سيضغط عليها ويجبرها على فعل ما يريده ويتمنى أن تكون عند توقعه، سيحطم كلا الرجلين ويكشف أوراقهما، ويرى نهاية طريقه معهما، فخالد هو من بدأ هذا الصراع وهو من سينهيه بأمكر ما يمكن أن يتصوره الآخر!

هددها بأسلوب ماكر، ولهجة حازمة خالية من الرحمة:

- لديّ سجل طويل وملاحظات تظهرك بمنظر المهملة والمتقاعسة، إلى جانب أخطائك التي أتغافل عنها في معظم الأوقات، وذلك سيضر بكِ قبل كل شيء وبسمعة عائلتك، ولا تنسي آخر مرة في غرفة العمليات عندما كدتِ تقتلين مريضاً بسبب قطعك لمكان خاطئ، ولولا وجودي لكان حدث أمر أشد وأمر!

توقفت عن التنفس، كادت تهوي على الأرض من قوة وقع كلماته على نفسها، لا يمكنه أن يخبئ في نفسه كل هذه الأحقاد ناحيتها، ويهددها بها بكل برود! وكأنها شخص عديم الإحساس، يذكرها بكل خطأ صغير أو كبير ارتكبته ليجعل عقدة الذنب تكبر في داخلها، لتنفجر وتخلف في روحها فوضى لا يمكن السيطرة عليها.

تأملها للحظات في قلق، من وجهها المضطرب الذي لم يره من قبل، إلى يديها اللتين فضحتا ارتجافها، ينقل نظره إلى أرجاء الغرفة المكتظة بالأشياء التي بدأت تضيق عليهما، فتح أزرار ياقته، حاول التنفس مبعداً الضيق الذي بدأ يغزو صدره. أعاد بصره إليها، رأى وجهها الشاحب الذي كأنه على وشك البكاء، صدمه.. جعله يعيد حساباته، كيف سيحل الأمر الآن بعد أن بدأهُ، لا يمكنه أن ينهيه لأنه سيكون الخاسر الأكبر، إنما بات أمراً لا رجعة فيه، وما أدراهُ إن تراجع الآن أن تذهب وتفضحه، ويكون موقفه أشنع، يا إلهي... ما الذي أدخل نفسه فيه!

استعاد اتزانه النفسي، لأنه يجب عليه أن يمسك زمام الأمور ويلعب من تحت الطاولة. جلس على المقعد الأسود الجلدي، غاص جسده فيه، تصبب من العرق، لبس قناع القوة ينتظر خروج الكلمات من بين شفتيها المفتوحتين. تتقدم بضع خطوات إليه، تدس يديها في جيبي قميصها الأبيض، يرتفع وجهها الباهت، يظهر الألمُ في عينيها الواسعتين.. شعر بقلبه يقع من مكانه.. خفق قلبها، شدت على شفتيها، نطقت في ارتجاف رافضة:

- لا يمكنني فعل ذلك، أنت تطلب المستحيل مني!

أعطته ظهرها، مشت مسرعة إلى الباب، خرجت منه. ارتفعت قبضتاه، هوتا على الطاولة بعنف وغضب، وقف.. ذرع الغرفة في جنون، وقد وجد نفسه فجأة في كارثة يجب حلها في أسرع وقت ممكن!

* * *

تضع كفيها على وجهها، يفترش قميصها الأبيض الأرضية الحجرية، يخفي ثوبها الأحمر الطويل قدميها المرتعشتين، يخيم ظلام الليل على جسمها الذي اختبأ بعيداً عن نور المصابيح وتحت أحد الأشجار الكبيرة، تشعر بالرعب والقلق، داخلها يتمزق من تدهور حياتها التي كانت مستقرة ولا تشوبها شائبة، فعامر يضغط عليها بشكل يومي لتتحول حياتها إلى جحيم لا يطاق.

اليوم رمى عليها مجموعة من الملفات التي دون فيها ملاحظاته عنها والتي هدد بتسليمها في آخر العام إلى جانب توعده لها بالرسوب، بالإضافة إلى أنها بدأت ترتكب العديد من الأخطاء بوجوده، لأنهُ أصبح لا يحتمل، وهي لا تطيقه. ومن جانب آخر بدأت تستجيب له، فهي لا تريد أن

تخسر وظيفتها وسمعتها بسببه، وتخاف أن يفعل شيئاً لها، لأنها أيقنت أنها كانت مخطئة بشأنه فهو ليس إنساناً، إنما شيطانٌ يلبس رداءً أبيض، ويمكنه أن يفعل المستحيل من أجل استخدامها!

وقفت تمشي وحذاؤها الأبيض يسحب على الأرض، تعبر الممرات البيضاء والملونة، تمر على بعض غرف المرضى، من غير أن تبتسم كعادتها، يُحييها بعض الموظفين وعمال النظافة فترد على مضض، أحدهم يلح بالسؤال والآخر يحزن لحالها وحالتها النفسية المتدهورة التي تتجلى على وجهها. تسأل عن مكانه، تخبرها إحدى الممرضات أنه في غرفة العمليات، تقف قرب قسم العمليات، تستند على حائط أبيض، حجابها الأبيض يحيط بوجهها الحزين، تفكر مراراً في الأمر، فتقرر أنها ربما تخرج من هذا الجحيم إن وافقت، ربما يكون الأمر هيناً وبسيطاً، لماذا تعظم الأمور؟... ستتعامل معه بحذر، ولن تعطيه كل شيء، وإنما سوف تستغله مثلما يحاول هو استغلالها من أجل أمور لا تعلم إلى أين ستودي به!

* * *

تقابلا في أحد الممرات الخالية من المارة والمعطرة برائحة المعقمات، وكل منهما يتجنب النظر إلى الآخر. تحاول رفع عينيها إليه ولكن ما إن تحاول حتى تخفضها دون إرادة منها، فالشحنات السالبة بينهما أصبحت أكثر تنافراً، وباتت هي نفسها تكن لهُ بغضاً بعد ود، تنفست ويدها المرتعشة تختبئ وراء ظهرها، تكلمت لتفاجئهُ:

- حسناً... لقد فكرت بالأمر، ولكن بشرط أن تفي بوعدك!

بعد كلماتها التي خرجت متعثرة ومخنوقة، تركته ومشت، ضغطت على شفتيها، رصت على قبضتيها لكي تتخلص من ندمها الذي بدأ منذ لحظة بالتفشي في روحها، ومع كل خطوة تسيرها كانت تشعر برغبة مدمرة في الالتفات إليه، والصراخ على وجهه، ورفض ما يريده، ولكنها أكملت مسيرها لتعيدها الحقيقة إلى واقعها، وإلى شخصيته التي لن تتوانى أبداً عن تحطيمها إن فعلت ذلك، فتباً لهُ! وتباً لضعفها!

اختفت وراء أحد الجدران البيضاء. وقف في مكانه، عيناه تنظران إلى الفضاء أمامه، داخله تعبث فيه الفوضى، هل يمكن أن يحصل على ما يريده بهذه البساطة؟ للأسف هي صدقت كل تزوير

قام به، وكل تضييق قصده، رفع يده إلى شعره الأسود الناعم. أمسك خصلاته في ارتجاف، وهو يحاول قتل ضميره الحي، لماذا يشعر الآن أنهُ حطم شخصا لا يجب أن يُحطم!

* * *

بعد يوم عمل شاق مليء بساعات طويلة من التفكير، اتخذت كل واحدة منهما ركنا في الشقة، تأوي إليه.. تخبئ صراعها النفسي عن الأخرى، أمل تحاول صنع بعض الكعك ولكنها تفشل في وضع المكونات فتظهر الكعكة نية، وفي المرة الثانية نسيت وضع البيض. تنهار على المقعد محبطة. هل أصاب عقلها العطب لتفشل مثل هذا الفشل الفادح؟

ترفة تحيط نفسها بملاءتها الحمراء على أريكة الصالة البيضاء، تطالع التلفاز بعد أن فشل الهاتف في جذب انتباهها، يحبطها التلفاز أكثر، يبث في نفسها موجة من التوتر، تغلقه.. عيناها تسيران إلى تلك التي تلبس بيجامة رمادية ليجعل اللون الرمادي الاضطراب لوناً لحياتهما الأخيرة.. تتقابلان أخيراً على المائدة بعد أن صنعت أمل معكرونة بيضاء، تنظر إلى صحنها الأبيض، تغرز شوكتها في قطعة وترفعها إلى فمها، يأتيها صوت أمل الهامس:

- كيف حالك؟

تضعها في فمها، ترفع نظرها إلى الأخيرة التي تنظر إلى صحنها تقلب محتوياته دون شهية، تشعر أن هناك خطأً ما في أمل فخلال الأيام الماضية كان الصمت رفيق جلستهما، واختصرت أحاديثهما المعتادة إلى سؤال عن الحال وعن الاحتياجات.. هل يمكن أنها أثرت على نفسيتها بصراخها الأخير أم أن الأخرى تعطيها الوقت وتعتذر منها عما بدر منها في آخر مرة، في الحقيقة هي لا تشعر بناحيتها سوى بانزعاج بسيط محته الأيام الفائتة.. فأمل أعطتها الكثير ولا يمكنها أن تجحد عطاءها بسبب حادثة تافهة!

ردت عليها محاولة خلق ابتسامة صغيرة على شفتيها:

- الحمد لله.. وأنتِ؟

تزفر أمل بحنق وكأنها ترد عليها بقول «لست بخير إطلاقاً» بينما تضرب شوكتها في الصحن، تلتهم لقمة وراء الأخرى في شراهة، تنهي صحنها في دقائق قليلة وشعور بالتخمة يملؤها

ويزيد من تردي حالتها النفسية.. يرن هاتفها، تلتقطه بانزعاج، تنظر إلى اسم المتصل. ترمق رفيقتها السارحة ببعض الحذر.. لقد مر أسبوع وأكثر على تلك الحادثة وفي كل يوم يتصل عمها راشد بها ليسأل عن ترفة، وهل هي على استعداد لمقابلة الرجل!.. لأنهُ ينتظرها ويحدثه بشكل يومي بشأنها.

بعد يومين من الحادثة، وبسبب إلحاح راشد عليها، فاتحتها أمل بالموضوع في محاولة لإخراج الأخرى من وحدتها وانغماسها في أحزانها.

جلستا متقابلتين بعد وقت طويل من الانعزال وتجنب كل واحدة للأخرى، ففي ذلك اليوم صنعت أمل كوبين من القهوة إلى جانب بعض الكعك ودعتها لتشاركها في إصرار، وضعت كوبها على الطاولة الزجاجية بعد أن ارتشفت منه رشفة صغيرة، دخلت في الموضوع بلا مراوغة:

- إنه يسأل عنكِ بشكل مستمر ويطلب مقابلتكِ، وراشد يصر عليّ بشأن هذا الموضوع، كنت أريد إعطاءكِ الوقت الكافي لكي تقرري أولاً، ولكنه يضغط عليه، ويقول إن الموضوع ضروري!

أطرقت ترفة تصغي إلى حديث صديقتها، تتخذ من الصمت ملجأً لها، إنها تشعر بالضغط الكبير وبالهم والحزن، لأنه عاد إلى حياتها بعد أن ظنت أنه الفراق الأبدي، وإلى الآن لم تتقبل ما حصل لها وما اكتشفته في تلك الأيام الغابرة، وكم تمنت لو دفن الأمر حينها دون عودة! ولكنه عاد لتنفلق الجروح من جديد!

وضعت الكوب على الطاولة، ظنت للحظات أنها وضعته هناك، ولكنها، في الحقيقة، تركته في الهواء. جذبته الجاذبية إلى الأسفل، سقط عنها، ارتطم بالأرض، تحطمت أجزاؤه البيضاء عند قدميها، واندلقت القهوة عليها وعلى السجادة الذهبية، لسعتها الحرارة، فقفزت صارخة بعصبية. تأوهت ودموعها تكاد تتساقط من عينيها، تشعر أن قلبها تكسر مثل الكوب، ابتعدت عن المكان، وقفت حافية القدمين على البلاط البارد وكأنها تبرد نارها الداخلية وألم قدمها، انفجرت فجأة كقنبلة ملغومة على أمل التي وقفت متفاجئة من الذي حصل:

- أخبريه أنني لا أريد رؤيته، ولا أريد العودة معه، وأخبريه أنني أكرهه، وأنني مت!

ومن بعد ذلك اليوم أصبحت علاقتهما متوترة، ويشوبها بعض التذبذب.

قامت من مقعدها، ردت على راشد، مشت بضع خطوات مبتعدة عن ترفة، استندت على الحائط، سألها مباشرة:

- الرجل يلح، ويبدو أنه يريد مقابلتها حتى لو رفضت الأمر، لأنني سوف أقابله الآن وآتي معه إلى شقتكِ، هل يمكنكِ الخروج قليلاً ليحدثها؟

رفعت حاجبيها، ردت عليه في استغراب:

- ولكن ما صلته بها؟.. أذكر من حديثها لي إنها كانت تعيش مع عائلتها بالتبني، وكانت حياتها غير مستقرة معهم، إلى جانب أنها لا تريد مقابلته، أخبره أن يمهلها المزيد من الوقت إلى حين تستقر حالتها النفسية!

رد عليها بعد أن أخذ نفساً مسموعاً:

- لقد مر وقت طويل، ولعل هذه المحادثة تغير من الأمور بينهما، ولا يحق لنا الاعتراض فهو من أهلها في النهاية.. هيا حضري نفسكِ، وضعيها أمام الأمر الواقع!

اعترضت أمل:

- لا يمكنني فعل هذا بها!

تذمر زاجراً:

- افعلي ما أقوله لكِ، ولا تضيعي الوقت!

أغلق الخط في وجهها، وقفت حائرة لا تعلم كيف تفتح الموضوع مع ترفة قبل أن يقتحم راشد ومن معه شقتها ويفاجئها، حينها ستلوم نفسها على خيانتها لترفة.

تقدمت ناحيتها إلى المجلى، غسلت معها بقية الأطباق، جلستا بعد ذلك على الأرائك متجاورتين، أمل تعبث بأظافرها بلا هوادة، تحاول فتح فمها ولكن الكلمات تضيع منها فتستمر في صمتها، تفكر في حديث لطيف لا يغضب الأخرى!

حسناً... ستقول ما لديها وليحصل ما يحصل.. ستحاول تفهم ترفة، وتمنع حدوث ما يجرحها!

تحدثت وعيناها تنظران إلى ترفة التي تمسك هاتفها باضطراب فخرجت الكلمات منها لتختلط مع كلمات ترفة:

- لدي موضوع!

- آسفة على المرة الأخيرة!

تبادلتا الابتسامة، وهما تشعران باختفاء ذلك الجدار الذي بني بينهما، تهز أمل رأسها في هدوء وكأنها تخبرها أن ليس عليها الاعتذار، تقول ترفة باهتمام:

- ما هو الموضوع؟

رفعت أمل يدها، التقطت يد ترفة التي بجوارها، رصت عليها، انقبض قلب الأخرى فهماً لما ترمي إليه، تحدثت أمل وعيناها تنظران إلى شاشة التلفاز السوداء التي عكست خيالهما:

- أعتذر... ولكن الأمر خارج عن سيطرتي، هو في الطريق مع عمي راشد، وأحببت أن أخبرك قبل ذلك، فإن كنتِ ترغبين بالهرب معي الآن، فسنهرب ولن يجدنا أحد!

ضحكت بعد قول كلماتها، عاد بصرها إلى ترفة التي أغمضت عينيها بانهيار، شعرت برغبة عنيفة في البكاء. وضعت يديها على وجهها وانخرطت فيه. شعرت وكأن طاقتها السلبية تغادر روحها، فازداد بكاؤها ليخرس أمل التي رفعت ذراعيها، ضمتها إليها تهدئها ببضع كلمات مواسية. وضعت ترفة رأسها على كتف الأخرى، تسترخي هناك وكأنها حصلت على من يحتضن ألمها، ويسكن تخبطها، لأن الكتمان أصبح أصعب من البوح، فهي تريد الحديث عن الأمر بعد أن أرهقها التفكير، أخبرتها لتكسر الحواجز، وتعري نفسها أمام نفسها.

طرحت ستار الكتمان، وأسرار الأيام، انهمكت تسرد لها حكايتها، فربتت أكف الرثاء على قلبها، تكفكف أحزانه المضنِية.

تكتم الأخرى شهقتها، وقد أذهلها ما يُقال!

تصمت مصغية إليها بوجه عكس ألمها الداخلي الممزوج بالشفقة.

تمد يدها إليها، تلتقط أصابعها، تشدها في مواساة، وأخيراً فهمت سبب كل هذا الرفض والحزن، ولا تلومها، فلا لوم على خذلان كهذا!

* * *

مرت الأيام الباردة لتزداد برودة قارسة، وتبقى هي على إصرارها ورفض مقابلته. في آخر مرة أتى فيها إلى هناك وقف متفائلاً أمام الباب على أمل اللقاء، طرق راشد الباب بعد أن فشل الجرس في إعطائهم رداً، وبعد انتظار طويل حاول مرة أخرى الاتصال بأمل التي أغلقت هاتفها النقال. اعتذر منه بخجل، ووعده بموعد قريب.

يعود مخذولاً إلى المنزل، ينزل من سيارته، يمشي وحيداً في الظلام، يدخل إلى الفناء، فتباغته رائحة الحطب المشتعل، يشمها وكأنه يستعيد حياته التي عطبت، فلا يمكن أن تكون في المنزل لأنه لا سكان فيه، إلا هو لوحده.. تقاذفته الأفكار، إلى متى سيظل على هذه الوحدة؟ أإلى أن يختنق بها؟

حتى البرد بات لا ينخر عظامه كالسابق، فملابسه الصيفية وألوانها الخريفية كانت لا تناسبه وهو يمشي ليتوقف أمام باب المنزل الخشبي وينظر إلى درجاته البيضاء، يشم رائحة العشب الذي سقاه المطر لينبت ويزدهر دون عناية، يجول ببصره في المكان، يرى قفص الدجاج الذي فقد ضجيجه، ينقل بصره إلى الأشجار التي ذبلت وقاربت حياتها على الانتهاء، كل شيء في هذا المنزل أصبح يفتقد للحياة، حتى روحه باتت لا تحتمل البقاء!

ولا يمكنه أن يخسرها هي الأخرى، سيحاول إعادتها إليه في أقرب فرصة، لكي يجد سبباً للحياة!

* * *

للمرة الثالثة تجتمعان وكل واحدة منهما تخبئ مشاعرها في داخلها.. بعد تفكير طويل مضت عليه أيام قليلة، قررت مفاتحتها بالموضوع، لعل ترفة في هذه المرة تصل إلى استقرارها النفسي، وتخرق جدار الفقاعة التي تختبئ فيها، وتحاول مواجهة مشكلتها بدل الهروب منها!

حدثتها وهي تقابلها على الأريكة، تمسك الأخرى بكوب الشاي، تحتضن حرارته بين كفيها وعيناها تبتعدان بتوتّر عن أمل، تنظران إلى شاشة التلفاز التي تبث برنامجاً وثائقياً:

- ترفة.. هل يمكنني الحديث معكِ قليلاً؟

أومأت ترفة على مضض وهي ما تزال تنظر بعيداً عنها، أردفت أمل بحنان:

- انظري إليّ!

استرسلت أمل في حديثها ونبرتها ظلت كما هي، مليئة بالمشاعر:

- أصدقك القول، إنني ظللت طوال تلك الفترة أفكر بما قلته لي، كانت نفسي تشعر بالغصة من أجلكِ، لكن وبعد كل ذلك التفكير الذي حاولت فيه الخروج بحل يريح قلبكِ، ثم الشعور بإحساسكِ الذي لن أشعر بمدى قساوته مثلكِ، انظري إلي... واسمعيني جيداً، كم سنة قضيتها معه؟ أظنكِ قلتِ إنها عشر سنوات!

نظرت إليها أخيراً بعد طول صد، لتلتقط إحساس أمل الفياض، يعبرها ليستقر في أعماقها، يهيج أحاسيس قلبها، لانت عندما أكملت الأخرى كلماتها بهدوء:

- عزيزتي... إنها سنوات طويلة، وأنتِ قصصتِ لي أنه لم يقصر في حقكِ مرة. وربتكِ أمه بل اعتبرتكِ ابنتها ولم تسئ معاملتكِ قط.. واعتذر اليكِ عندما اكتشفتِ الأمر، مع أنه كان متأخراً، ولكنه أظهر أنه يهتم لأمركِ ويعزكِ ولهذا فعل كل هذا منذ بداية إخفائه حتى الآن.. انظري إلى ما يفعله الآن من أجل رضاكِ، فلا يمكن أن يكون هذا الاهتمام مجرد ادعاء!.... وأتمنى أن تعطيه فرصة واحدة هذه المرة فقط.

حاولت النظر إلى محتوى كلماتها، واستيعابها، تقليبها بين جنبات عقلها، ولكنها فشلت لأن مشاعرها كانت أكثر سطوة وتأثيراً، أكملت أمل لترسم ابتسامة مشجعة وهي تربت يدي ترفة المشدودتين في حجرها:

- أنا لا أطلب منكِ مسامحته، فالأمر راجع إليكِ في ذلك، ولكن أريدكِ أن تنظري إلى ما يريده منكِ... لمرة واحدة فقط استقبلي إلحاحه، دعيه يتحدث إليكِ، دعيه يطرح ما في جعبته،

وقد يكون في ذلك فائدة لكِ!

أطبق الصمت عليهما لثوانٍ معدودة، قبل أن تغرق ترفة في بكاء أخير، وتنهيه في انقلاب مفاجئ، يستعيد وجهها فيه بريقه الذي خبا، ضاعت بين مشاعرها، بينما تفجرت في داخلها نشوة لقائهما الأخير، وهوسها القديم به، حسمت أمرها بجملة متسرعة:

- أخبريه أنني أريد مقابلته!

انطفأ لهيب مشاعرها عندما أغلقت أمل السماعة بعد مكالمة قصيرة، شعرت بالندم والحمق، تجلت الحقيقة أمام ذاتها، هل نسيت ما بينهما بسبب لحظة لهفة وأخلفت وعدها لنفسها؟!

أضحى الندم يتراكم على روحها، تقوم من الأريكة وقد ضاق صدرها، تترك أمل تتأمل صراعها الذي فضحه وجهها. تسير إلى النافذة، تزيح ستائرها الذهبية، تفتح نافذتها في ارتجاف، تخرج رأسها الذي لم يغطه حجاب من الفتحة المستطيلة، تتطاير خصلات شعرها الكستنائية، بينما يجمد الهواء بشرتها وعينيها المفتوحتين في اتساع حزين. تغرق في ظلام الليل شيئاً فشيئاً، كل شيء أمام عينيها هو السواد ونقاط ضئيلة مضيئة، والآن هل تتراجع أم تواجه مخاوفها؟ أترميه من حياتها أم تعيده؟

ولو أجبرت على العودة ستعود من أجل أمها فقط، فكيف لها ألا تفكر فيها وتحن إليها، ولكن العودة آخر ما تفكر فيه، مواجهته ورؤيته على الدوام تخالف مشاعر حبها ووفائها لوالدها الذي فجعها موته أمامها.. حتى لو كانت تكن لهُ فيما مضى مشاعر الحب والامتنان، ولكنها الآن تحاول قتلها متى استيقظت بغتة، لتستأصل جذورها قبل أن تنمو ويصبح انتزاعها أكثر إيلاماً.

تمر الدقائق لتخلق في روحها قلقاً مضاعفاً، تجلس على طاولة الطعام ويدها عند فمها، تضغط على أسنانها بانتظار رهيب، منذ دقيقة بالضبط خرجت أمل عنها، وقبل أن تخرج رفعت يدها على شكل قبضة مشجعة، وشفتاها ترسمان ابتسامة مطمئنة.

وقبل أن تكمل تنفسها المضطرب، دق الباب، انتفضت أجزاؤها ارتباكاً، لم تجب على الطارق، إنما وقفت تاركة مقعدها، تنظر إلى الأبواب الخشبية التي تقابلها، إلى أيها تهرب... وهل الهرب حل ترضاهُ! أم أنه من فرط توترها وخجلها منه!

* * *

دق الباب ولم يحصل على إجابة، توقف حينها وخشب الباب يقابله، نطق بهدوء وحنان لعل صوته يصلها وتسمعه:

- ترفة... هل يمكنني الدخول؟

ومرة ثانية لم يسمع جواباً، أخذ نفساً عميقاً، تقدم ودفعه، انفتح بهدوء، أتتهُ رائحة عطر نسائية خفيفة، ظهرت أمامه صالة واسعة أثاثها فاتح.. للحظة أدار بصره في المكان من المطبخ الأبيض النظيف، إلى الأرائك والأبواب، وتوقف عليها. رآها واقفة في المنتصف، ارتفع بصره من ثوبها الأخضر الطويل إلى وجهها الذي احتضنهُ حجاب أسود، عاكساً لونه الأبيض المتورد. حدّق كل منهما إلى بعضهما البعض، في نظرة شوق منه ونظرة ألم منها، فزعت من تقدمه، تأملت منظره الذي كان مختلفاً عن آخر مرة، لباسه مرتب، لحيته مهذبة، وجسمه استعاد صحته قليلاً، وكأن تواجدها على قيد الحياة جعله أكثر إصراراً على الحياة.

ألقى التحية عليها وعيناه لا تبرحانها، تتسع ابتسامته في كل خطوة يقترب فيها منها:

- كيف أمسيتِ يا صغيرتي؟

تتراجع خطواتها، تقفز كل شعرة فيها تنبهاً، لم تتجاوب معه، ما فعلته هو أنها أوقفت خطواتها عن التراجع فقط لكيلا تصطدم بالباب وتحدث فوضى هي في غنى عنها، شجعها وهو يرى ذعرها الظاهر على ملامحها:

- أعدكِ أن أصغي لكل ما تريدين، ولن أحاول إيذاءكِ أو جرحكِ مرة أخرى، هل يمكنكِ الجلوس قليلاً لنتناقش؟

ترددت وهي تراه يتجه ناحية الأريكة وقد خلع حذاءيه عن قدميه. جلس عليها، خلع معطفه الرمادي ووضعه بجانبه.

رصت على قبضتيها، عادت إلى قضم شفتها، حاولت ارتداء ملابس الصرامة والقوة، ضربت الأرض بخفها المنزلي. عقدت ذراعيها أمام صدرها وهي تجلس على الأريكة المقابلة له،

تنظر إليه نظرة تحدٍّ مزيفة، سرعان ما تنهار وتتحول إلى إعصار من المشاعر المضطربة، يتأملها مطولاً، يحمد الله أن حالتها الجسدية ما زالت كما هي.

مرة أخرى أرسلت إليه نظرة عداوة ولكنها فشلت في الحفاظ عليها، واستبدلتها بصوتها الذي خرج حاداً:

- ما الذي تريده؟

- أريد رؤيتك!

قالها بنبرة دافئة تموجت بالمشاعر المرهفة. خرجت منها شهقة قوية، تبعتها فوضى من المشاعر، احمر وجهها وارتعشت يداها، فقبضت عليهما مستعيدة تماسكها المزيف.

لا يمكنها أن تضعف بسبب عبارة عابرة كهذه!.. وتؤثر بها مشاعرها لتصبح هشة ورقيقة.. تحدق عيناه إليها، يبحث عن فرصة لقول ما يخبئه بين شفتيه، يتوتر بسبب تلك الكلمة التي يظنها أكبر من علاقتهما التي عاشا عليها طوال السنوات العشر، تتعثر شفتاه بها، فيكتمها وهو يرى النفور والاضطراب الواضح عليها. هل يمكن أن تتوج علاقتهما بمملكة الزواج؟ ليعوضها عما فعله لها، ويحميها تحت جناحيه بعيداً عن منغصات الحياة، وهو يكن لها حباً أبوياً!

اتخذ قراره قبل أن يتأرجح بين مشاعره، ودون مماطلة رمى ما يريده بلهفة واضحة:

- ترفة... تزوجيني!

استيقظت كل خلية في جسمها، مستقبلة إشارة عصبية، هبت واقفة وقد أفزعها قوله. فتحت فمها ببلاهة، أغلقته في محاولة ابتلاع الصدمة. تجولت عيناها على وجهه المتحفز، وهما تكادان تخرجان من مكانهما من هول ما سمعته، خرجت الكلمات من فمها متدحرجة:

- ما الذي قلته؟

رد بهدوء يحاول استقبال صدمتها بأقل الأضرار:

- أريد الزواج منكِ!

ظلت باهتة حائرة لثوانٍ، قبل أن تتحرك بضع خطوات إليه، تقف قرب الطاولة الزجاجية، تضربها برجلها من الارتعاد، لا تشعر بالألم، وإنما تشعر بالذهول يحتجز تفكيرها... حاول تهدئتها، نهض ليقابلها ويده ترتفع إلى شعره الأسود، مسح عليه في توتر وتكلم:

- على مهلكِ.. سوف تؤذين نفسكِ!

تقابلا وجهاً لوجه لا تفصلهما إلا خطوتان، هي مدموغة بالصدمة، وهو متوتر ويتمنى ألا تصعب الأمور عليه، وأن توافق وينتهي هذا العذاب في أقرب فرصة!

خرجت كلماتها متعثّرة:

- أنت مجنون!

همس ومشاعره الجياشة تلتصق بكلماته لينهي تخبطها، وتخبطه:

- لست مجنوناً، إنما أنا إنسان واقعي لأنه الحل المناسب لنا... فكيف لنا أن نعيش مفترقين بعد كل هذه السنين... يا عزيزتي عودي معي... وعودي إلى منزلكِ، لأنه بات مظلماً من بعدكِ، مقفراً لا حياة فيه.

صمت يتأمل ذهولها للحظة، حرر أنفاسه المحبوسة ليهمس بحنان وحب:

- إن بعدكِ قد سلبني راحتي، وجعل من حياتي جحيماً لا يطاق.. أنتِ روحي فكيف لي أن أعيش دون روحي!.. أنا أريدكِ كما أنتِ، أريدكِ أن تعودي ترفة ذات الروح المرحة، والابتسامة المشرقة، ترفة مدللتي... أريدكِ أمام عيني محروسة، أريد حمايتكِ، خذيني كلي لكِ.. خذي روحي فإنها ترخص لكِ.

المعانقة التاسعة

ينطلق صوت آلة الخياطة عازلاً عنها كل الأصوات الباقية، توقفها مغيرة الدواسة إلى واحدة أخرى، تدخل خيطاً آخر في الإبرة بينما تثبت أصابعها القماش على السطح المعدني، وتبدأ من جديد رحلة الضجيج. تغرق نفسها في العمل متناسية مشاكلها الشخصية، ولكنها ما إن تقف قليلاً حتى تراودها الأفكار.

تقوم من جلستها الطويلة، ملقية نظرة خاطفة على بعض الخياطات اللاتي يجلسن حول طاولة خشبية يتناولن الطعام عليها، تلقي تحية الوداع عليهن، ولكنهن يلححن عليها للمرة الثالثة في الجلوس معهن وتناول الطعام.. ترفض بأدب وتتعذر بشهيتها المسدودة، تمشي خارجة من الغرفة التي تبدو كالقبو من متانة جدرانها وإضاءتها الصفراء، وقصر ارتفاعها، تمد يدها إلى الخزانة، تفتحها.. تلتقط معطفها الأسود منها وحقيبتها بملل. وكأن كل تلك الساعات السبع المرهقة لم تكن كافية لها!

تعود إلى الشقة بعد غياب طويل، تضغط على اللوحة بالرقم السري، ينفتح الباب، تدخل دون أن تفكر في إلقاء نظرة على المكان، فقط ما كانت تفكر فيه هو الدخول إلى الغرفة والانطواء تحت لحافها البارد، والغرق في النوم إلى الغد، لعل الغد يكون أكثر عملاً وإرهاقاً لكيلا تجد فيه وقتاً للتفكير، فغداً سوف تذهب إلى أحد محلات الأقمشة والزينة لشراء بعض الأغراض لأحدى الزبونات، وهذا يعد من أفضل الأمور التي تقوم بها.

ولكنها تتوقف، تضطرب عندما ترى المرأة القصيرة التي ترتدي ثوباً عشبياً فضفاضاً على جسدها السمين، كانت أم أمل واقفة أمام الثلاجة المفتوحة ترتب الأغراض في داخلها، تغمض ترفة عينيها في قلق، لأنها تستحي منها وتنزعج عندما تخوض معها في حديث، فهذه هي المرة الثالثة

التي تلتقيها. في المرتين السابقتين انهالت عليها بالأسئلة دون خجل، ولكن تواجد أمل جعلها تخرج من ذلك المأزق، فلم تجب على أي منها.

تلتفت المرأة الكبيرة إليها، ترمقها بنظرة مرتابة، تتقدم ترفة ناحيتها، تلقي التحية عليها بينما تقبل خديها، تتحدث أم أمل متذمرة:

- لماذا لا يوجد طعام كافٍ في الثلاجة؟ ولماذا رفوف الخزانة خالية من الأطعمة المعلبة؟ ما هذا الإهمال من جانبكما؟

تصمت ترفة في خجل، تحاول الإجابة ولكنها تفضل السكوت بعد أن أصبح مزاج أم أمل أكثر عدوانية. تضرب الأدراج ساخطة على أمل، متوعدة إياها بمحاضرة طويلة لعلها في هذه المرة تستفيق من غفلتها وتوافق على العريس قبل أن يضيع مثل غيره.

أحضرت ترفة بعض الشاي، جلست مقابل المرأة التي تطالع هاتفها وحاجباها الرفيعان معقودان، تضعه أمامها وتسكبه في الأكواب. يرتفع نظر أم أمل إلى تلك الغريبة التي تراها أصغر من أن تكون صديقة ابنتها ذات السابعة والعشرين.. لا يعجبها ويزعجها عدم معرفتها لخلفيتها العائلية. يجب أن تكون ابنتها أكثر إلماماً بالأشخاص قبل أن تصادقهم وتدعوهم للعيش معها. تفكر في استياء، بأن ابنتها تحمل قلباً طيباً لا تعلم من أين ورثته، ولا تحب هذه الصفة فيها لأنها تجعلها أقل حذراً.. إنها لا تتقبل هذه الفتاة ولكنها تبدو شخصاً مسالماً. تأملت حجمها الصغير، ووجهها الذي يبدو أجنبياً أكثر منهُ عربياً، قبل أن تبدأ استجوابها المعتاد، رأت أنه الوقت مناسب لمعرفة التفاصيل الصغير والكبيرة، لأن أمل لم تعد حتى هذه الساعة:

- أين يسكن أهلك؟

تأخذ أم أمل رشفة مسموعة من الشاي، تطالعها وأحد حاجبيها مرفوع، تنتظر إجابتها وتتوعدها إن حاولت معاكستها بأنها لن تغفر لها.. تتوتر نظرات ترفة التي ترفعها وتخفضها، تشد على أصابعها، تجيبها وهي تشعر بأنها محاصرة داخل مزاجها المتحكم:

- في قرية في الشمال.

لا تعجبها إجابتها، تضع الكوب على الصحن ليصدر صوتاً مزعجاً، ترفعه مرة أخرى لتسأل، وتجيب ترفة، تسأل وتسأل وتسأل، ولا يعجبها الجواب المختصر، ولا لكنتها ولا تحفظها.. تنتقدها بوضوح، يشحب وجه ترفة، تقول لها «إنها تمازحها» مخفية امتعاضها وراء ابتسامة صفراء.

يحل السكون لبرهة، تأخذ فيه ترفة نفساً مخنوقاً وهي تشعر بالضغط الشديد، قامت من لإحضار الماء، ولكنها عادت لتجلس على الأريكة بعد نظرة غاضبة من المرأة التي لم تنهِ حديثها بعد، سألتها بتبرم منهية كوبها في رشفة واحدة:

- إلى متى ستمكثين لدى ابنتي؟ كيف لأهلك أن يسمحوا لكِ بالعيش مع أُناس أغراب عنكِ، بدل العيش في سكن الطالبات؟

صُدمت ترفة ولم تحر جواباً، إنما كتمت غضبها، وأخفت حزنها في صدرها، وأبقت عينيها معلقتين على الطاولة أمامها. تداركت المرأة الأمر، مضيفة بنبرة غلفتها بالحنان المزيف لكيلا تجرح الفتاة، لأنها تظن أنها تنصحها لمصلحتها وترى أمرها مثيراً للشكوك:

- لا أقصد شيئاً سيئاً، إنما أرى ذلك من وجهة نظر أم، طبعا أنا لا أرفض بقاءكِ مع ابنتي، ولكن ابنتي تسكن بين أهلها وأنتِ غريبة بين أناس أغراب، ألا يضايق هذا أهلك، لأننا لا نعرفهم ولا هم يعرفوننا؟

مدت يدها إلى الصحن الذي على الطاولة ملتقطة منه قطعة بسكويت. التهمتها بهدوء مضيفة بازدراء:

- أظن أنه يجب أن تعرفينا إليهم، لنكون فكرة واضحة بعضنا عن بعض!

في تلك اللحظة التي أنهت بها جملتها. فُتح الباب، دخلت أمل حاملة حقيبتها الثقيلة على كتفها. نزعت حذاءها في ضيق أمام الباب، رمت بحقيبتها قرب الحائط، مسحت أنفها بمنديل أبيض قبل أن ترميه في سلة المهملات، ولكنها توقفت وعيناها المحمرتان تسقطان على أمها، تُنقلهما بسرعة إلى ترفة الجالسة على الطرف الآخر والتي فضح وجهها كدراً عميقاً. نسيت إحباطها، ورمت بحالتها النفسية عرض الحائط. تتقدم ناحيتهما، تجلس محتضنة والدتها، ترفع حاجبيها من

وراء زند أمها الضخم، ترص عليها أكثر وهي تطربها بكلمات الترحيب والشوق، وأمها تحاول إبعادها في انزعاج، ولكن أمل تتشبث بها، وتغمز لترفة لكي تهرب.

تنسحب ترفة بهدوء على صوت حديث الاثنتين متعللة ببعض الأعمال، ترتدي معطفها الأسود ليمتص لونه مشاعرها المرهقة. تنزل من الدرجات لكي تفرغ طاقتها السلبية. مشت تحت الإنارة وقد بدأ الضباب يلف الشارع الخالي من المارة، ويضيف على مشاعرها نوعاً من التشوش. وأخيراً بعد طول مسير، استرخت على مقعد أمام الحديقة المقابلة للبناية السكنية. نظرت إلى السماء المظلمة، وإلى النجوم التي بدت بعيدة لا تُرى جيداً، غرقت في أفكارها، فبعد حديث أم أمل تغير مسار أفكارها ليضطرب وتتجلى أمام عينيها الوقائع؛ لا يمكنها أن تمكث عند أمل أكثر من هذا!.. يجب عليها أن ترحل قريباً.. فهي تشكل عبئاً عليها واستنكاراً من عائلتها، ومن الواضح أن أم أمل لا ترغب بتواجدها لدى ابنتها، ولا يمكنها أن تتقبل إهاناتها وتبقى أكثر من هذا! وهي غير مرغوبة! وليس لديها من تعود إليه، ليس لها عائلة ترتبط بها. فذياب قد قطعها من الجذور، ووضعها الآن أمام واقعها المر، كانت فيما مضى تمتلك عائلة ولكنها الآن لا تملك إلا نفسها، فكيف تعيش وحيدة بين القطيع.

إذاً.. يجب عليها أن تتصرف، وألا تخسر المعركة قبل أن تبدأها، صحيح أنها أصبحت محاصرة ولكنها ستفك الحصار بطريقتها، ستتقدم إلى الأمام حتى إن كان ذلك يعني الخسارة بمعنى آخر، ولكنها لا تملك إلا حلاً واحداً. ذلك الحل الذي ترفضه، وتزدريه، تشعر معه بطعنة غادرة في الصدر. شدت على شفتيها وقبضتاها تتشنجان على المقعد الخشبي. تتعثر بأفكارها، ولكنها تقوم من مقعدها بعد رؤية أضواء سيارة أم أمل الراحلة بعيداً، تصر على المضي في تلك الخطوة التي تجعل قلبها يتأرجح من مكانه كلما تقدمت بخطواتها المسرعة إلى الأمام، لا يمكنها أن تتراجع بعد أن اتخذت قرارها!

تدخل إلى الشقة الهادئة، تجول ببصرها في المكان فلا تجد أحداً، تلتقط هاتفها من حقيبتها الموضوعة على المنضدة، تدخل إلى الغرفة التي انطفأ ضوؤها، لا تشعله، وإنما تجعل الباب مفتوحا ليدخل الضوء من خلاله. تتقدم ناحية السرير، تجلس على الأرضية الباردة وظهرها يستند على الخشب، تضغط على أزرار الهاتف، ينتشر نوره على وجهها، وأصابعها تضغط على أرقام تحفظها عن ظهر غيب، تنظر إليه وهو يرن، عيناها تحبسان ألمها، تغمضهما في اختناق، ترتفع

يدها إلى صدرها، تمسده، مخففة من اضطراب ضربات قلبها، يسير إصبعها إلى الأيقونة الحمراء، ولكنها تتوقف في تردد، أتنهيه أم تستمر! ولكن ظهور الثواني التي تشير إلى رفع السماعة أمام عينيها جعلها تتوقف، رفعته بتردد إلى أذنها، ألصقتهُ بها، ابتلعت ريقها، سمعت صوته البعيد:

- من المتصل؟

تغص بالكلمات قبل أن تخرج:

- أنا..

يرد بصوت مندهش:

- ترفة!

تنفتح شفتاها دون كلمات، تغلقهما في هشاشة، تتوه بين أفكارها، ولكنها تحاول انتزاع الكلمات لترميها على نفسها قبل أن ترميها عليه:

- أنا موافقة على ما تريده، ولكن لدي شرط هو أنني لا أريد منك شيئاً!

* * *

في زاوية ضيقة، وراء باب خشبي ذهب لون صبغته البنية ليظهر سطح الخشب عليه، جلس طفل في التاسعة من عمره كعادته مستنداً إلى الحائط، وبجانبه حقيبته المدرسية السوداء التي مضى عليها زمن طويل من الاستخدام، ومن السطح المهترئ الذي تقشر سقفه الأبيض تساقطت قطرات المطر بتناغم على البلاط المغبر.

كان الطقس بارداً ممطراً، ولكنه لم يكن يشعر بالبرد، وهو يلبس ملابسه الصيفية الرثّة. كان لا يهتم، فأكبر اهتماماته ألا يكتشف أحد ما مكانه السري، وهو غرفة المخزن الخارجية والتي أصبحت ملاذه في الفترة الأخيرة، ففيها يستطيع الدراسة دون أن يصب أحد ما عليه جام غضبه أو يرفض ما يفعله، ولكن ذلك الهدوء لم يدم إلا فترة قصيرة. يصله صراخهما بعد أن توقفت نقرات المطر، ومعاركهما الطاحنة التي اعتادها منذ أن ظهر إلى الدنيا، فكلاهما لديه نفس القوة ولكنهما متعاكسان، فأمه تملك لسانها أما أبوه فيملك يده التي لا يقدر على استخدامها في أغلب الأوقات.

انكمش على نفسه وهو يدعو الله في سره أن ينتهي صراعهما، يضع كتاب التربية الإسلامية أمام وجهه، يتذكر كلام المعلم عن مناجاة الله، فهو قد تعلم كل تعاليم دينه من المدرسة، ومنذ ساعات وهو يتنقل من كتاب إلى آخر، حتى لو كانت ظروفه الاجتماعية سيئة، فهو سيبذل جهده لأن المعلم قال لهُ إنه عبقري، لأنه حل مسألة رياضية صعبة!

لم يستمر طويلاً في اختبائه، إذ إن الجلبة التي حدثت بين الاثنين سرعان ما انتهت، حل الهدوء للحظات، ليسمع بعدها صراخ أمه العالي، فيبدو أن أباه من خسر المعركة في هذه المرة، ويبدو أنه كعادته في حالة سكر. يلملم كتبه التي بجانبه، يضعها في حقيبته بسرعة، يلتحم بالجدار كي لا يصدر همساً يكشفه، ولكنه يسمع وقع أقدامها القريبة وصراخها:

- عامر... عامر... أين ذهبت يا..

تلقي بالشتائم والغضب يكويها، تبحث في كل زاوية من ذلك المنزل القديم، يطوف بصرها من المطبخ الذي بحثت فيه ولم تجده، إلى خلف شجرة الغاف الكبيرة والمعمرة، ترفع ثوبها الباهت لكيلا يتسخ من الوحل، تعود أدراجها إلى غرفتها ولكنها تتوقف فجأة وحاجباها ينعقدان بعصبية. ترى آثار تراب مبلل فوق درجات المخزن الإسمنتية. تجز على أسنانها، تباً لذلك الولد الذي يذكرها بوالده القذر السكير والذي جعلها تندم أشد الندم من أجل مخالفة عائلتها والزواج من أجل الحب، ليذهب الحب وتبقى هي تندب حظها العاثر في عيشة الفقر والسقم هذه، فأهلها لم يقبلوا عودتها إليهم، بعد أن فعلت ذلك الفعل الشائن بزواجها من شخص منحط اكتشفت حقيقته بعد سنة من الزواج.

لم تخفِ تواجدها، إنما صعدت الدرجات القليلة ضاربة الأرض بعنف، صائحة باسمه.

فتحت الباب بكل قوة، قفز جسده الضئيل رعباً، تسمر في مكانه وعيناه مغمضتان، يتمنى ألا تكتشف تواجده، وأن يخفيه الله عن عينيها، ولكنها ضربت الباب خلفها لتقابله، وبسرعة انخفضت وانتزعت حقيبته من حضنه، ولكنه أوقفها وهو يشد إمساكه بها، يتوسل إليها برعب:

- أمي أرجوكِ، إلا حقيبتي... فأنا لم أجلس هنا لكي أذاكر دروسي إنما نمت قليلاً بعد عودتي من المدرسة.. ولم أفعل شيئاً خاطئاً، صدقيني اليوم لم أذهب إلى المطبخ لأبحث عن الطعام

دون إذنكِ أو أدخل إلى غرفتكِ، كل ما فعلته هو أنني غسلت ملابسي المدرسية ولبست البيتية قبل أن تعودي... هذه المرة فقط اصفحي عني!

لا يمكنها ألا تصب جام غضبها من والده عليه، ولا يمكنها تحمل العيش معهما تحت هذا السقف البائس وفي هذا الفقر المدقع.

رفعت كفها، صفعته على وجهه، وعلى باقي أجزاء جسمه لتجعله يترك حقيبته، تركها بسبب عنفها، رفعتها إلى الأعلى، قلبتها لتتساقط كتبه على الأرض الرطبة، تناثرت بعض الأوراق على الأرضية والتصق بها بعض الماء، أطلق صرخة مذعورة وهو يراها تهم بقطع أوراق كتاب، انطرح يلتقط كتبه، محاولاً الدفاع بشراسة عنها، توقفت للحظة، وعقدة حاجبيها تنحل، سألت نفسها ما الذي تفعله؟

هي لا تكن له مشاعر الحب الفياضة ولكنها تكن له القليل والبسيط من مشاعر الأمومة، خرجت صافعة الباب، قائلة بلهجة قاسية من خلفه:

- إن رأيتك مرة أخرى تختبئ مثل اللص، وتذاكر تلك الكتب، بدل المساعدة والذهاب إلى بيع البيض والحطب، فسوف ترى ما لا يرضيك مني.

تعود بعد أن حل الظلام، تدخل إلى تلك الغرفة الباردة، تأتيها رائحة الخرس، ويحوم حولها البعوض، يسطع ضوء المصباح الذي في يدها على النافذة المغلقة أمامها، ومن ثم توجهه إلى صف الكراتين المغبرة الموضوعة بعضها فوق بعض.

تمضي إلى أين تركته، يقع ضوء المصباح على جسمه النحيل، وشعره الأسود الغزير، تحاول رسم الابتسامة فتغص بها، تراهُ نائماً بهدوء، لا تعرف إن كان هو ينعم بالهدوء كمظهره!... كانت قاسية عليه منذ قليل، والآن تندم على ذلك، ولكنها لا تستطيع إظهار عكس مشاعرها نحوه، ولكن عليها أن تحسن معاملته غداً، قررت ذلك في لحظة ضعف.

ولكن مضى الغد وبعد غد وتتابعت الفصول، إلى أن انتهى الأمر كما هو ولم يتغير شيء!

وبقيت ذاكرته تحمل ذكرياتها الرمادية.

* * *

استيقظ مفزوعاً من نومه، جلس على سريره، ويداه ترتفعان إلى شعره، أمسكه وهو ينظم أنفاسه اللاهثة، التقط قنينة ماء من المنضدة، شربها بجرعات متفاوتة، وعاد بعدها إلى الاستلقاء هو يعاني من الاضطراب... لماذا راوده ذلك الحلم بعد كل هذه المدة!

وبعد أن حاول دفنه في دهاليز عقله، وقد ظن أنه استأصله منذ زمن بعيد!

قام بعد أن جافى النوم عينيه، لبس بدلته الرياضية الزرقاء، نزل من السلم وهو يضع قبعته المتصلة بقميصه على رأسه، كان ظلام الليل في آخره، والغيوم المتقطعة تغطي أفق السماء، هرول على الرصيف المخصص للمشي، قطع أربع كيلو متر قبل أن يعودها، وقد تخلص من مشاعره السلبية ليبدأ يومه بكامل حيويته كما يريد. توقف عند أحد المقاهي. أخذ له كوبا من القهوة المرة مع فطيرة سبانخ. تسلّل إليه أول خيوط الشمس وهو يخرج من المقهى، مشى على الرصيف بضع خطوات، قطع الشارع، توقف في الجهة المقابلة وعيناه تقعان عليها. ظهرت أمامه من المقهى الذي خرج للتو منه، قفزت مسرعة من الدرجات رافعة طرف ثوبها الزهري، مشت قليلاً، رفعت كوب القهوة المثلجة إلى فمها، أخذت من الماصة رشفة طويلة قبل أن تمضي بعيداً عن مرمى عينيه، حدق بهيئتها التي بدأت تصغر أمامه، وهو يشعر أنه افتقد تلك الطاقة الإيجابية التي كانت تنبعث منها، ولا يمكنه أن ينكر أنه يحس بالقليل من الندم تجاهها، لأنها أشعرته في تلك الفترة بالاهتمام، وهو بدأ يستمتع به ويميل إليه، ولكنه سرعان ما تخلص من تلك المشاعر قبل أن تحاول السيطرة عليه، لا يمكنه أن يشفق على كتلة الحمق تلك، ولا يمكنه أن يدخل مشاعر غريبة إلى حياته!

* * *

في غرفة بيضاء واسعة مضاءة، وعلى أحد الأسرة الحديدية ذات الطابقين، استلقت في الأسفل، تدثرت بلحاف أبيض، أغمضت عينيها من غير نوم، تشعر بالتعب والإرهاق بعد عملية جراحية طويلة، ولكن عَيَّ النوم من أن يأتيها، فأفكارها لا تكف عن خلق ضوضاء في داخلها.

منذ ذلك اليوم الذي نوت ترفة مفارقتها، أُصيبت بالإحباط والاكتئاب، كانت تحاول إخفاءه ولكنه يظهر متى خلت بنفسها، أو دخل هو إلى عالمها الهش.

في ذلك اليوم وبعد ساعات طويلة من العمل الشاق الذي بات يتعبها نفسياً أكثر مما يتعبها جسدياً. عادت إلى الشقة ووجدت ترفة تنتظرها بعد أن صنعت طعام العشاء، شعرت ببعض الريبة

بسبب سلوكها المضطرب الذي ظهر في طريقة حديثها وتجنب النظر إليها، ولكنها عزت ذلك إلى الأحداث التي حصلت في آخر مرة، جلستا لتتناولا الطعام، وعند آخر لقمة وضعتها أمل في فمها، ظهر همس ترفة التي لم تأكل من حصتها شيئاً:

- لقد قررت الموافقة على عرضه، والعودة إليه.

سقطت الملعقة من يدها قبل أن تتدارك الأمر، اهتزت كفها وهي تحاول التقاطها، ولكنها فشلت فرفعت بصرها إلى ترفة وقالت مذهولة:

- حقاً!

ارتفعت يد ترفة إلى شعرها الكستنائي، مررت أصابعها بين خصلاته بتوتر ظاهر، فتساقط على طرفي وجهها الذي سكنه الانزعاج، وغرق في صراعه المرير:

- نعم... البارحة هاتفته وأخبرته أنني موافقة.

رفعت بصرها ناحية أمل، ظهر الخجل على وجهها وهي تضيف:

- في النهاية هو وأمه عائلتي الوحيدة، إن كنت سأعود فسأعود من أجل أمي.

جلست على السرير، أبعدت اللحاف عنها، رفعت قدميها ساندة ذقنها على ركبتيها. في الحقيقة لقد استغربت تصرفها، كيف يمكن أن تغير رأيها وتخالف ما قالته لها قبل أيام!

أخبرتها أنها ترفض العودة إلى هناك، ولن تعود ولو تطلب ذلك فعل المستحيل!

ولكنها تريد العودة الآن دون سبب قوي!

هل يمكن أن تكون فعلت شيئاً جعل من ترفة تفكر في الرحيل، أهي والدتها التي ازعجتها بزيارتها الأخيرة؟

خبأت رأسها بين ركبتيها، عليها أن تتقبل ذهابها عنها وتتعود على العيش وحيدة، صحيح أنها في فترة عصيبة، لا تجد فيها مخرجاً ولا توجيهاً يقودها إلى منفذ يخلصها من المصيبة التي وقعت فيها.

منذ أيام كرهت نفسها، وباتت لا تطيق النظر إلى وجهها في المرآة، لأنها عندما حاولت التحايل على عامر والإتيان بأحقر التقارير، اكتشف الأمر بسرعة لم تتوقعها، وأنها تحاول خداعه بأتفه الأساليب.

ولكنها في المرة الأخيرة التي كانت قبل يومين فعلت شيئاً سيئاً لم تستطع نسيانه، لقد دخلت إلى مكتب عمها خالد الذي ائتمنها عليه، واختلقت حجة تافهة للجلوس فيه، وهي أخذ استراحة قصيرة هناك وهو صدقها لسوء الحظ. وقامت بتصوير العديد من الأوراق والملفات، ونظرت في آخر أبحاثه ومستجداته.

أعطته كل ما لديها، وكأنها ترميه عليه لتتخلص من عقدة ذنبها تجاه نفسها، ومن تهديداته المستمرة لها، وبعد ذلك صدمت من نفسها، ولم تجد راحة في الجلوس، وكان البكاء عزاءها الوحيد، عزاءً لنفسها وللأشخاص الذين خانتهم!

مسحت دموعها التي سقطت عنوة، مسحتها بقوة لكي تذكر نفسها بأنها الجانية ويجب عليها أن تتحمل الجرم الذي ارتكبته في حق أقربائها، وأن لا تلوم غير نفسها.

ارتدت قميصها الأبيض، ذهبت في دورة اعتيادية، تتفقد فيها مرضاها، مرت على جميع الغرف، حاولت عدم ارتكاب الأخطاء، لأنها باتت تجزع من الوقوع فيها.

تلاقيا على الطريق متعاكسين، هي تنظر إلى الأسفل متجنبة إياه، أما هو فنظراته لم تفارقها، توقّف متردداً بعد أن تخطته، وعيناه تنظران إلى حذائه الأسود، رفع بصره، التفت إليها وعلى غير العادة ناداها وهو يختلق في عقله عذراً لنفسه:

- دكتورة أمل..!

أخرجت نفساً مسموعاً لنفسها، رفعت كفها، ووضعتها على عينيها بانفعال قبل أن تنزلها بسرعة، أدارت جسدها إليه وانتفاضة تسري في بدنها، ترد عليه في لوعة واضحة:

- نعم..!

حافظ على تجهمه المعتاد، غطى نفسه بالصرامة، قال وكلاهما يرشق الآخر بنظرة حادقة:

- هل يمكنني الحديث معكِ قليلاً في أمر مهم!

أبعدت نظرها عنه بفتور، أومأت موافقة، وهي لا تجد طريقة للخلاص منه إلا المضي في طريقه المحفوف بالمخاطر، هذه المرة سترى ما الذي يريده!.. ألا يكفيه ما حصل عليه في المرة الأخيرة، أم أنه سيستمر في طغيانه وطمعه!

وقفا أمام أحد الأبواب الترابية الذي شابه لونه الجدران المحيطة بهما، وضعت كفيها في جيبي قميصها الطبي، تخفي ارتجافها عنه، وعيناها تنظران إلى ثوبها الزهري الذي ظهر من تحته، التزما الصمت برهة من الزمن قبل أن يقطعه هو بنبرة استفزتها:

- هناك ملف ناقص، وبعض التقارير التي أريد الاطلاع عليها، وأيضاً عمكِ راشد قد جاء دوره لكي تأتي لي بما في جعبته.

صمت يتأمل تعابيرها التي بهتت، تصاعدت الدماء إلى وجهها وهي تسمعه يكمل بكل برود:

- أريد معرفة إن كان أخذ مني شيئاً، في الحقيقة أنا أشك فيه، فهو لا يعجبني..

صدم من نفسه فبتر جملته، أما هي فرفعت وجهها إليه بغضب، صُدمت من وضوحه وتماديه في استغلالها، واستهانته بمشاعرها!

- عليك اللعنة، يا لك من حقير!

تلاشت كل الأصوات المحيطة بهما، وبقيت جملتها معلقة في الهواء.

انفتح فمه في ذهول، رد بهمس:

- ماذا!

اتسعت عيناها، تدفق غضبها، ثار في داخلها، انبثق لينكمش وجهها في اشمئزاز، صرت على أسنانها، وهي ترفع يدها أمام وجهه المندهش وتوقفه، وتهمس من تحت أسنانها:

- كفى!

أشارت إليه، ووضعت سبابتها أمام وجهه، أكملت وصوتها يعلو:

- لا يمكنك أن تصل إلى هذا الحد!

- إلا عمي، فأنا لن أسمح لك بإهانته!

اهتز صوتها، تزعزعت قوتها، رصت على شفتيها في محاولة للحافظ على شجاعتها ورمي كل تخاذل يأتيها مع كل كلمة تخرج، أخرجت كلماتها بأسى:

- لقد سمحت لك باستغلالي لأسباب واهية وغبية، وأنا المخطئة لأنني جعلتك تستخدمني في لحظة ضعف مني، فليذهب كل شيء إلى الجحيم وأولهم أنت!

ارتفعت يداها إلى وجهها الذي أخفضته عن ناظريه، وفجأة ومن دون مقدمات انخرطت بالبكاء، حاولت كتم صوتها بابتلاعه، ومسح دموعها بشكل لا يلاحظه، ولكنه لاحظها، تراجع خطوة إلى الوراء صدمةً من بكائها، وقف متصلباً متأثراً بكلماتها وهو يراها تتخطاه، وتذهب دون أن يلتفت إليها.

حاول عقد حاجبيه ولكنه لم يفلح، لأن وجهه تسمر في دهشته.

طرق قلبه أضلعه، حاصره الألم، شعر بالندم يتسلل عميقاً في ذاته، عادت إليه صورتها الباكية، فأحس بنخزة ثانية في قلبه، أغمض عينيه وهو يرفع وجهه إلى الأعلى، لا يعلم سبيلاً للخلاص من هذه المشاعر، لماذا وصل إلى هذا المستوى المتدني وأظهر لها مكنونات نفسه وتمادى؟!

كان يظن أن الأمور ستكون أسهل باستخدامها، ولكنها ظهرت عكس ذلك، إذ إن المشاعر الشخصية تدخلت في الموضوع لتقلبه رأساً على عقب، وتدمر كل شيء، مسح وجهه، وهو لا يعلم كيف يتصرف بعد الآن وبعد أن تعقّدت المشكلة وأصبح الخروج منها أصعب!

* * *

عادت إلى الشقة منهارة، فتحت الباب، أتتها رائحة البخور، دخلت والصمت يلف المكان، سقط بصرها على طرف ثوب ترفة الأصفر الجالسة في منتصف غرفتهما، تتقدم ليتضح باقي جسمها المختبئ وشعرها المربوط كذيل حصان، وتظهر أمامها حقيبة السفر السوداء.

في كل خطوة كانت تتقدمها، كانت تحاول رسم ابتسامة ولكنها تعجز عن الحفاظ عليها، لتتحول إلى شحوب يطوي ملامحها، اليوم سترحل عنها ترفة، لتتركها في وحدتها!

وصلت إليها أخيراً، خلعت حجابها، فكت شعرها لتطويه مرة أخرى بأيدٍ مرتعشة، جلست بجانبها وهي تحاول السيطرة على مشاعرها المرتجفة، ومنع أيّ دمع من الانسكاب، ضحكت ببلاهة، ناغشتها لتسيطر الأخرى على مشاعرها بصعوبة، وتمثل لها أن مزاحها يبهجها. أخفضت أمل رأسها في حرقة خنقتها، تمزقت بين رغبتها في البكاء والكتمان. همست ترفة التي حاولت مقاومة دموعها التي انهمرت قسراً:

- هل أنتِ بخير!

همس ترفة الحزين فجّر ينابيع الألم في داخلها، أجهشت بالبكاء وهي تضع يديها على وجهها وتنخفض إلى أن تلامس قدميها، ولكنها تعود لتصلب جذعها، تنهي به لحظة بكائها وهي تكفكف دمعها، ولكن وجهها المنتفخ كشف غصتها، تحدق كل واحدة إلى الأخرى في سلوة تنشدها، وطبطبة تخفف من أوجاعهما، ربتت كل واحدة على يد الأخرى مشجعة، مزيفة حقيقة مشاعرها المدمرة.

لم تعلم أمل لِمَ لم تسألها شيئاً!

ولم تحاول ترفة فتح حديث معها!

ففضّلتا الصمت في ذلك الجو الكئيب.

كل ما فعلتاه في تلك الساعات القصيرة التي فصلتهما عن لحظة الفراق هو ترتيب الأغراض، مسح الطاولات، وتنظيف كل ركن في الشقة، لكي تتخلصا من ذلك الحزن الجاثم على صدريهما.

وقفتا لوقتٍ طويل في المطبخ لصنع المعجنات، أكلتاها هناك، تستندان متقابلتين واحدة إلى طاولة الأدراج والأخرى إلى المجلى، حاولتا تبادل الابتسامة ولكن الابتسامة كانت تذبل قبل أن تصل إلى الشفاه وتتسلل الغصة بينهما.

اتصل ذياب بترفة بعد فترة قصيرة يخبرها بوصوله، فجهزت نفسها.

وقفتا أمام الباب وكل واحدة منهما حزينة على الفراق، تركت ترفة مقبض حقيبتها، تقدمت خطوتين، رفعت ذراعيها، واحتضنت أمل الواقفة ودموعها تنذر بالسقوط، انفجرت ترفة بالبكاء، تساقطت دموع أمل، طبطبت على ظهرها هامسة في رجاء:

- لا تبكي... لأنكِ تجعلينني أبكي... ترفة سأشتاق إليكِ، لا يجب عليكِ أن تنسيني، ولا يجب أن ننقطع عن بعضنا أبداً.

ابتعدتا عن بعضهما، تمسك كل واحدة منهما كف الأخرى، تشد عليها في لوعة، هزت ترفة رأسها، قالت وصوتها يختلط بنبرتها الباكية:

- من المستحيل أن أنساكِ، سأزوركِ دائماً وأنتِ أيضاً يجب عليكِ فعل هذا!

وعدت كل منهما الأخرى على الإيفاء بالوعد، ونزلتا في المصعد إلى أسفل العمارة، توقفتا تحت أنوار مصابيح العمارة وظلام الليل، وأمام مصابيح السيارة البيضاء التي رسمت ظلالهما، حرك الهواء ملابسهما الداكنة الشتوية، وجعل كل واحدة منهما تشد على معطفها. هذه المرة ابتسمتا ابتسامة صادقة أظهرت كل واحدة منهما امتنانها للأخرى، تبادلتا القبل على الخدين، حينها ترجل ذياب من السيارة ليقطع وداعهما الذي ظن أنه انتهى، رفعت ترفة كفها إلى الأعلى وهي تسير إلى السيارة، أخذ ذياب الحقيبة ووضعها في الخلف.

نزلت أمل درجة واحدة وهي ترفع يداً مرتجفة إليها، مشت ترفة بلباسها الأسود وقدماها تنتعلان حذاءً بنياً، ترفع قدمها لتستقل السيارة ولا تزال يدها تلوح. تختفي الكف في السيارة، ولكنها تظل تلوح في خيال أمل، تنطلق السيارة، تهب الرياح، تتطاير أطراف وشاحها الرمادية، ينحسر ثوبها البني بفعل الهواء، تظهر قدماها العاريتان، تتساقط قطرات المطر الغزيرة، تهدر الرياح عاصفة، ولكنها لا تشعر بضرب قطرات المطر والهواء البارد على وجهها وجسدها، إنما تشعر به في داخلها؛ ففي داخلها عاصفة هوجاء، عصفت إلى أن دمرت، ولم تذر إلا الركام.

المعانقة العاشرة

لفهما الظلام وهما في الداخل السيارة الدافئة، التي توقفت أخيراً أمام باب المنزل. سقطت أضواء الشارع في الخارج أمام أنظارهما السارحة في زاويتها الخاصة، منذ أن سارت السيارة من ذلك الحي وهي تصد بوجهها إلى النافذة، تضع رأسها عليها، تبعده عنها في انزعاج، تنظر إلى الشارع وإلى النور الذي يأتي ويختفي، تحاول السفر بأفكارها بعيداً عنه متجنبة التفكير فيه، بل رافضة أيّ خضوع لمشاعرها.

امتدت يدها إلى المقبض، فتحته ونزلت بصمت، وهو بالمقابل نزل من دون أن يحاول فتح حديث معها، كان متوتراً، لا يريد أن يحصل سوء فهم أو مشكلة تجعلها تتراجع عن قبول عودتها إليه برضاها بعد أن بذل كل جهده. مشى إلى الخلف وأخرج حقيبتها من السيارة. فتحت باب المنزل المغلق، هبت الرياح وحركت معطفها، أغمضت عينيها لتشم عبق الماضي، سارت على ذات الممر الحجري الذي ركضت عليه آلاف المرات في السابق، تجولت عيناها في الظلمة المحيطة بها، كان كل شيء كما تركته، ولكن الأشجار باتت أكثر ذبولاً، والتراب أكثر طغياناً، ولا أثر لقفص الدجاج ولا لحظيرة الأغنام. لماذا أصبح المنزل فارغاً باهتاً. ألِغيابها الطويل علاقة؟! أم هو ذلك التغير الذي طرأ على نفسها، وجعل كل شيء معكوساً على عدستيها سوداوياً؟!

صعدت السلم درجةً درجة وهي تمسك سياجه، وعيناها تتعلقان حيناً بالباب البني، وآخر تُلقيان نظرة على النوافذ التي أطلت الظلمة من خلالها، ما بال المنزل يرسل عتمته إلى روحها، وكأن أناسه رحلوا عنه، أليس فيه من ينتظر عودتها، كما هي تتلهف للُّقيا بعد طول غياب!

سرت القشعريرة في جسدها ويدها تمسك المقبض، ولكنها توقفت للحظات مع انفتاحه القليل، لماذا لم تفكر من قبل بهذه المعطيات! أين أمها من الموضوع برمته! أهي موافقة على ما

يريده ذياب! ألن تعارض ذلك وهي تعتبرها كابنتها!

تدخل.. تتقدم، تسكت أنفاسها عن التسارع مع خطواتها، تنير المصابيح في طريقها المظلم، تتخيل رائحتها، ولكنها لا تجدها، تحاول الشعور بها، ولكنها لا تشعر. كان كُل شيء بارداً هناك إلا جسدها، فهو ينصهر تحت سطوة أفكارها المتعاركة. ركضت، تعثرت خطواتها، كادت تقع ولكنها ثبتت، كانت تريد الوصول إلى غرفة أمها لكي تتأكد من وجودها.

وصلت إلى تلك الزاوية التي لم تنر مصابيحها، قابلت الباب المغلق لاهثة، رفعت يدها، دقت بقبضتها دقات خفيفة قبل أن تجعلها قوية، ونادت مرتجفة:

- أمي... هل يمكنني الدخول؟

تقوّست شفتاها:

- هل أنتِ نائمة؟

- أمي، أتسمعينني؟

رفعت يدها إلى المقبض، انفلت من يدها وانفتح الباب على غرفة مظلمة، فاحت منها رائحتها العطرة المخلوطة بالغبار، شهقت متنفسة، وعيناها تتسعان رهبةً، تقدمت إلى الأمام وهي لا ترى شيئاً من الظلام، وصلت إلى السرير وضعت يديها عليه، زحفت براحتها، كانت لا تريد إزعاجها، فقط تريد لمسها لتشعر بالراحة وليطمئن قلبها عليها، ولكنها ذهبت بعيداً إلى أن وصلت إلى نهايته ولم تجدها، كالمجنونة مسدت كل السرير، تلمست أسفله بأصابعها، سارت ناحية مصلاها وجثت تبحث عنها، كانت تمني نفسها بأمنية لقياها، ولكن الغرفة تبدو مهجورة. أنكرت ذلك، فأين يمكن أن تكون إن لم تكن هنا نائمة، ولماذا لم تستقبل عودتها؟ يرتجف جسمها، تقف وحيدة مخذولة في وسط الظلام، لا تريد إنارة الغرفة ولا الخروج لمعرفة الحقيقة!

خرجت بعد وقت قصير، وقد جاءتها فكرة لم تكتمل رموزها في عقلها إلا عندما رأته يقف أمام باب الصالة وحقيبتها بجانبه. أسرعت بخطواتها إليه وكأنها رمت كل شروخ علاقتهما عرض الحائط.

تصاعدت الدماء إلى وجهه، شد على قبضتيه عندما رآها، وقف حائراً في صياغة الكلمات عندما رأى غمائم الغم تحوم حولها. وقفت منفعلة، تكلمت لتختنق الكلمات عند بداية كل حرف:

- أين أمي؟!

تردد صدى كلماتها قبل أن يحل السكون، وتحيطها الريبة والخوف. شدت على شفتيها، ترقرقت الدموع في عينيها، بحثت في وجهه الحزين عن الجواب ولكنها لم تجد جواباً مطمئناً. أرعبها شحوبه وصمته الطويل، أجابت هي بنفسها وكأنها تتذلل أمام ذلك الأمل لكيلا يردها خائبة، وتتخيل أن يرد عليها مومئا أنها على حق:

- هي عند خالتي صحيح، لماذا لم تعد لاستقبالي؟

مجنونة هي لتصيغ المعادلات على مزاجها، وتريد أن ترى ما تريده فقط، وتنكر إحساسها المرعب.

وعد نفسه منذ زمن أنهُ سيكون واضحاً معها، ولن يعيد غلطته، ولكنه الآن لا يستطيع جرحها وهي بهذه الحالة المزرية، من الممكن أن يكون ألمها أشد من ألمه، ولكن يجب عليه أن يخبرها الصدق فقط، ويحاول العيش معها لوحدهما على ضفاف ذكرياتهما الحلوة والمرة، وعلى ذكرى روح الفقيدة.

نطق ووجهه يحمل من الحزن ما لا يطيقه قلبه:

- يرحمها الله.

انتفضت على كلماته، وقعت الواقعة على رأسها كالصخرة، انهمرت دموعها الحارقة، بللت أطراف وجهها، أيمكن أن يحرف سمعها الكلمات! ويجعل ما أحست به حقيقة!

* * *

مضت أيام على عودتها إلى هناك، ومضت أوقات طويلة لم تستطع فيها الخروج من حصار الاكتئاب واللوعة، والبكاء على فراق الأحبة، لقد حدث الفراق من دون وداع، وبات الوداع مجرد شكلية تمارس مع النفس لتخلص من الحسرة.

لازمت غرفتها التي لم يحرك فيها ساكن، فلون الحياة فيها أصفر، وراحة النوم فيها وردية، ولكن الألوان في عينيها انعكست إلى الأسود والرمادي.

والخادمة التي عادت إلى حياتهما بعد أن كانت عند خالته، كانت في كل يوم تأتي إلى غرفتها، تطرق الباب، تدخل لتضع الطعام أو تخرج بالصحون التي تبقى كما هي. ترتب الملاءات وتجمع المحارم المرمية، تنظر إلى جسدها الراقد على السرير أو على السجادة في حزن، فثيابها تبقى أياماً عليها دون تبديل، شعرها منتفش، وجهها ذابل ومنتفخ من كثرة البكاء.

وكانت ترفة في بعض مرات تذرع الغرفة في اختناق، ومرات أخرى تفتح النافذة ليدخل الهواء إلى رئتيها ويعيدها إلى الحياة قبل أن تموت حية.

وفي ليالٍ كثيرة كانت تقوم من النوم مفزوعة على حلم، تكون هي البطلة فيه وأمها أحد أبطاله المفقودين، لا تجدها في الحلم أيضاً. لقد رحلت عنها دون أن تظهر امتنانها لها، ومن دون أن تطبق شيئاً من نصائحها وإرشاداتها، فهي لم تكن تعطي نفسها أي فرصة لاستيعاب حديثها في ذلك الوقت، والآن هي تشعر بالغصة تقف في منتصف بلعومها محاصرة بمرارة الفقد.

تجلس على السرير بعد نوم طويل وأشعة الشمس تتسلل من النافذة المغلقة، تمسك أطراف رأسها من صداع بات يلازمها في الآونة الأخيرة. تسمع دق الباب ولا تجيب، فلا أحد يزعجها إلا هما، ولكنها لا تعبأ لهما، فليحدثا نفسيهما، فهي باتت لا تشعر ولا تحس.

لحظات فصلتها عن العالم وهي تحدق إلى النافذة، ولحافها يغطي نصف جسمها، انفتح الباب، فاحت رائحة غريبة في المكان، رائحة نفاذة داهمتها، التفتت إلى مصدرها، اتسعت عيناها وهي ترى رأس الأفعى يدخل إلى مخدعها، تناقضتا في الصورة والحالة، تدخل تلك من الباب بكامل زينتها، وابتسامة متغنجة تزين شفتيها المطليّتين بالحمرة الفاقعة، وجسدها الطويل يلبس من الأثواب ما سر النظر وغلا في الثمن، كان أحمر كلون شفتيها، ويا لذلك الغلو في الزينة والمجوهرات التي كانت في غير وقتها. ألقت التحية ونظراتها المتفحصة تطوف في كل زوايا الغرفة، قالت أخيراً بعد أن وصلت إلى تلك المصعوقة منها:

- أخبروني أنكِ عدتِ أخيراً، وبأنكِ مريضة وأتيت للزيارة، لقد أحضرت معي لكِ من أطيب الطعام وأشهاه، لعل نشاطكِ وعافيتكِ يردّان إليكِ وتتعافين!

كان حديثها مناقضاً لما تشعر به، ولم يخفَ ذلك عن الأخيرة التي رفعت اللحاف عنها، رفعت يديها إلى شعرها ولمته بارتجاف وعيناها تتحديان علياء، قالت بصوت مبحوح:

- ما الذي أحضركِ إلى هنا؟

ردت علياء بازدراء:

- أهكذا يستقبلون الضيوف، كعادتكِ لم تتغيريِ، ابنة حرام!

تمالكت نفسها قبل أن تنفجر بالبكاء، فهي ليست في وضع يسمح لها بتلقي الإهانات، لامست قدماها الأرضية الباردة وهي تعتدل، قالت بحرقة:

- اخرجي!

أطلقت علياء صوت ضحكة مستفزة، رفعت يدها إلى فمها، مررت أظافرها المطلية بلون البيج على شفتيها، وكأنها تسكت نفسها وقالت:

- تطردينني... اطرديني كما تشائين... ولكن أخبركِ من الآن أن خططكِ لن تفلح وتمثيل دور الضحية لن يجدي، ولن يجعله يحبكِ أو ينظر إليكِ كامرأة كاملة.

وقفت من مكانها، تقدمت خطوتين مهتزتين، انتابها الدوار فتوقفت، أغمضت عينيها بألم، رفعت يدها إلى الأعلى توقفها، أشارت إلى الباب، صرخت عليها:

- اغربي عني يا وجه الشؤم، اللعنة عليكم أجمعين، أنتِ لستِ طبيعية، أنتِ مجنونة، أهذا وقت نبش الجروح؟ خذيه على طبق من ذهب... وأتمنى لحياتكما أن تدخل من جحيم إلى جحيم!

اتسعت عينا علياء، صدرت منها زهزقة عالية، لم تستطع تمالك نفسها من الفرحة لحال الأخيرة، أحست بالراحة أخيراً وهي تراها مدمرة لا تريد ذياب لأسباب لا تعلمها، لا يهم فالمهم أن تخرج من حياتهما كما دخلت إليها.

* * *

استيقظت من النوم متأخرة لأن لديها دواما ليليا، أحست بالنشاط فجأة، اشتهت صنع صينية "محاشي بالخضروات واللحم" وأكلها مع أخيها وعمها، فصنعتها ووضعتها في قدر كهربائي بطيء الطبخ وضبطته لمدة عشر ساعات إلى حين عودتها، ووضعت ثيابها في الغسالة لكي تأتي الخادمة بعدها وتكمل الباقي. بعد الانتهاء ذهبت إلى دورة المياه، نظرت إلى وجهها الباهت في المرآة، رسمت على شفتيها شبح ابتسامة مستحقرة سرعان ما تحولت إلى تكشيرة، اللعنة على ذلك اليوم الذي مالت بمشاعرها إليه، كم كانت غبية وطائشة لكي تعجب بشخص وضيع مثله، رفعت أصابعها إلى شعرها، سرحته، وضعت عليه زينة حمراء، دللت نفسها بقناع من طين، كحلت عينيها الواسعتين، وضعت كل ما تستطيع على وجهها من مساحيق تجميل، لتبدو أفضل من كل يوم وأكثر إشراقاً وحيوية، لبست أفضل الثياب وأحدثها، انتعلت كعباً عالياً، وحملت حقيبة ثمينة. تنفست بعمق وهي تخرج من الغرفة، طاف بصرها بكل زاوية تجسدت فيها ذكرياتها مع ترفة، لا تنكر أن الحياة في الشقة باتت أكثر هدوءاً وضجراً، ولكنها اعتادت عليها أخيراً بعد ليالٍ كئيبة.

نزلت من المصعد وهي تضع على عينيها نظارتها الشمسية، صعدت سيارتها، سارت بها قليلاً، توقفت عند أحد المقاهي، اشترت قهوة وكعكا، لا يهم.. فاليوم ستفعل فيه كل ما تريد، ستأكل من الحلويات ما لذ وطاب، ستضحك وتمرح، وستبذل قصارى جهدها في المستشفى.

لمست شمس العصر وجهها وهي تمشي إلى بوابة المستشفى. بدأت عملها وهي تخلق لنفسها نفس البهجة التي كانت عليها سابقاً قبل أن تدمر. الكل لاحظوا ذلك التغير، بما فيهم سلوى التي حشرت أنفها لمعرفة تفاصيل كذبة أمل التي اختلقتها سابقاً، وهي أن لديها مشكلات عائلية.

جلستا متقابلتين في فترة الاستراحة، وضعت الكعك على الطاولة أمامها، وقالت:

- اليوم سيكون يوم الأكل العالمي بالنسبة إليّ!

أومأت لها سلوى مستهزئة:

- نعم.. كلي الأخضر واليابس، ولا تنظري إلى الميزان، وبعد أن تنتفخي، فرقعي نفسك بإبرة عملاقة.

فتحت غطاء كعكة الشوكولاته، رفعت ملعقتها إلى فمها، التهمت قطعة كبيرة وهي ترد عليها:

- لا يهم إن أصبحت بالوناً أو عملاقاً، المهم أن أبهج نفسي.

واستمرتا في الجدال والضحك على أتفه الأمور، إلى أن انتهت فترة الاستراحة.

عادت إلى عملها، طأطأت رأسها خجلاً عندما رأت عمها خالد عند أحد مكاتب الاستقبال عند قسم الجراحة، حاول محاورتها ولكنها تعللت بانشغالها، سارت بلا هدى بين الممرات، جلست في ممر مظلم عند أجنحة المرضى، اتكأ رأسها على كفيها. هي لا تستطيع مواجهة عميها بعد الآن، تخجل من نفسها، بل تكره ذاتها لأنها فعلت ذلك الفعل المشين، من أجل تهديد تراهُ الآن تافهاً.

* * *

منذ أن دخلت اليوم وهو يراها مختلفةً. طوال الوقت وبصره يبحث عنها عند كل باب وممر وغرفة ومكان اجتماع الأطباء أو الممرضين أو الموظفين، وكلما رآها حاول استعادة رباطة جأشه والبعد عن التفكير فيها، كانت ساحرة في عينيه، ولكنها مخيفة في الوقت نفسه، لماذا تبدل حالها فجأة؟ أطرأ أمر ما؟ هل يمكن أنها تنوي فضح أمره! فهما لم يتحدثا أو يتبادلا النظرات منذ تلك الحادثة، ولم تحالفهما المصادفة إلا اليوم، فهي ستكون من الطاقم في إحدى عملياته الجراحية. تقابلا أخيراً عند مكتب الاستعلامات، هو يتكئ بمرفقه على الطاولة ويناقش زميله، وهي تتصفح أحد الملفات وتسأل الممرضة بعض الأسئلة المتعلقة بالمريض. لم يستطع تمالك نفسه من الاستغراب وهو يرى أمل الأخرى التي ظهرت فجأة بعد غياب، ولكنها لم تظهر له، وإنما ظهرت لمن حوله، فعيناهما لم تلتقيا بعد!.. هل يمكن أن تعود أمل إلى ما كانت عليه معه في السابق، وأن تبتسم بحلاوة وعذوبة كلما رأته أو مر هو بجانبها؟ هل يمكن أن يتذوق مرة أخرى طعم شاي الزعفران والهيل أو ذلك الكعك اللذيذ الذي تصنعه يداها؟ لا... فذلك العالم الكبير الذي كانا يعيشان تحت سقفه من قبل أصبح أنقاضاً ولا يمكن أن يُعاد بناؤه ثانية. طرد مشاعره المستفزة لنفسه، منذ متى أصبح يفكر في أنثى!.. لقد وعد نفسه من قبل ألا يدخل إلى قلبه امرأة.

ويا للعجب سارا في اللحظة نفسها إلى غرفة العمليات وبوقت أبكر عن البقية، واستغل هو تلك المصادفة، توقف عندما رأى أن لا أحد في الجوار وقد لمحها من قبل تمشي وراءه بمسافة

قريبة، سطعت الأضواء البيضاء على الممر وعليهما وهو يناديها فجأة:

- أمل..

كانت صدمة لها نطقه لاسمها مجرداً، وهو لم ينتبه لذلك إلا بعد أن خرجت الحروف وتلعثم بها، تدارك نفسه، التفت إليها وكأنه لم يرتكب أيّ خطأ، تواجها في منتصف الممر، هي لم تخْفِ نظرة العداوة في عينيها، وهو حاول خلق تكشيرة مختلقة، لم تجبه، إنما انتظرت حديثه بمشقة، فهي الآن ستواجه ولن تخسر معركة كرامتها التي هُدرت بسببه، ولن ترضخ لتهديداته مهما كان محتواها. تجولت عيناه على وجهها وقلبه الخائن يخفق بعنف، يكاد يضعف أمام نظراتها التي تحدق إليه، فكثيراً ما تمنى في الآونة الأخيرة أن ينظر إلى وجهها كما ينظر الآن، ولكنها الآن تبدو أجمل عما تخيلها، نفض إحساسه المجنون عنه، وتكلم كاللص الذي لا يريد أن يسمعه أو يراه أحد:

- ما الذي حدث معكِ؟

انفتحت عيناها دهشة، وهو ابتلع باقي كلماته لينسى كل ما كان يود قوله إن كان يوجد هناك ما يُقال من الأصل، تلاحق نفسه بسرعة وغطى على سؤاله العفوي، تكلم بشراسة مثيراً في نفسها شبح القلق:

- الذي بيننا لم ينتهِ بعد، لأن الذي تفوهتِ به كان محض كلام غير منطقي وفي لحظة غضب، ولأن الذي طلبته وفعلته يمثل يدا رابحة لي، ولا يمكنكِ الإفلات منه، تعرفين أنك سوف تخسرين الكثير، بل تخسرين كل شيء!

باغتتها كلماته، وجعلت قلبها يتوقف عن الخفقان ثانية ويعود إلى تدهوره ثانية أخرى، حُصرت بين كلماته، ولكنها استعادت قوتها بعد لحظة ضعف لم تفوته، لم تخفض نظراتها عنه، همست من بين أسنانها وعيناها الغاضبتان تجابهان قسوة ملامحه:

- إنما قصدت كل كلمة، افعل ما تشاء، ولكن لا تشركني في مؤامراتك القذرة، ولتفعل ما تريده.

اهتز صوتها للحظة، ولكنها استعادت نبرتها الجادة ثانية لتضيف:

- لا يهمني شيء الآن، فغلطة واحدة تكفي!

تجولت عيناه على وجهها في هلع، هو لا يعرفها حق المعرفة، فكيف له أن يتأكد من أنها لن تكشف ما بينهما لأحد وخاصة لعمّيها، شد على أسنانه، كوّر قبضتيه بجانب قميصه الأبيض، تحدث في حقارة:

- لا يمكنني تركككِ بهذه البساطة، فهذه ليست غلطة، إنما جريمة وأنتِ شاركتِ فيها!

شهقت ويداها ترتفعان إلى فمها، انتظرت باقي كلماته وهي غير قادرة على استيعاب مدى قبح نفسه التي تجلت أمامها واضحة.

تفصّد العرق على جبينه، مسحه في اضطراب، أكمل كلماته بانفعال:

- يجب عليكِ إكمال ما بدأته، والذي بيننا يجب أن لا يعلم به إنسي!

* * *

دخلا إلى غرفة العمليات، تقابلا عند مكان التعقيم، كل واحد منهما ينظر إلى أمامه في دوامة من الأفكار، هي محبوسة بين تهديداته وهو يندم على كلماته ويحس أنه بالغ فيها، اغتسلا بمادة البيتادين، ألبسهما الممرض القفاز، ولكن وعند البدء حدث خطب لدى المريض الذي يعاني من مرض في صمام قلبه، حاولوا إنعاشه بالصدمات الكهربائية، ولكن المنية وافته على إثر سكتة قلبية. نزع غطاء فمه مع صمت المؤشرات الحيوية وأعلن وقت الوفاة، حدثها وهو ينظر إليها من تحت حاجبين معقودين، استقبلت كلماته من الجهة المقابلة وهي تضع من يدها كل شيء:

- أبلغي أهل المريض عن وفاته.

نزعت غطاء فمها وهي تمشي، خرجت من البوابة ونزعت كلا من القفاز وملابس غرفة العمليات الزرقاء، فُتحت لها البوابة البيضاء بعد أن وضعت بطاقتها، ومن المقاعد الحديدية التي على الطرف، ظهر رجل في العقد الرابع، أبيض الشعر، يلبس بدلة بنية غير مرتبة، تفوح منه رائحة منفرة، وبجانبه امرأة بالعمر نفسه، ترتدي ملابس سوداء طويلة وكأنها في فترة حداد. اقتربت من أمل، فظهرت تجاعيدها وعيناها اللتان اختفتا وراء انتفاخ البكاء الطويل، تحدثت قبل الرجل الذي كان ينظر إلى الباب المغلق ويعود إلى أمل:

- كيف حال ابني؟ وهل انتهت العملية بهذه السرعة؟

تعرف أنه من أصعب الأمور إخبار أهل المريض بوفاته، ولكنها لم تهتم، ومن دون أن تقدر على التحكم بملامحها المنزعجة من آخر حديث مع عامر، تكلمت ووجهها غارق في شروده المتجهم:

- عظم الله أجركم، لقد توفي قبل أن نبدأ العملية.

صمتت مخفضة رأسها وحاجباها معقودان، لم تَعِ إلا بلكمة عنيفة تأتيها إلى كتفها من قبضة مجهول، رفعت رأسها في فزع وجسمها يندفع إلى الخلف، تزامناً مع نحيب المرأة التي انهارت على الأرض، تقدم الرجل منها، وعيناه أصبحتا جمرتين متقدتين من الغضب، صاح عليها وهو يهم برفع قبضته مرة أخرى:

- كاذبة.. فوجهكِ المتجهم لا يفصح إلا عن خداع، فابني عندما دخل عليكم لم يكن يعاني من أمر جليل، إنما كانت علته بسيطة... سحقاً لكم من قتلة!

علا صوته، تقدم خطوة أخرى إلى جسمها المتيبس من الصدمة، دفعها بيده مرة أخرى، تعثرت فوقعت على الأرض، ووجهها مرفوع إليه، ارتعبت من لطمة أخرى عنيفة منه، لم تستوعب همجيته واعتداءه غير المبرر عليها، ولا تعلم كيف تحل الأمر أو تهدئه!

انفتح الباب من ورائها، وخرج منه جمع من الذين سمعوا الصياح، وآخرون جاؤوا من أحد الممرات، تجمهر جمع من الأطباء وغيرهم وهم يسمعون بلبلة الرجل وصياحه، أكمل غير مهتم بهم، ووجهه متجعد الملامح، مظهراً استحقاره لها:

- أنتم الأطباء مجرد حثالة، أنتم مخادعون، تقتلون مرضاكم وتدعون أنهم ماتوا لوحدهم، تختبئون وراء زيكم الأبيض مدعين الطهارة وأنتم أنجاس.

تقدم رجل من خلفها صائحاً ومزيحاً المتجمهرين عن طريقة، اقترب منهما رافعاً يده أمام الرجل الآخر:

- توقف مكانك.... وأنتم استدعوا الأمن حالاً.

وقف عامر أمامها، أمسك بذراعي الرجل يحاول تهدئته، وذلك الرجل يحاول مقاومته بقذف الشتائم، جاء الأمن بعد فترة بسيطة، أمسكوه على ارتفاع صوت بكاء المرأة المنتحبة التي حاولت بعض الممرضات تعزيتها ومواساتها.

نهضت تحت نظرات الشفقة من الجميع، عدلت وقفتها، وهي تحس بالوجع في قلبها، وبالانهيار من هذا الموقف البشع، رمقته بعين حزينة وهي تسمع همسه القريب منها:

- هل أنتِ بخير؟

لم ترد عليه، إنما مشت متجاهلة نبرته القلقة، ولكنه أعاد السؤال بنبرة أشد انخفاضاً عن الأولى ليسمعها هو فقط، وتتردد في نفسه طويلاً، إنها ليست بخير، ولا يمكن أن تكون بخير بعد أن ضُربت، فهو قد رآه عندما دفعها ولكن بعد فوات الأوان، وكان بوده لو أنه سدد له لكمة على وجهه وهشمه.

كانت ليلة طويلة لا نهاية لها، آلمتها كتفها، نظرت إليها في مرآة دورة المياه ورأت كدمة أرجوانية عليها، مسدتها، عدلت قميصها، نظرت إلى وجهها الذي أصبح أذبل من كل يوم. قررت أنها ستقدم على إجازة لمدة أسبوعين ابتداءً من الغد، ستذهب فيها إلى الريف عند أهلها، ففي هذه السنة كانت زياراتها لهم قصيرة ومتقطعة بسبب وجود ترفة عندها، والآن يجب عليها أن تعوض ذلك، لأنه لن يجعلها تستعيد حيويتها ونشاطها إلا أهلها وأحبابها الذين اشتاقت إلى رؤيتهم.

ركبت سيارتها، غرقت في ظلمتها، أحست بأنها مائلة على طرفها من الخلف، استغربت ذلك!

نزلت منها، لفحتها برودة ساعات الصباح، شدت على معطفها الرمادي، انخفضت إلى الأسفل تنظر إلى الإطارات، فوجدت واحداً منها مفرغ من الهواء، تحسسته في ارتياب، ما الذي يمكن أن يثقب إطارها فجأة؟ تأوهت في قلق، ما الذي يجب عليها أن تفعله الآن!

استقامت، استندت إلى الباب المعدني، فتحت حقيبتها والتقطت هاتفها، اتصلت بإبراهيم، صاح الهاتف حتى صمت، حاولت لثلاث مرات ولكنها لم تجد إجابة من الطرف الآخر، تعرف أنه نائم ولن يستيقظ في هذا الوقت!

مسحت على وجهها حائرة، ما الذي ستفعله في هذه الساعة الباكرة، شدت على حقيبتها، أغلقت الباب وأقفلت السيارة بالمفتاح، مشت ذاهبة إلى الشارع وقفت منتظرة سيارة أجرة ولكن مضت ربع ساعة ولم تمر واحدة، فكرت بخجل أنها لا ترغب في إزعاج أحد أعمامها أو أبنائهم. أعادت الاتصال بإبراهيم في توتر، والرياح تداعب وشاحها، ومصابيح الشارع تظلها، ولكنه لم يرد، وضعت الهاتف في حقيبتها في اضطراب وعيناها تسيران على طول الشارع المضاء والأبنية المظلمة التي تجاوره، قررت أنها ستسير مشياً، ففي بعض الأوقات من النهار كانت تأتي سيراً إلى هنا، ولا ضير من ذلك الآن فالوضع أمان في المدينة، ولأن الخادمة تركت بعض الثياب في الغسالة وتخاف من صدور رائحة منها إن أبقتها أكثر من ذلك، ولا يمكنها أيضاً ترك الطعام في قدره حتى الصباح.

حسمت أمرها، اندست تحت معطفها الثقيل، ولفت وشاحها على رقبتها، عبرت ممر المشاة لوحدها على لون الإشارة الخضراء، وعبرت نصفه الآخر، تلفتت حولها في توتر وقلق، أدركت أنها مجنونة عندما دخلت بين الأبنية، ولكنها قررت السير وعليها إنهاء الأمر، سطعت بعض الأضواء من النوافذ واللافتات من الأعلى، ومن بعض مصابيح المحلات المغلقة، التقت ببعض الرجال في طريقها الذين رمقوها بنظرة مرتابة ولكنها لم تهتم ظاهرياً لهم. حثت خطاها سريعاً واضعة الأعذار لنفسها لإكمال طريقها دون الإحساس بالذنب، عند منعطف تجاورت فيه بيوت صغيرة وبعض الحجرات القديمة، سقطت على رأسها قطرة ماء، تلاها انهمار ناعم، رفعت رأسها إلى السماء التي حجبتها المزن، سقطت على وجهها قطرة صغيرة، فابتسمت، لقد جاء في وقته، ليذهب عنها ذلك الهم الجاثم على صدرها.

* * *

رن هاتفه النقال، رفعه.. نظر إلى الرقم بلا مبالاة، خبأه في جيبه بعد أن وضعه على الصامت، طوال اليوم والهاتف لا يكف عن الرنين فمنذ أيام وهو على هذه الحالة، حاول تجاهلهم بعد أن رأى تماديهم ومحاولتهم للتطفل على حياته، بالإضافة إلى تقربهم إليه من أجل مصالحهم المادية. تساءل في نفسه وهو جالس يتصفح الأوراق والملفات على الحاسوب من غير انتباه، لماذا تأتي المصالح الشخصية قبل كل شيء؟ هو نفسه طبق هذا المبدأ مع أمل!

لا يمكن أن تتعقد حياته أكثر من ذلك، كيف؟ ألا تخجل أمه من نفسها؟ هو لا يستطيع استيعاب الأمر برمته، لقد تركته منذ أكثر من عشرين سنة والآن تريده وتريد مساندته، نبذته وهو طفل وتخلت عنه وقد كان أحوج الناس إليها. تطلقت من والده السكير، وتركته عنده، ولم تهتم، وتريده أن يهتم، ومات والده، ولم تهتم، والآن تريد منه أن يهتم!

تباً لكل تلك الحجج التافهة التي تتبجح بها، إنه يكرهها، يعترف بذلك من كل قلبه، لا يمكنه أن ينسى قسوتها وجحودها، في مرات كثيرة يكره رؤية صورتها في وجهه، وفي تصرفاتها التي لم ينسها يوماً، لا يمكنه أن ينسى مرحلة طفولته التي كانت وصمة لا تنسى!

انتهى دوامه بعد ليلة حافلة مرهقة، خلع لباسه الطبي ولبس معطفه الترابي على بدلته البيضاء، وظب أشياءه، حمل حقيبته، خرج من المستشفى، عبر ممر المشاة والهواء الجاف البارد يصفع وجهه، اليوم أخطأ بعدم لبس قبعته، لأن الجو كان شديد البرودة، ولكنه توقف عند الرصيف الآخر، ونصفه العلوي سرق الظلام شكله، ليخفيه عن الأنظار، لمعت عيناه، رآها تقف قريبة منه، تنظر إلى أحد المحلات ووجهها يسقط عليه النور.

لم يكن يتوقع أن يراها هنا!

تلفت إلى الصمت والظلام الذي يحيط به، ووضع يديه في جيب معطفه، خرج من تلك الظلمة وسار إلى الأمام متتبعاً خطواتها. عقد حاجبيه في تفكير، ما الذي يجعلها تسير مشياً على الأقدام؟ إن أمرها غريب! كيف لها أن تسير في هذا الوقت وحيدة؟ كيف لها أن تكون بهذا الجنون؟

لم يستطع ضبط نفسه وغضبه منها، سار على طريقها، يتقفى آثارها، ينظر إلى كل حركة والتفاتة تصدر منها، فمرة تسرع في مشيتها ومرة أخرى تبطئها في هدوء، مرا عبر الممرات الضيقة والواسعة والمظلمة والمنيرة.

انتابه القلق، سرق نظرة إلى جانب مظلم يبعد عنه مسافة أميال قليلة. رأى رجلاً غريباً، لا يعلم إن كان يتتبع أمل!

ولكن لم تعجبه تحركاته المريبة، في تلك اللحظة التي سقطت قطرات المطر على رأسه المكشوف، رن هاتفه النقال، التقطه من جيبه، عقد حاجبيه ونوره يسطع على وجهه، استغرب الرقم

لأنه فتح خطاً على بلاد أجنبية، من الممكن أن تكون إحدى المنظمات الصحية، أجاب عليه وعيناه تلمحان طيف أمل البعيد، الذي بدأ يختفي مع صوت المتصل:

- عامر... أنا خالك سيف.

انفكت عقدة حاجبيه، تصاعد الدم إلى وجهه، صمت ولم يجبه، فتكلم الآخر:

- عامر، هل أنت على الخط؟

توقفت قدماه عن المشي، وقف تحت إنارة أحد الأعمدة، رد عليه بعد هنيهة صمت، بصوت جامد:

- نعم أنا معك.

تكلم سيف باعتذار:

- آسف على إزعاجك في هذا الوقت، ولكن هل يمكنني الحديث معك في أمر هام؟

مسح جبهته في توتر، رد عليه بنفس الصوت غير المبالي:

- تفضل!

تحدث الآخر بنبرة حزن محاولاً التأثير في عامر:

- في الغد ستخوض عملية جراحية صعبة نسبة نجاحها قليلة.. ورأيت أنه من المهم أن تعلم عن حالتها الصحية فأنت ابنها في النهاية.

جزّ على أسنانه، وملامحه المنفعلة تغوص بين الصدمة والشفقة، أكمل خاله برجاء:

- إنها تريد رؤيتك، تريد أن تراك لآخر مرة، في النهاية هي أمك مهما فعلت، وأنت من لحمها ودمها، ولا تنسَ أنها ربتك في طفولتك، فأنت لم تكن طفلاً عندما تركتك.

اللعنة... ألا يعد عمر التسع سنوات من الطفولة، وألا يعد التواجد مع رجل سكير وأم قاسية ظلماً!

قاطعه بعصبية منهياً حديثهما:

- حسناً ورجاءً... هل يمكنك الكف عن تعديد فضائلها عليّ، تريدني أن آتي، أستطيع أن آتي لأن الذي تطلبه من أبسط الأمور، ولكنني رجل مشغول ولا أظن أنني أستطيع اقتطاع يومي غداً للحضور.. اعتذر منها نيابة عني، وتمنياتي لها بتمام الصحة والعافية.

أغلق الخط وهو يشعر أن أعصابه مشدودة ومرهقة، دس الهاتف في جيبه بعصبية، رفع بصره إلى الطريق، مشى بضع خطوات، توقف ليتنفس بعمق، مسح على وجهه، يشعر أنه يريد تحطيم شيء ما، لأنهم عكروا مزاجه، بحث في الأرجاء وهو يتذكرها، أيمكن أنها وصلت إلى مكان إقامتها! لا يهم... فالمهم الآن أن يذهب إلى شقته لكي يمارس الرياضة، ويخرج شحنات نفسه السلبية.

* * *

شعرت بأن أحداً ما يلاحقها، رأت رجلاً ضخم الجثة يمشي على يمينها، فأسرعت الخطى تريد الخروج من ذلك المكان، الذي غرق في الظلام وأحاطته البيوت المهجورة بشكل ملفت.. ما الذي أتى بها إلى هنا؟ هل يمكن أنها قد ضلّت الطريق بسبب الليل؟ حسناً ستخرج من تلك الزاوية التي على يمينها لأنها تظن أنها رأتها من قبل.

ولكن تلك الخطوات التي كانت تترصدها، اقتربت منها دون أن تعي اقترابها، هجم عليها على حين غرة، أمسكت يده القاسية بطرف حجابها المورد بغتة، انتزعه من مكانه، قبضت يده الأخرى الخشنة والمتقطعة بفعل البرد وجهها الناعم. اتسعت عيناها، كاد قلبها يتوقف من هول المفاجأة، أمسكت بالذراع التي طوقت كتفيها في جزع، غرزت أظافرها فيها، حاولت الحديث ولكنها اختنقت من الرعب، سحبها.. ارتطمت بالأرضية الخشنة وهي تقاومه في انهيار، انهمرت القطرات المتساقطة من السماء، اختلطت بدموعها، وخوفها العظيم، انتهت مقاومتها وهي تسحب على الأرض ومياه الأمطار تغرق معطفها، وثوبها الأخضر يتلوث بالوحل، جذب جسمها الذي خارت قواه إلى حجرة مهجورة مظلمة بابها مخلوع.

* * *

أسرعت خطواته ويداه تظلّلان رأسه، اختبأ تحت إحدى المظلات المتأرجحة بفعل الرياح القوية، ضرب المطر سقف المظلة، عصفت الرياح بالمكان لتشتد ظلمته. تراجع خطوة إلى الخلف، ليقي نفسه من البلل نادما على نسيانه لمظلته، طافت عيناه في المكان، قل تساقط الأمطار، رعد الرعد في السماء وأنار البرق المكان، سقط بصره فجأة على حقيبة بيضاء قرب أحد الأزقة، تأملها للحظات في تفكير، صغرت عيناه في استغراب، تصل إلى مسامعه أصوات غريبة، لا يعرف ماهيتها، ولكنه تشنج وارتاب عندما رأى ذلك الرجل الذي كان يمشي أمامه منذ قليل! يُخرج الرجل رأسه ومن ثم جسده من حجرة في الزاوية، يلتفت في وجوم مراقباً المكان، ثم يعود إلى تلك الحجرة المعتمة. تتسع عيناه في رعب، يتذكر أين رآهُ.. أليس هو ذلك الرجل الذي تهجم على أمل بعد العملية؟ التبس الأمر عليه، جُنَّ جُنُونُهُ، انتفض جسده بأكمله وهو يركض تحت انصباب المطر الغزير، وصل إلى هناك لاهثاً، وقف أمام الباب، شعره يلتصق بوجهه المذهول الذي غرق بالمياه، تخدرت أوصاله، وعيناه تقعان على فردة حذائها البيضاء المرمية على الأرض والتي تغير لونها بفعل الطين، ومن ثم ترتفعان إلى جسد ذلك الرجل الذي يصارع شخصاً تحته، فقد حواسه من الذهول وانطلق إليه.

* * *

كان يخنق عنقها، تمسك أصابعها بيديه في مقاومة بائسة، ترفع يدها، تخرمش وجهه، تصفع رأسه، تمط شعره، تضرب ركبتها ببطنه، تحاول بكل قوتها الإفلات من تحته لكيلا تفقد الأمل، ولا تستسلم، لا تريد الاستسلام ولا الموت هنا، ولا العار الذي سيلحقها. أغمضت عينيها منهارة، وجسدها يفقد مقاومته، تشعر باقتراب أنفاسه منها.. تتمنى الموت، لا تريد أن يحصل لها غيره إن كان سيحصل. ستقتل نفسها ولكن لن تجعله يلمسها!

سقطت دمعات حارقة من عينيها، ابتعد الجسد الجاثم عنها، تحرر عنقها من سطوة الأيادي الخشنة، عادت لتتنفس، استطاعت اللهاث، والبكاء بصوت مسموع، فتحت عينيها على وسعهما على أصوات لاهثة، ولكمات مسموعة، اعتدلت.. ضمت معطفها الذي انتزعت أزراره إليها، نظرت بعينين حمراوين إلى الجسد الذي أنار ضوء البرق شكله، ومرة أخرى دخل ضوء البرق إلى داخل الغرفة ليكشف الوجوه، ارتفعت يدها إلى فمها، كتمت أنفاسها وعيناهما تتقابلان، انصهر هو من الغضب، وهي اصطكت ركبتاها من الخوف، ولكنها تنفست أخيراً وهي تشعر بالاطمئنان لوجوده،

لأن وجوده أصبح نوراً يشق الظلمة التي أطبقت على روحها منذ قليل، وقف كالدرع أمامها، كشر وجهه في اشمئزاز، صاح في الرجل:

- سكران!

ترنح الآخر، رفع يده أمام وجه عامر الغاضب، وصاح فيه متهتهاً:

- القذرة.. يجب عليّ تعليمها درساً على تزويرها موت ابني وقولها عنه إنه محض صدفة.

اندفع عامر إليه، أمسكه من ياقته، رفعه إلى الأعلى يهزه بعنف ليخرسه، يلهث من التفكير بلمساته المنحطة على جسدها، ويموت قهراً من فكرته بالاعتداء عليها لأتفه الأسباب، دفعه بقسوة إلى الخلف، تعثرت خطوات الرجل، سقط على الأرض، رفع عامر قدمه إليه، انهال عليه بالركلات، حاول الأخير صده والتحدث، ولكنه صرخ يشتمه:

- اخرس.

كف عامر عن ضربه، تراجع الرجل خطوة بيديه إلى الوراء، قام بصعوبة من جلسته، وثيابه ملطخة بالطين والماء، مسح بيديه على جانبي بنطاله الأسود، حاول فتح عينيه مقاوماً نوبة سكره، تكلم وشذرات من اللعاب تتساقط من فمه:

- من أنت لكي تتجرأ على ضربي، والوقوف في طريقي عن إكمال انتقامي، هل تريد أن تموت الليلة معها هنا؟ هيا تعال لأقتلك!

تعثر بخطواته، أشار بإصبعه إليه يدعوه للاقتراب، ولكن عامر لم يقترب، وإنما احتقره في نفسه وود لو أنه يقتله الليلة هنا لكي يسكن قهره وحقده عليه. اقترب الرجل منه، رفع يده أمام وجه عامر، ضرب الهواء بلكمة هزيلة جعلته يترنح، أعاد الكرة وكاد يضربه لولا أنه أمسك بقبضته، وأبعدها عنه متجهماً، تراجع جسد الأخير، رفع عامر قدمه وركل بطنه بقساوة.

رجع إلى الخلف متألماً من ركلة عامر، وفجأة مع اندفاع مياه الأمطار من الخارج وعبورها من بين أقدامهم، زلت قدم الرجل، فقد توازنه، انزلق على الطين، سقط بقسوة، ارتطم رأسه بحجر كبير قاسٍ.

تسابقت أنفاسه، طرقت الدماء رأسه، شدت طرقها على نوافذ دماغه.

دارت الأرض به ليتحطم لونها المشرق ويحل السواد عليه.

تسربت الدماء الغزيرة من تحت رأس الرجل المطروح، وجرفتها مياه الأمطار إلى الخارج واختلطت بلون التربة. جحظت عيناه ورأسه يسقط عن الحجر، اسودّ وجهه، تقيأ، تسرب قيئه من طرفي فمه، تنفس وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، يفتح فمه ويغلقه، يأخذ شهيقاً وزفيراً متواصلاً.

سقط على ركبتيه مذهولاً، زحف إليه مرتجفاً، أمسك برأسه، أبعد الصخرة عنه ووضعه في حضنه، تحسس نبضه الضعيف، اتسخت ملابسه البيضاء وسبحت في بحر دمائه المنهمرة، وتلوثت أصابعه بلزوجة قطراتها.

انخفض نبضه إلى أن تلاشى من تحت يديه، شهق برهبة بينما خرّ الرجل بين ذراعيه جثة هامدة، أبعده إلى الأرض وهو ينتفض، نزع معطفه المبلل، ربط ذراعي المعطف حول رأس الرجل النازف، انكب على صدره يضغط عليه لعله يعيد نبض قلبه إلى الحياة، يتوقف للحظة، وصوت المطر وكأنه يطرق رأسه عاكساً انتفاضته الداخلية، يعود إلى الوراء، يمسح وجهه المحمر في هستيرية، وينفي حقيقة ما يحصل!

توقف أخيراً خائر القوى، جلس منهاراً على المياه الغزيرة التي تتدفق من تحته، رفع يديه إلى وجهه المبهوت، احتضنه، وضعه بين ركبتيه، تساقطت قطرات المياه المختلطة بالدماء من وجهه.

تيبست أعصابه من الجلوس تحت ضجيج الرياح والأمطار وصوت بكائها المكتوم، عيناه المفتوحتان على مصراعيهما تنظران إلى الأسفل، وإلى اللاشيء، والجثة الباردة بجانبه ترسل برودتها إلى روحه اليائسة.

تدور الأفكار، تتحطم معها الأماني والأحلام، تتبعثر الصفحات لتصبح فارغة بلا ألوان، يختفي كل شيء ويبقى اللون الرمادي يحتل الصدارة.

تتلاعب به الصيحات الداخلية، تقذفه على صخور الواقع.

وتحرق معها خريف أوراق حياته.

خفقان قلبه لا يتباطأ، يضغط على رأسه بشدة، تلوثه المياه أكثر فأكثر، يعصف الرعد في داخله كلما انفجر في الخارج، يجز على أسنانه في تعاسة.

إنها كارثة ستقلب حياته رأساً على عقب، فحياته تحطمت وتحولت إلى ركام، لا يُعاد بناؤه، لأنه أصبح مجرماً قتل ضحيته عن طريق الخطأ، قتل نفساً بشرية، طبيب يقتل نفساً، إذاً.. سيكون مصيره الفناء، الطرد، وسحب رخصته الطبية. صرخة عنيفة داخلية أرعشت بدنه، وانهمرت معها سيول دموعه، تساقطت كما لم تتساقط من قبل، تجر معها أحلام رجل، ومصير مستقبل.

المعانقة الحادية عشرة

تجلس على أريكة بيضاء، يناقض لونها لون لباسها الرمادي والأخضر المبلل، شعرها الطويل مبعثر على كتفيها وبعضه ملتصق بوجهها المذهول، تضغط بأصابع قدميها على الأريكة فتتسخ بالطين والدم، تشهق، تلتقط أنفاسها، تعيد ذاكرتها المشاهد، تدفن رأسها بين ركبتيها، تجهش في بكاء مرير، تجتاحها ذكريات الدقائق الماضية، فتلوح في ذكرياتها الضبابية أصوات اللهاث والأنفاس، ومنظر الدماء التي سبحت لتكون بركة دموية، تضغط على رأسها محاولة سحق تلك الذكرى.

عندما سقط الرجل، وحاول عامر إسعافه ولم ينجح في ذلك، بقيت في مكانها منكمشة على نفسها، واضعة يديها على فمها مذهولة من الأحداث التي حصلت، ارتجفت مع انهمار صوت المطر الغزير، نظرت إليه، حبست أنفاسها، رأته منطوياً على نفسه، رأسه على ركبتيه، بقي على هذه الحالة فترة حسبت أنها لن تنتهي!

رفع رأسه بعد ذلك، نظر وجهه الشاحب الحزين إلى الجثة، مسح يديه المرتجفتين بخرقة بالية كانت بجانبه، وقف ينفض ملابسه المتسخة، رفع أكمامه إلى الأعلى، مسح وجهه المتفصّد بالعرق بظاهر يده. رشقها بعينين حمراوين كالدم، أغمضهما، تجعّد جبينه، رصّ على فمه، نطق لتخرج الكلمة غليظة من حنجرته:

- ارحلي.

لم تستجب له، فقدماها المرتجفتان لم تقويا على الوقوف، انخرطت في البكاء بينما هو ذرع المكان، وصوت خطواته المسموعة ترتطم بالمياه الراكدة. خرج تحت المطر، عاد ثانية وقد تبلل

بأكمله، رفع يده إلى شعره، نفضه في انفعال، صرخ عليها ليجعلها ترتعد من الرعب:

- قلت لكِ أغربي عن وجهي..

تجعّد ما بين حاجبيه وامتلأ وجهه الشاحب مرارة، هدأ نفسه، تحدث وصوته يفضح ما يعانيه من ألم شنيع:

- أمل، هل تريدين أن تحدث فضيحة لكِ؟ اذهبي من هنا حالاً، استمعي إليّ ولا تجعليني أجن بسببكِ أكثر من هذا!

أرعبتها التكشيرة التي ظهرت على وجهه، أيقظتها كلماته وبثت في نفسها المزيد من الشجن. هربت من دون أن تنظر إلى الخلف، ركضت كما لم تركض من قبل، تبللت بالمطر إلى أن غرقت فيه، وصوت الرعد لم يكن شيئا يُذكر أمام الإعصار الذي حطم كل شيء في داخلها، ودخلت كاللصة إلى العمارة وتوجهت إلى شقتها.

لم تتحرك من الأريكة، قضت ساعتين متواصلتين عليها، قضتهما تستجدي من الله الإعانة، تدعوه في تضرع، تندم على أسبابها السخيفة للعودة إلى الشقة في ذلك الوقت، تفكر في مخرج يخرجهما من هذا المأزق، وتنظر إلى ما سيؤول إليه مصيرها، دست رأسها بين ذراعيها، لقد سقط الرجل ومات، ولكن لم يكن بسبب عامر، فعامر الذي أنقذها في تلك اللحظة اليائسة، وخلصها من قذارة ذلك الرجل، فأمثاله يجب التخلص منهم ورميهم خارج هذا العالم.

غفت على الأريكة بعد حرب شرسة مع الضمير، تكبكبت الكوابيس عليها لتنهش روحها، تستيقظ على هدوء وظلمة الصالة، تنظر إلى ساعة معصمها فترى أن الساعة قد شارفت على الثالثة مساءً. تذهب إلى دورة المياه، تنظر إلى وجهها في المرآة، تعاودها الذكريات في ملامحه الحزينة، تنظر إلى يمين خدها فترى كدمة حمراء، تلمس شفتاها المجروحة من الطرف، تمسح عنها كتلة الدم المتجمعة، تغوص عيناها الغارقتان في الظلمة في صورتها المنعكسة، تحاول التفكير في شيء جيد ولكن لا يوجد! فكل أفكارها مهدومة!

تدخل تحت دش الاستحمام تغرق نفسها بالماء الحار لمدة ساعة كاملة، تأخذ ملابسها المتسخة، تفركها تحت الماء المتدفق، وتعلقها في الحمام.

تجلس طوال اليوم منكمشة تحت لحافها، يجافيها النوم، ولا ترغب في تناول شيء. ومن الصمت المطبق في شقتها، يُخيل إليها أصوات الأقدام الصاعدة على السلالم، والخطوات الراكضة على سطح شقتها، تتوهم صوت طرقات على الباب، تذهب إليه وهي ترتعد من الخوف، تنادي في ارتجاف:

- من؟

فلا يجيبها أحد، تفتح الباب بهدوء، تنظر إلى الجانبين، يصعد نظرها إلى الدرجات الصاعدة، وينزل مع الدرجات النازلة، ولكن لا أحد، تضع يديها على صدرها، تحاول التربيت على نبضات قلبها الخافقة بجنون، تطمئنهُ أن الشرطة لم تأتِ بعد، عادت إلى سريرها تبكي، ما الذي ستفعله الآن إذا طلبت الشرطة إفادتها، ما الذي ستقوله، ما حجتها أمام أهلها! سيكون موقفها قبيحاً، وستكون وصمة عار عليهم!

* * *

عند الفجر استيقظت بعد نوم متقطع، غسلت وجهها بمياه باردة لعلها تُذهب أثر انتفاخه. وقفت طويلاً أمام المرآة، حاولت وضع مساحيق التجميل لتخفي أثر الكدمة وانتفاخ وجهها، وضعت الكثير على وجهها ولم تبالِ، اتصلت بإبراهيم لتخبرهُ عن سيارتها، ولكي يوصلها إلى العمل في طريقه.

خرجت من البوابة الزجاجية، ويدها تشد على حقيبتها السوداء ومعطفها الرمادي الطويل يحتوي جسدها المنهك، مشت ناحية السيارة وهي تضع فوق عينيها نظارتها الشمسية وتحمل باليد الأخرى المظلة التي ترتطم بسطحها قطرات المطر، لتبدو تحت السماء المتلبدة بالغيوم كائناً غريباً، دخلت إلى السيارة ألقت السلام ولكنها لم تخلع النظارة، حدق إليها إبراهيم بنظرة مرتابة وتساءل:

- لماذا تضعين النظارة والسماء ماطرة!

ازدردت ريقها بصعوبة، همست بحشرجة:

- لا شيء... فقط عيناي تؤلمانني..

لم يقتنع بالأمر، لأنها تبدو مضطربة ومتوترة، لكزها في خصرها مداعباً:

- هل كنتِ تبكين على أحد مسلسلاتك الدرامية التافهة؟

لم تقْوَ على مزاحه الثقيل، فأجهشت في البكاء على الفور، وضعت يديها على وجهها وصدت عنه إلى الجهة الأخرى، وهي تحاول السيطرة على مشاعرها المرهقة، صُدم منها، أمسك كتفها بعطف، حدثها بخوف:

- ما بكِ؟ لِمَ تبكين؟

كفكفت دموعها، التقطت منديلا من أمامها، مسحت أنفها به، حارت في إيجاد عذر لها، تحدثت بعد صمت قصير وهي تخنق موجة بكاء أخرى:

- لديّ مغص، وبطني يؤلمني كثيراً، وأنت لمستني بعنف.

خلعت النظارة في محاولة لجعل نفسها في غير محل شبهة، وتفاجأت وهي تنظر إلى وجهها في مرآة السيارة، أن كل مساحيق التجميل ساحت على خديها، مدت يدها إليه وضربته ضربة خفيفة حاولت فيها ممازحته بطريقة مفتعلة:

- انظر إلى وجهي كيف أصبح!

صاح الآخر مازحاً محاولاً تطييب خاطرها:

- يا إلهي إن وجهكِ يبدو في حالة مريعة، أعتذر منكِ.. ولكن ألا تريدين أخذ حقنة مهدئة من المستشفى، وكيف لكِ أن تعملي وأنتِ متعبة! هيا عودي إلى الشقة وخذي إجازة مرضية.

مسحت عينيها بالمناديل الورقية، شدت على شفتيها تمنع نفسها من الارتجاف، وهمست بخفوت:

- سيزول الألم مع حبة بروفين، في الحقيقة لقد قررت أخذ إجازة لمدة أسبوعين سأذهب فيها إلى العائلة، أنت تعرف أن أمي ساخطة على تقصيرنا في زيارتهم، وأيضاً أنا مشتاقة لأخواتي.

رسم ابتسامة مداعبة على شفتيه:

- فكرة ممتازة، أتمنى لو كنت أستطيع أنا ذلك أيضاً، ولكن الوضع صعب بسبب الدراسة المكثفة في هذا الفصل.

ضحك وهو يحرك السيارة، ومسّاحات السيارة تلوح يميناً ويساراً مبعدة قطرات المطر المتساقطة:

- أخيراً انتهى الحظر الذي وضعته على شقتكِ بسبب وجود صديقتكِ، في الحقيقة نحن مشتاقون لتناول طعام يديكِ، لأنكِ قصرتِ علينا في الآونة الأخيرة.

رسمت ابتسامة واسعة على شفتيها، وحاولت الحفاظ عليها حتى آخر الطريق ولكنها انهارت في أول الطريق. تغرق في شرودها، يحدثها أخوها ولكنها لا تستطيع الاندماج معه، وتجيبه بكلمات مبتورة.

نزلت من السيارة، رفعت يدها مودعة، أخفضتها مرتجفة وهي تمسك بعصا المظلة السوداء، هو لا يعلم شيئاً عن صباح ذلك اليوم، فكيف لو علم بما حصل لها! كيف ستكون ردة فعله! هل سوف يودعها بتلك الابتسامة المبتهجة!

مشت بخطوات بطيئة وعيناها تنظران إلى الأرضية الرمادية المبللة، التي تغيرت مع الزمن إلى اللون الأبيض الزلق، انفتحت البوابة الزجاجية، أغلقت مظلتها ودخلت متمنية في داخلها ألا تكون مصدر إشاعات متناقلة، لأن عقلها يخلق لها من الأوهام ما يهولها.

لامس دفء المكان روحها، وأشعرتها ابتسامة من تصادفه بالراحة، في ذلك اليوم كان الجميع يسألون عن حالها، ويفتقدون وجودها، يا لغرابة الأمر فقد صادفت في ذلك اليوم الغريب كل الذين تعرفهم، وكأن الجميع كانوا يعلمون بما بها فجاؤوا لتعزيتها. ولكن توجسها لم يختفِ، حبست حيرتها وخوفها عميقاً في صدرها، كانت تريد تتبع الأخبار لمعرفة ما حصل في ذلك اليوم، ولكنها لم تجد إجابه واضحة عن أسئلتها الداخلية، مضى ربع يومها، وهي تحاول السيطرة على انفعالاتها النفسية، في وقت الاستراحة وبعيداً عن النظرات اختارت زاوية منعزلة، تنظر من خلالها عبر النافذة إلى حديقة المستشفى التي لا يزال المطر ينهمر على عشبها الندي. جاءتها سلوى حاملة معها أكواب القهوة الورقية وبعض الطعام، جلست قبالتها، ثرثرت تلك من دون أن تلاحظ برود أمل الظاهر على ملامحها المرهقة، لم تنصت إليها، وإنما غرقت في تساؤلاتها، غير قادرة على مواجهة

الواقع، خائفة من الصدمة التي قد تتلقاها في أي لحظة عن تلك الحادثة، وهل يمكن أنه أخفى حقيقة تواجدها هناك، هل تستر عليها، وأنقذ سمعتها من التلطخ بتلك القذارة!

وفجأة... خرجت من ذلك الطوق الذي طوقت نفسها به، وصوت سلوى يتردد على مسامعها ناخراً أذنيها:

- يا إلهي ألم تسمعي ما حصل، الدكتور عامر البطل المغوار؟

هوى قلبها عميقاً في صدرها بينما أضافت الأخرى في مبالغة:

- يا لهُ من رجل شهم، ففي فجر الأمس وجد رجلاً مصاباً في رأسه، حاول إنقاذه هناك ولكن لم يستطع فأتى به إلى المستشفى حاملاً إياه على ظهره في عاصفة المطر تلك، الكل ذهل من فعلته العظيمة، كان الرجل حياً، ولكن وللأسف دقائق قليلة ووافته المنية، ولقد تم مكافأة الدكتور على هذا العمل الشريف.

ضربت يدها المرتجفة الطاولة ثم الكوب الذي أمامها، انسكب لون القهوة على الطاولة البيضاء، تسرب منها وتساقطت قطراتها على ثوبها الأزرق الفاتح، وعيناها تنظران إلى سلوى في دهشة، وتلك تصرخ عليها مستنكرة، ولكنها لم تسمعها، إنما بقيت الكلمات تتكرر في عقلها مفتعلة طنيناً لا نهاية له.

نهضت بملامح ذاهلة، سارت بخطوات مسرعة متجاوزة الطاولات، غير مهتمة لمن يراها، ذهبت إلى الاستقبال، سألت عنه، بعضهم قال إنه لم يرهُ اليوم والبعض الآخر أخبرها أنه قد جاء منذ قليل وعليها الذهاب إلى الطابق الأعلى للسؤال عنه، تركتهم وذهبت، استقلّت المصعد بين العديد من الزوار، اندست بينهم مرتعدة من التفكير، تتصببُ من العرق، توقفت عند قسم الباطنية للحظة مترددة غير قادرة على ربط أفكارها، دخلت قدماها إلى هناك، جالت بنظرها هناك لعلها تلتقط طيفه، سألت عنه، قالوا لها إنهُ في الغرفة رقم 9، مشت يعصف بها الجنون، فتحت الباب عليه دون طرق، مقتحمة عزلتهُ.

كان يجلس على مقعده الجلدي، وشاشة الحاسوب تضيء وجهه المنغمس في عمله، رفع عينيه وعقد حاجبيه على صوت انفتاح الباب الصارخ، تغير لون وجهه، فقدت ملامحه هدوءها،

ضغط بأصابعه على سطح الطاولة البارد وهو يرى وجهها الذي بات يزور أحلامه في الآونة الأخيرة. تلاقت عيناهما للحظة توقف الزمن فيها. تضاربت المشاعر، انكتمت أنفاسهما لرؤية كل منهما الآخر، وقف هو من مقعده وأزاحه بعيداً عنه. تقدمت بخطوتين مهتزتين، ابتلعت ريقها، تركتها قوتها التي جاءت بها.

انتابها الدوار، وضعت يديها على وجهها وأبعدتها في إرهاق، حاولت الحديث ولكن خانت الكلمات حنجرتها، وودعها صوتها، وصعب البوح عليها.

تحدث بصوتٍ أجش مخفياً اضطرابه عنها:

- نعم... هل هناك شيء؟

حاولت انتزاع الكلمات من حبالها الصوتية وبثها خارجاً، فخرج صوتها متزعزعاً:

- وما الذي ليس هناك... أخبرني؟

تفجر الغضب في وجهه، رفع يده بعصبية إلى ياقته، حرر عنقه، قال في صرامة:

- اخرسي...

تفاجأت من شراسته، فتح عينيه على اتساعهما من غير أن يستطيع السيطرة على مشاعره التي ما زالت متأثرة بتلك الحادثة، أشار في الهواء بإصبعه:

- انسي ما حدث، وامحيه من ذاكرتكِ، ولا تهمسي به أبداً!

همست في ذهول:

- وكيف ذلك؟

ترك مكتبه، تقدمت خطواته السريعة منها وتجاوزتها، ضرب الباب بقبضة قاسية وأغلقه، توقفت يده على سطحه المعدني، تنفس بعمق، صر على أسنانه، وصد إليها ولون ملابسه السوداء ناقضت لون الباب خلفه.

التفتت إليه متفاجئة، تراجعت بضع خطوات إلى الوراء، إلى أن لامست سطح المكتب البارد.

قال مهدداً، مكشراً عن أنيابه، وإصبعه يقترب من وجهها:

- إياكِ وإياكِ، أن تضعيني معكِ في مأزق يصعب الخروج منه، أغلقي فمكِ واحفظي لسانكِ، لأنني اتخذت الإجراءات اللازمة وانتهى الأمر، وحفظت سر وجودكِ وأنكِ سبب كل ما حدث!

صرخ مفجراً عليها غضبه على تلك الحادثة، يتهمها بتدمير حياته، مثيراً في نفسها الاشمئزاز من نفسها:

- سأدمركِ إن حاولتِ تدميري، وإن همستِ فسأقتلكِ، لأنني جعلت من تلك الحادثة مجرد حادثة طبيب أنقذ مريضاً وجده على قارعة الطريق.

اهتزت نبرته الغاضبة، رفع كفيه إلى شعره، مسح عليه في ارتجاف، أكمل وصوته يئن تحت سطوة تلك الذكرى:

- اسمعي... لقد كانت مجرد حادثة وجدتُ فيها رجلاً سكيراً نازفاً في طريق عودتي إلى المنزل، لحسن الحظ كان طريق عودتي... وحاولتُ إنقاذه وعندما لم أفلح ركضت به إلى المستشفى، ولحسن حظي أيضاً أن عاصفة اجتاحتنا في ذلك الوقت وغيرت معالم ذلك المكان حتى اختفت البصمات منه، ولم يكتشف أحد ما حصل!

ابتلع الحرقة التي توقفت عند آخر كلمة، وأكمل وعيناه تنظران إليها في ألم:

- ومات ذلك الرجل، بسبب ركلة سددتها إليه، لم أكن أقصد فيها قتله، ولكنه مات وأنا السبب في ذلك، أتعلمين ما الذي سيحصل لي!

باغتتها ضحكته المريرة، وأصابتها بالدهشة، انكمش وجهها بألم، أمسكت قبضتيها تمنع نفسها من الارتجاف، تلاقت نظراتهما الحزينة وعكست عدسة كل منهما ما في غور الآخر، خنق المرارة التي طفت فجأة على ملامحه، أخفاها ليظهر أسوأ ما في نفسه لها، تحدث يستحقرها:

- أن أخسر عملي ويتأثر بسبب أمر تافه، هو جنون بحد ذاته، أتعلمين ما يعني لي هو، هو أهم منكِ، أنتِ لا تساوينه، أنتِ مجرد عثرة طريق أمامه، عثرة اصطدمت بها في مصادفة غير متوقعة.

أشعرتها كلماته بالسقم، وجعلتها تخفض نظرها في ذل، لامت نفسها حتى أرهقتها الملامة، وهل يفيد اللوم الآن! وهل سوف يسترجع كرامتها المهدورة؟ أم سيزيد من اختلاج نفسها!

تشجعت للرد على كلماته القاسية ودحض اتهاماته تجاهها وتبرئة نفسها أمامه، ردت عليه منتفضة وكأنها لم تسمع ما قاله في حقها:

- كيف لك أن تكذب في مثل هذا الأمر، أنا لا أستطيع العيش مع هذه الكذبة، أنت بريء وأنا سأشهد على ذلك، ولا أظن أنه سيؤثر عليك كثيراً إن اعترفت أنه كان دفاعاً عن النفس!

تجمدت تعابيره، احتقرتها نظرات عينيه الواسعتين، تقدم خطوة إليها، همس من بين شفتين قاسيتين مهدداً:

- ألم أقل لكِ أن تصمتي... والآن أخبركِ أن تكفي عن قول السخافات، لأنكِ أغبى من رأيت، ولأنكِ غير ملمة بالإجراءات المتبعة في هذا الأمر، وأيضاً أخبريني وحركي لسانك السليط الآن، هل هناك شهود على الحادثة؟ الشاهد الوحيد هو الضحية وهو أنتِ، وما هي شهادة الضحية! أخبريني هل تقدرين على قول شهادتكِ، وهل شهادتكِ أهم من نفسكِ ومني؟

بهت وجهها، اخترقت كلماته صدرها، نهشت فيه حتى فتقت الجروح.

انتفض في غضب وهو يشير إلى الجدار بإصبعه منهياً حديثهما:

- أذلك الخسيس... الحقير... يستحق الشهادة لتلطيخ سمعتكِ من أجله؟ أهو أهم من نفسك؟ لا، بالطبع... المهم أنتِ وليس هو، أنتِ يا مجنونة.

* * *

رفعت طلب إجازة لمدة أسبوعين من المستشفى، بعد يوم سقيم تقاذفتها فيه مشاعرها بين البكاء والصمت ودفن ما حصل غزيراً في صدرها، وكلما رأته بين ممرات المستشفى أو احتكت به

في العمل، يصبح هناك كم هائل من المشاعر السلبية التي تؤثر على نفسيتها، وتجعلها مرهقة، تضرب على صدرها من الألم.

منذ ذلك الوقت لم ينظر أحدهما إلى الآخر، ولم يكونا يودان ذلك، في نهاية اليوم ذهبا في طريقين متعاكسين محاولين التخلص من كل تلك الاختلاجات النفسية.

دخل إلى شقته، رمى حقيبته على الأريكة، نزع معطفه الثقيل، أخذ قنينة ماء، وجلس على الأرض، استند على الأريكة في مكانه المعتاد، أبحرت عيناه في شاشة التلفاز السوداء التي عكست صورة روحه الحقيقية التي تلازمه في خلوته.

أغمض عينيه المحمرتين، ويده تلتقط الحقيبة البيضاء المتسخة الموضوعة في زاوية مخفية قرب الأريكة، سحبها إليه، وضعها على قدميه، نظر إليها كثيراً حتى غرق في أفكاره، تساءل في نفسه أيعيدها أم يحتفظ بها!.. أو أنها قد لا ترغب بها بعد تلك الحادثة!... فتحها، نظر إلى محتوياتها، رأى محفظة نقود، بعض أدوات الزينة والكريمات، وأوراقا محشورة بينها، وقع نظره على عطر أحمر اللون، التقطه، فتحه، استنشقه طويلاً، تخيل أنه رائحتها، أسكرته الرائحة، وجعلت مشاعره تتأثر، أغلقه بعد أن نفث منه في الهواء، وتطايرت ذراته أمام وجهه، وكأنه ود الاحتفاظ بتلك الرائحة إلى الأبد.

* * *

توقفت سيارتها البورش أمام بوابة سوداء عملاقة، تحيطها الجدران البيضاء الشاهقة، انفتحت البوابة إلكترونياً، دخلت ببطء بين الأشجار والحشائش المرتبة، وأخيراً وصلت إلى منزل فخم ذي طابقين، ارتفعت سيارتها على المعبر الذي يوصل إلى الباب الداخلي، أوقفتها تحت شرفة واسعة، نزلت، رفعت ذراعيها إلى الأعلى متثائبة، جاءتها خادمتان، أنزلت واحدة منهما الحقائب والأخرى ركبت السيارة وسارت بها بعيداً عنها، مشت إلى الداخل، نزعت حجابها، حررت شعرها، نزلت الدرجات الرخامية الذهبية، عبرت غرفة الجلوس الواسعة ذات الألوان الصاخبة والفخمة من دون أن تلتفت إلى أيّ شيء، عبرت ممراً رمادياً واسعاً مزيناً باللوحات والتحف، ووصلت أخيراً إلى حجرة مفتوحة طلت شرفتها على حديقة المنزل، تناهت إلى مسامعها أصوات أهلها، دخلت عليهم، رأت أخواتها اللاتي لم ترهن منذ زمن، احتضنتهن وقبلت أبناءهن، جلسن في

دائرة شكلتها الأرائك الحمراء، كن في اجتماعهن سبعاً، تحدثت سلمى الصغرى بنبرة جادة وهي تبعد خصلة من شعرها القصير الحريري إلى طرف أذنها:

- أمل، إن وضعكِ مزرٍ، نعرف أنكِ مغتربة وتدرسين الطب ولكن يجب عليكِ أن لا تهملي بشرتك بهذا الشكل، إنكِ تبدين شاحبة دون مساحيق تجميل.

أشارت إلى شعر أمل التي عبست لإشارتها:

- والمصيبة تكمن في شعركِ، كيف لكِ أن تقابلي العريس وأهله بهذا الشكل؟

شهقت متفاجئة، عقدت حاجبيها، نظرت إلى أخواتها اللاتي أطلقن الضحكات العالية، نهضت من مكانها، ارتدت حجابها الأسود الذي التقطته من جانبها، أمسكت طرف ثوبها الأحمر الحريري ورفعته قليلاً، وقالت ساخرة:

- إذاً لقد كان ترحيب أمي المبالغ فيه، والذي زغردت لأجله، يختفي وراء إحدى خططها الخبيثة بشأني.

وضعت يديها على جبينها، مسحته بطريقة مسرحية، قالت مهددة وهي تشير إلى نافذة الشرفة المفتوحة:

- إن كان هناك عريس، فطريقتي الوحيدة للنجاة هي الهرب من النافذة قبل أن تراني أمي، فلا يمكنني احتمال تزويجي هذه المرة رغماً عن أنفي، فيبدو أن أمي تنوي وضعي أمام الأمر الواقع.

تقدمت أصوات خطوات من خارج الحجرة، دخلت والدتها من طوق الجدار المنحوت. حملت الخادمات صواني الطعام ووضعنها على الطاولات الرخامية الجانبية، انسحب فستان والدتها الأخضر على الأرض، وارتفع نصفه الآخر كاشفاً عن حذاء ذهبي لامع، تتزين كل من أصابعها ورسغيها بالذهب ويتدلى عقد ثمين من عنقها. تحدثت بصوت جامد وهي تقف قربهن وعيناها ترمقان أمل بنظرة جانبية:

- لن تقدري على مخالفتي هذه المرة، ولن تستطيعي الرفض، لأن الذي أحضرته لا يرفض!

تنهدت بارتياح، ورفعت يديها مرحبة بحب:

- وأخيراً اجتمعتن يا بناتي...

* * *

ما زالت تلازم غرفتها مكتئبة وترفض أيّ تدخل خارجي، ولكن سرعان ما بدأ الملل واليأس يتسرب إلى داخلها، فكرت مرة في الانتحار، ولكنها صدت عن الفكرة، فحياتها أغلى من أن تهدرها بسبب أناس أفسدوها.

في الصباح طرقت الخادمة الباب ودخلت، وضعت بجانبها على الطاولة الخشبية أصناف الطعام، من العصيد والحلويات، وذهبت دون أن تنظر إلى تلك التي تعودت على رؤيتها منكبة على الأوراق تخربش فيها، ففي الآونة الأخيرة اختارت الرسم كنوع من التسلية إلى أن تعود حياتها إلى نصابها.

عدلت جلستها، نظرت إلى الصحون بنوع من الغيظ، شتمت في رغبة لرفس الطاولة وإسقاط الطعام منها.

تلك الأفعى علياء، أصبحت تلازمهم في الآونة الأخيرة، وفي كل يوم كانت تسمع ضحكتها العالية، وحديثها مع الخادمة في الممر قرب غرفتها، هي تعلم أن الأخرى تغيظها، وتحاول إخراجها عن طورها، ولكنها تحاول منع نفسها عنها. عادت إلى أوراقها، اختارت واحدة من بين الصور التي طبعتها من الحاسوب، وبدأت ترسمها، وفي آخر المطاف ملت فوضعتها جانباً مع انفتاح باب غرفتها، جلست على السجادة، وهي ترفع عينيها إلى الباب، الذي ظهرت منه علياء، اتسعت عينا ترفة صدمة، صعدت نظراتها من ثوبها الزيتي الضيق إلى وشاحها البيتي، وكان الذهب الذي يزين معصميها وعنقها خاطفاً للأنفاس، تحدثت علياء وهي تقترب من الصحون وتكشف عن الطعام:

- لم تأكلي بعد، هيا يا صغيرتي يجب عليكِ التغذي جيداً، لأنك بتِّ جلداً على عظم وأصبح شكلك منفراً وبشعاً، حتى لون بشرتكِ الفاتح أصبح أسوأ ما فيكِ.

تحدثت ترفة في عدائية، لتبدو أكثر قوة عما مضى:

- ما هذه الملابس؟ ولمَ أنتِ في منزلنا في هذا الصباح الباكر؟!

أصدرت علياء ضحكة خافتة، مشت إلى أن وصلت إلى سرير ترفة، نفضت لحافه أمام مرآها، رتبته والاشمئزاز يظهر على ملامحها، هبت ترفة واقفة مع صوت علياء المتحدث، مسكت طرف اللحاف من الطرف المقابل تشده عنها في غضب:

- أوه أنتِ مخطئة، أنا لم آتِ في الصباح، إنما أنا هنا منذ الأمس.

تنهدت لتضيف في احتقار، ووجه ترفة يفقد ألوانه:

- المسكين ابن خالتي "يرحمها الله" يعيش مع فتاة غريبة عنه من دون محرم، يطالع شؤونها ويهتم بها وهي لا تبالي به وتضع كل المسؤوليات على عاتقه، فكيف لي أن أتركهما لوحدهما، فسبحان الله من الممكن أن تكون لتلك الفتاة نوايا خبيثة كأصلها، هو خطيبي ويجب عليّ أن أحضر إلى هنا لأدير شؤون المنزل وأستقر هنا، لكي نتزوج في أقرب فرصة.

قُهرت من حديثها، داهمها الخطر من كل اتجاه، تذكرت لتوها أنها لا تمتلك شيئاً كعلياء، فالأخرى تمتلك أماً وأخاً وأباً ومنزلاً يحتضنها، والآن هي تريد أخذ ذياب منها. شعرت أنها تمتلكه، أنه أحد أملاكها حتى لو كانت تكرهه كما تشعر في تلك اللحظة، وتستحقره لأنه خدعها وكذب عليها. ولكنه عائلتها الوحيدة والمتبقية من بعد أمها ووالدها. ولا يمكنها أن تخسره هو الآخر، وتخسر مكانتها في هذا المنزل، لأنها لو تنازلت لعلياء، تعلم أنه سيكون مكانها الشارع ولن يكون لها منزل تلجأ إليه، ومن الممكن أن تقلب ذياب عليها، هي لا تريد تجربة ذلك الشعور ثانية فتجربتها الأخيرة كانت خير مثال!

نهضت.. سارت متجاوزة علياء التي عقدت حاجبيها استغراباً، فتحت الباب لأول مرة، خطت خطوة إلى الخارج، ركضت عبر الممر على السجاد، لمست قدميها البلاط البارد وهي تنزل الدرجات، توقفت أمام النافذة بجوار غرفة مكتبه، انعكست صورتها على النافذة المظللة. شعرها يحيط بوجهها الذي اندفع الغضب إليه، واشتعلت عيناها ببريق عسلي حاد، وكأن الطقس الراعد في الخارج عكس داخلها المضطرب. أمسكت بالمقبض دون تردد، فتحت الباب وكأنها تمتلك كل الحق في اقتحام كل مكان يتواجد هو فيه، لم تهتم بالبجامة المنكمشة التي تلبسها ولا بشعرها المتطاير، إنما اهتمت فقط بالذي تفاجأ من دخولها، وقف، ترك كرسيه، تقدم خطوتين، عدل هندامه الأبيض، مسح على شعره الأسود، ورحب بها:

- مرحبا!

نظر إليها في ارتياح لأنه اطمأن أخيراً أنها خرجت من عزلتها وجاءت إليه هو، أضاف بهدوء وشفتاه تبتسمان:

- هل تحتاجين شيئاً؟ أنقصت عليك حاجة؟

كشر وجهها عن غضبه، أغمضت عينيها وفتحتهما، وضعت ذراعاً على الأخرى أمام صدرها وقالت دون خجل:

- متى سنتزوج؟

اندفعت الدهشة إلى وجهه، رفع حاجبيه تعجباً، متعجباً من اندفاعها المفاجئ في هذا الموضوع، حاول كتم ابتسامته ولكنه لم يستطع فقال ضاحكاً:

- في الوقت الذي تريدين!

رفعت سبابتها أمام وجهها، وبعصيبة قالت:

- إني جادة، ولا أمزح في هذا الشأن، يجب أن نسرع في الانتهاء من هذا الأمر!

وبدأ صوتها يعلو، وكأنها بهذا تريد من الأخرى أن تسمعها بوضوح وتعرف حقيقة الأمور. إن كانت علياء تظن أن الأمور في صالحها فهي مخطئة، عقدت حاجبيها ونظرت إليه بعصبية طفولية جعلته ينفجر ضاحكاً منها:

- لا تضحك، أهذا وقت الضحك؟ أنت لا تحترمني من الآن، وابنة خالتك تلك..

وأشارت بيدها إلى الباب:

- لا أريد رؤيتها بعد الآن هنا، ولنسرع في أمر الزواج، وإن استطعت فاجعله الليلة.

ضربت بقدمها الأرض وأخفضت صوتها إلى الهمس، وقالت بحزم:

- ولا تنسَ ما اتفقنا عليه من البداية، هو أنني لا أريد منك شيئا، لا أريد حفلة ولا أي شيء، أريد فقط زواجاً شكلياً لا يربطني بك ربطاً حقيقياً.

مسح على جبهته مرتبكاً من الإجابة على موضوع علياء الذي يجعله يحرج من نفسه بسببه.

فمنذ أسبوع وعند عودة ترفة إليه، قرر الذهاب إلى خالته وزوجها لفسخ الخطوبة وإنهاء أمر تعليق علياء، صارح خالته بعد أن أتى في زيارة مفاجئة لهم فلم يجد في المنزل إلا هي، جلس معها في المجلس بعد أن شرب من قهوتها العربية، خاض معها في بعض الأحاديث الجانبية قبل يدخل في صلب الموضوع في استحياء:

- في الحقيقة يا خالتي هو أنني أريد فسخ خطوبتي بعلياء!

سرقت المفاجأة لون وجهها، اتسعت عيناها في صدمة، قبضت على عصاها التي تتكئ على الأريكة، أضاف في خجل:

- علياء فتاة رائعة، وأتمنى أن تتزوج من شخص يستحقها.

صدت خالته بوجهها عنه، أعادته إليه وحمرة خفيفة تلونه وتخفي وراءه قهراً واضحاً، قال محاولاً الاستسماح منها:

- اعذريني يا خالتي وآسف، ولكنني مضطر..

رمقته بنظرة غاضبة، قالت والتعب واضح على ملامحها التي أكل عليها الدهر وشرب:

- وهل اضطرارك هذا هو بسبب فتاة أخرى في حياتك؟

سكت ولم يجبها، ولم تضف خالته على حديثهما شيئاً إنما تركته وذهبت وقبل أن تذهب أسرع إليها ليقبل رأسها فاستقبلت قبلته بفتور.

والآن هو يستحي من علياء بسبب كرم تواجدها معهما في وقت الحاجة بعد أن فسخ خطوبته منها دون أن يعطيها سبباً مقنعاً، ولكن يبدو أنها لم تتأثر وهذا ما جعلهُ يشعر بالراحة، ولكن يتمنى أن يمر الأمر بسهولة بعد إذاعته لخبر زواجه من ترفة ولا تحدث مشكلات بهذا الشأن، لأنه اتخذ قراره بالزواج منها ولن يتراجع عنه.

حدثها يطمئنها وداخله متعثر بالأفكار:

- حسناً.. حاضر لكل ما تريدينه، ولكن بشأن الزواج أمهليني عدة أيام لترتيب بعض الأمور.

أولته ظهرها دون أن تلقي كلمة وداع وخرجت مثلما دخلت، صدمت الباب بقوة، وقفت عنده، شهقت شهقة عالية ويدها على صدرها، اللعنة على ما فعلته، ألا يعد ذلك جنوناً، إنها مجنونة! نفضت شعرها ليتشابك أكثر، سارت قليلاً.. ألقت نظرة خاطفة على تلك التي تقف بعيداً قرب المطبخ، وتحت ضوء المصباح الذي أنار جسدها الطويل المنتفض من الغضب. اقتربت منها، حاولت ترتيب خصلات شعرها لتبدو في أفضل حال أمامها، وضعت يديها على خصرها ثم قالت:

- هل سمعتِ شيئاً لم يعجبكِ، أكان ما سمعته مذهلاً؟

لمعت الدموع في عيني علياء، تقدمت منها، تقابلتا، ترفة مرتفعة درجة، والأخيرة تحت تلك الدرجة، تحدثت علياء، ارتجف صوتها:

- ما الذي سمعته، كيف لم يخبرنا ذياب بهذه الأمر؟ وكيف يمكنكما التخطيط لكل هذا من رواء ظهورنا، وأنتِ ما الذي فعلته له لكي يفكر بالزواج بكِ؟

رفعت كتفيها، رسمت ابتسامة مغرورة، نفثت الكلمات على وجه علياء:

- ومن أنتِ لكي يخبركِ خطيبكِ المزعوم بهذا؟

وضعت يديها على خدها وأضافت مستفزة الأخيرة:

- لأنه يحبني، ويريد الزواج مني بأي طريقة، فكيف لي أن أرفضه!

رفعت يدها إلى وجه علياء الذي تصاعدت الحمرة إليه وقالت بعصبية:

- أرأيتِ... لن تأخذيه مني.. لأنه أصبح في النهاية لي، وهيا الآن اخرجي من منزلي!

غارت الكلمات عميقاً في صدر علياء، واحمرّ وجهها من الإذلال، تجلى من انعقاد حاجبيها المرسومين مدى ألمها، ضغطت على شفتيها وهي تعي في داخلها أنها قد خسرت المعركة قبل

بدايتها، فبعد كلمات ذياب المفعمة بالحب ونظراته الغارقة في ترفة التي رأتها منذ دقائق اكتشفت أنها لم تكن تعني شيئاً لذلك الرجل طوال تلك الفترة الطويلة. ولم يشعر بحبها الذي أخفته وأظهرته مرات عديدة، ولم يقدر سنوات عمرها المسروقة لأجله ليتركها دون أن يضع أيّ اعتبار لمشاعرها. والآن أيمكن أن تنسحب بهذه السهولة وتخسره من أجل طفلة!.. إن كان كذلك فهي لن تخرج إلا بانتقام، ولكنها لم تكن تمتلك في تلك اللحظة إلا غضبها الذي خرج بصورة مفاجئة ومدمرة، رفعت يديها، انقضت على شعر ترفة، تشابكت أيدي الفتاتين، نزعت ترفة وشاح علياء ولطمتها على وجهها، صفعت علياء وجه ترفة، أوقفت علياء يديها عن ترفة، حاولت المقاومة وجعل ترفة تضربها، ولكن الأخيرة توقفت أيضاً، دفعتها.. سقطت علياء على الأرض، مسحت يد ترفة الكف الأحمر الذي صبغ وجهها، ويدها مليئة بالخدوش، نظرت عينا علياء الدامعتان إليها وقد ساح كحلها من القهر، تركتها ترفة دون أن تضيف إلى تعبيرها المخنوق شيئاً. مشت مسرعة إلى غرفتها، أغلقت الباب بقوة وراءها، تاركةً الأخيرة على الأرض وحيدة ذليلة من الموقف الذي أظهر مدى هشاشة نفسها.

* * *

تضطجع في الصالة على إحدى الأرائك والهاتف بين يديها وأصابعها تضغط بصورة سريعة على أزرار الشاشة، قدم واحدة تتأرجح من الأريكة والأخرى مثنية، تمد يدها إلى صحن المكسرات، تلتقط منه مجموعة، تأكلها، تضع القشور في صحن صغير على الطاولة. رمت بالهاتف من يديها، قالت في ضجر متأففة:

- هنا وعلى التلفاز، كل الأخبار وبرامج التواصل تخبر عن إعصار سيضرب الشاطئ أقوى من إعصار جونو بدرجتين، زلازل وأمطار... يا إلهي... الآن مر أسبوع والأمطار في استمرار، هذه السنة سنة خير.. تباً لهم لماذا يرون أنه نذير شؤم؟.. أتمنى أن يأتي الإعصار ويجزهم جزاً!

تسمع صوت انفتاح الباب، ترفع قدمها عن الأرض، تعدل ثوبها الأبيض وتغطي ساقيها المكشوفتين، تعرف أنه وقت عودته من العمل، ولهذا وفي كل يوم تنتظره هنا، في محاولة لتدمير باقي يومه بمزاجها المتعكر، منذ أسبوع تقريباً تم الزواج الورقي بينهما، وحدثت مشكلات كبيرة بينه وبين خالته بهذا الشأن، حتى أنها قطعت علاقتها به بسبب اكتشافها أن من ترك ابنتها من أجلها

تكون ترفة، ولكنه لم ينقطع عن زيارتها وصلة رحمه، ولكن ترفة لم تهتم فأكبر اهتماماتها هي التخلص من علياء بشكل نهائي.

تقوم من مكانها، تتمخطر في مشيتها، تخطف بصره وخطواته ترتفع مع الدرجات، يرفع حاجبيه دلالة على معرفته بما تنوي قوله. يمشيان كل منهما باتجاه الآخر، هو ينزع قبعته الزرقاء عن رأسه، وهي ترفع خصلات من شعرها الذي طال عن عنقها، تقف أمامه متجهمة، ويداها على خصرها، يرفع حقيبته، يحاول مداعبتها بوضعها على رقبتها، يزداد تجهمها، تهمس في غضب وهي تنزع الحقيبة عنها:

- لقد خنقتني بها، لا يمكنني التحمل أكثر من ذلك!

يضع يده على شعرها يمسح عليه، يعدل خصلاته النافرة. تقفز كل شعرة في جسمها، ترتعش تحت لمسته التي يفعلها لأول مرة، تمسك بيده وتبعدها عنها، تجعله يشعر بالارتباك معها بعد أن قرر محاولة تغيير طريقة معاملته معها لعلها تقربهما من بعض كالماضي. تحدثت متذمرة مخفية ذلك الإحساس المبهر الذي شعرت به تجاهه وهما يمشيان إلى غرفة الطعام:

- كل يوم نعيد ونزيد في الموضوع نفسه، أريد العودة إلى العمل، لأنني لن أتخلى عنه ولا يمكنك أن تحبسني هنا إلى الأبد بأعذارك القبيحة!

قلدت كلماته التي ردها عليها في وقت ماض:

- إن الجو لا يسمح بذلك، والمنطقة بعيدة، وأنا أخاف عليكِ و... و... و...

تجعد جبينه، ارتفع طرفا شفتيه عن ابتسامة، سار بضع خطوات ولكنها وقفت أمامه لتوقفه عن التقدم، أكملت بنفس النبرة الغاضبة:

- لم يكن ذلك ما اتفقنا عليه من البداية، أيها المنافق لقد استغللتني لتسجنني هنا، كيف لك أن تفعل هذا بي!

تنهد وحاول بكلماته الهادئة التخفيف من حدة غضبها:

- يا عزيزتي سأحاول تطييب خاطرك، ولكن انتظري حتى تعتدل الأجواء، وأيضاً المنطقة بعيدة، هل تريدين أن أبحث لكِ عن مركز خياطة قريب؟

همست بحدة:

- لا... ولن يحصل ذلك!

أومأ بإرهاق، وقال:

- حسناً، بعد أن تقدمي على رخصة للقيادة، سيكون الوضع أفضل وستذهبين بنفسك إلى أيّ مكان تشائين، ولكن عليكِ إكمال دراستكِ قبل كل شيء.

* * *

طلعت الشمس بعد أيام غائمة ممطرة، جلست أمام مرآة المنضدة وأشعتها تسقط على شعرها اللامع كبريق الذهب، وضعت أمامها مساحيق التجميل التي اشترتها منذ فترة قريبة. لقد أسرفت في الشراء، والآن هي تجلس حائرة أمام كيفية وضعها على وجهها، في الحقيقة شكل ملامحها أفضل من دون مكياج، ولون بشرتها الباهت لا يناسبه، ولكنها ومن أجل اليوم ستضع كل الألوان على وجهها لتبدو مبهرة أمام الضيوف ولا تريد أن تكون أقل من تلك الزرافة علياء، حاولت مطالعة دروس وضع المساحيق أولاً ثم تطبيقها، وضعتها، مسحتها ثم وضعتها وأحست أن وجهها يبدو غريباً، وذهبت إلى دورة المياه وغسلتها، ثم اكتفت بالقليل، لبست ثوباً أزرق ضيقاً، انتعلت كعباً، تعطرت وتزينت، وخرجت من غرفتها على وقت حضور الضيوف.

وقفت أمام باب غرفتها المغلق، أنصتت إلى صوت الأحاديث الآتية من الصالة، تقدمت قدماها بهدوء، التصقت بالحائط تحاول التقاط الأصوات ومعرفة من حضر، فلقد أخبرها ذياب أن ضيوفاً من أهل أمه البعيدين سيحضرون لمباركة زواجهما، وأيضاً من الممكن أن تحضر علياء.

كانت مفاجأة غير سارة رؤية علياء بعد غياب دام مدة أسبوع، ذهب الضيوف بعد كلمات مجاملة لترفة وتملق من جهة علياء التي خطفت أبصار النساء في شفقة ورأفة، لتعتبر ترفة فرداً دخيلاً تواجد في مكان ليس له.

بعد أن اختلتا بنفسيهما، مشت علياء دون أن تلتفت إلى الأخيرة، تابعتها ترفة بنظراتها الحادة. عبرت الصالة، ذهبت عبر الممر الذي يسير إلى غرفة ترفة، صعدت الدرجات، جعلت ثوبها الأسود يسحب على الأرض، وكعبها يطن في أذني الأخيرة في ذلك الهدوء. خلعت ترفة حذاءها، ركضت ناحية الغرفة، وقفت أمامها، تمنعها من الدخول إليها، رسمت علياء ابتسامة ساخرة:

- هذه غرفتكِ.... أريد الدخول إليها للصلاة!

كشّرت ترفة وكأنها تبتسم، أشارت إلى غرفة في الجوار:

- ألا تذكرين... تلك غرفة الصلاة وليست هذه!

داهمتها بضربة على كتفها وأزاحتها عن طريقها، ضربت ترفة طرف الباب الخشبي، أمسكت علياء بمقبض الباب، فتحته على مصراعيه، ظهرت التجاعيد قليلاً على وجهها وازدادت إلى أن تفجر بالحمرة في ضحكة مكتومة، حدثتها في استصغار:

- تبدو غرفتكِ... هي نفسها، غرفة فتاة غير متزوجة!

مسحت ترفة على ذراعها متألمة من الضربة التي أتتها على حين غرة، سدت طريقها مرة أخرى في حنق، اختلقت كذبة سريعة لكي تدمر الأخرى:

- إنما هناك...

وأشارت إلى غرفة ذياب، انعقد حاجبا علياء استهانة بها وقالت:

- كاذبة!

على صوت انفتاح باب الصالة التفتتا، سمعتا صوت خطوات الداخل، تبادلتا النظرات بشيء من التحدي. رفعت علياء يدها إلى رأسها، أنزلت حجابها عنه. ذهلت ترفة من الأمر، نزل شعر علياء الليلي الطويل كالشلال إلى أن وصل عند ركبتيها، همست وهي تقترب من ترفة:

- أهو حلال عليكِ وحرام عليّ؟ لقد صمت عنك لمدة سنوات عندما كان هو خطيبي، والآن عليكِ تذوق مرارة ذلك!

ولكن وقبل أن تتقدم علياء إلى الأمام، وضعت ترفة يديها عند صدرها تمنعها من التقدم، عندها دفعتها علياء بعيدا عنها، ولكنها وقفت مرة أخرى أمامها متحدية ومتوترة.

إنها تغار، وتغار جداً، ولا يمكنها تحمل أن يرى ذياب علياء بهذه الشكل، ماذا لو قرر التخلي عنها والعودة إلى علياء؟ ما الذي ستفعله حينها؟ هل يمكن أن يفعل ذلك بها؟ لا يمكنه بعد أن تزوجها وعادت إليه، لا يمكنها التنازل!

تركت علياء، مشت سريعاً.. نزلت الدرجات.. تقدمت عبر الصالة، ولكنها وقفت عند ممر غرفته قبل أن تصطدم به. أمسك بكتفها متفاجئاً من سرعتها، التقطت كفه وعيناها تسيران من ملابسه الرياضية الحمراء إلى وجهه المستغرب منها، أدخلت أصابعها بين أصابعه، ارتجف ويدها الباردة تحتضن كفه، هزت ذراعه في انفعال، جال ببصره على وجهها الذي يبدو مختلفاً اليوم وأكثر إشراقاً، وهي لم تبعد عينيها المتوترتين عنه، رفعت يدها وأشارت إليه أن ينخفض، ارتفع حاجباه إلى جبينه. انخفض إليها، ارتفعت على أطراف أصابع قدميها، وضعت فمها على أذنه، لفحتها بأنفاسها اللاهثة، انتظر أن تتكلم ولكنها لم تنطق بشيء، نطقت أخيراً وهي تنفخ في أذنه:

- دعنا نذهب إلى غرفتك!

لم تعطه المجال للاستيعاب، إنما شدته بينما هي تمشي، فتحت الباب ودخلت أمام مرأى تلك الأخرى التي وقفت محطمة عند الدرجات، وهي تشعر أنها انسلخت نهائياً من ذلك المنزل.

أغلقت الباب، استندت إليه، وما زالت يدها تمسك بيده، ووجهها يصد إلى الباب المغلق. ارتعشت فجأة وعيناها ترتفعان إليه وهي تشعر أنها تكاد تلاصقه من شدة الاقتراب.

حار من فعلها، تأمل ملامحها المضطربة، أحس أن اقترابه منها بهذا الشكل يشكل خطراً على أحاسيسه، لقد حاول كبح مشاعره التي تضايقه عنها، لكيلا يتطور الأمر إلى شيء آخر، هو لا يرغب به! مجنون هو ليظن أنه لا يرغب بها بتلك الطريقة. فمنذ زمن طويل أحبها، والآن يكتشف أن الحب الذي ظنه حباً أبوياً كان مجرد حب رجل لامرأة، أو أنه تحول لذلك بالفعل!

بقيا على تلك الحالة فترة، عرقت أيديهما فيها وتعانقت عيناهما، اقترب منها خطوة مبتورة ويداهما تنزلقان عن بعض، لم يستطع كبح جماح مشاعره عن عناق بسيط، احتضنها وهي أبقت

يديها على صدره تحاول وضع مسافة بينهما والسيطرة على ثورة المشاعر التي اجتاحتها، إلى أن تشنجت وهي تشعر به يشم شعرها، دفعته دفعة قوية عنها لكي تبعده. ابتعد إلى أن وصل إلى سريره، مسح على شعره نادماً على تهوره وجيش من المشاعر يتحرر من قفصه الصدري، ورائحتها ما زالت تسيطر عليه.

وضعت يديها على صدرها الخافق بعنف، لم تستطع النظر إليه، خرجت من الغرفة، ركضت إلى غرفتها، أقفلتها بالمفتاح، طافت في الغرفة بجنون، رفعت شعرها عن عنقها أمام المرآة، لفته إلى الأعلى، ومن ثم تركته لينسدل على كتفيها. شمت رائحته، فداهمتها رائحة عطره التي خنقت أنفاسها منذ دقائق، انتفضت.. نظرت إلى وجهها المتوهج من الخجل، ولعنت تلك الساعة التي استسلمت فيها لعناقه.

* * *

فتحت النافذة، أخرجت يدها تتلمس قطرات المطر التي بدأت بالانهمار مجدداً، نظرت حولها وزخات المطر تضرب الأرضية الحجرية والرملية، فتنجرف المياه مكونة مسارات لها في شتى بقاع المنزل، هل يمكنها أن تعيد الحياة إلى الفناء بعد رحيل أمها! فرحيل أمها خلف في نفسها ندوباً لا تشفى، فهدوء المنزل خانق، والحياة فيه رتيبة، وباتت لا تُطاق!.. فكرت في الزراعة كما كانت تفعل أمها، وبتربية الدجاج، يمكنها أن تحضر قطة أو كلباً، أو ماعزاً وبعض الأرانب، لكي يستعيد المنزل حياته السابقة، ولكي تعيد روحها إلى سالف عهدها، وتستعيد روح أمها.

منذ ذلك اليوم وهي تتحاشى مواجهته وتتهرب منه كلما جاء إليها أو حاول التحدث معها، فمرة أقفلت الباب عليها وتجاهلت طرقه، ومرة أخرى التقت به مصادفة في إحدى الليالي بعد مهمة اختلاس طعام من المطبخ، فعندما رأته عادت أدراجها إلى الداخل، ولكنها عادت لتخرج ثانية، وهي تشعر بالإحراج بسبب ما تلبسه، كانت تلبس بدلة شتوية كاملة على شكل أرنب، أعجبه مظهرها فقال ممازحاً:

- يا أرنوبة!

شعرت بالإحراج والغيظ، فهتفت به غاضبة:

- أتهزأ بي، لا يهمني رأيك المهم هو أنني أراهُ جميلاً.

صدت عنه، سارت بخطوات راكضة، تضغط على شفتيها من الخجل تتذكر أن الذي حدث بينهما منذ أيام لم يكن موقفاً عابراً، إنما كان شيئاً غريباً دخل إلى حياتها دون مقدمات. أما هو فاتسعت ابتسامته لمزاجها العدائي الذي بدأ يعتاد عليه ويحب مجاراته.

بعد أيام من الجلوس بين جدران غرفتها الأربعة، والانعزال عن العالم والغرق في الرسم ومطالعة الهاتف دون هدف، قررت أنها سوف تخرج من قوقعتها، وتذهب إليه لكي تزعجه كما تزعجها مشاعرها نحوه.

تترك النافذة وتمر قرب مرسمها الذي اشترته حديثاً، تمشي بين الأوراق المتكدسة والمرمية تحتها. تلعن رسمها الذي أصبح رديئاً ومحبطاً بسبب انعكاس مشاعرها السلبية عليه.

هذه المرة نظرت إلى نفسها في المرآة، سرحت شعرها وربطته كذيل حصان، ولبست ثوباً وردياً قصير الأكمام، وهي تفكر أنها معتادة على الظهور أمامه بهذا المظهر من قبل، والآن بما أنهما متزوجان تظن أنها يجب أن تكون أكثر حرية، لا أن تصاب بالخجل كما تشعر الآن!

خرجت من غرفتها بخطى متأنية، عبرت الممر واتجهت إلى الصالة. فاحت رائحة عطره واختلطت بها رائحة العود الكمبودي، رأت الأبخرة تتصاعد من المبخر الموضوع على طاولة زجاجية عند الزاوية. نزلت الدرجات، جالت ببصرها تبحث عنه، رأته أخيراً يقف أمام النافذة بثوبه الأبيض، يضع سماعة الهاتف على أذنيه ويتحدث. في التفاتة قصيرة منه لمحها، في تلك اللحظة أنهى الاتصال مع المتصل، نظر تجاهها، ابتسم وهو يتأمل نظراتها المتوترة التي تحاول إخفاءها عنه تحت قناع الغضب.

وصلت إليه ووقفت أمامه مختلقة العصبية، وقالت دون أن تفكر بكلماتها:

- أنا لم أنسَ الذي بيننا، ولم أنسَ أنك قاتل والدي، وأيضاً من خدعني وكذب عليّ.

تغيرت ملامحه، وأصبحت باهتة لأسلوبها المهاجم، ولكنه حاول السيطرة على مشاعره وخنق تلك الذكرى التي أيقظتها بعد غفوتها الطويلة.

أغمضت عينيها تحاول السيطرة على انفعالها، شدت ذراعيها إلى صدرها، غيرت دفة الحديث:

- إلى الآن لم يتغير شيء، الطقس ما زال كما هو، وأنا سئمت من أعذارك!

اقتربت منه، ناسية تشوشها منه، وأضافت مطالبة:

- أريد الذهاب إلى أمل وقضاء بعض الوقت معها، فأنا لن أستمع إلى ترهاتك بعد الآن وسأفعل ما أريده فقط.

تعترف أنه لا يقصر في حقها، وفي كل يوم هو يقترح عليها أن يخرجا، وفي أغلب الأحيان هي ترفض ذلك، إلا إذا كان إلى السوق لكي تبذر.

ابتسم بود، فصغرت عيناه، تقدم إليها خطوتين واسعتين، توقف أمامها، ظهرت علبة حمراء صغيرة في يده. ارتبكت وهي تراها، رفعها إليها، فتح يده وقدمها، قال وهو يفتحها ليظهر خاتم ذهب مستدير يحوي زخارف بسيطة:

- هذه الدبلة، أظن أنه يجب أن تكون لديكِ واحدة!

خفق قلبها، تدهورت مشاعرها، تقدم إليها خطوة إضافية وهو يشعر أنه يجب عليه الاستمرار في الاقتراب منها بأي وسيلة لكي يطويا صفحات الماضي ويبدآ صفحة جديدة. أخرج الخاتم من العلبة، توتر وعيناه تقعان على وجهها الذي عصفت به مشاعر مختلفة... رفع يديه، التقط يدها اليسرى في لحظة مفاجئة لها، لمس أصابعها في رقة، وصل إلى البنصر، كاد يضع الخاتم في إصبعها، ولكنها نفضت نفسها منه في لحظة غير مدروسة. يسقط الخاتم، يتدحرج على الأرض إلى أن يصل إلى تحت الأريكة، يستظل تحت ظلها، راسماً بداية حياة جديدة للاثنين.

وللحكاية بقية...